

رواية
رماد الشوق

محمود السامرائي



الرواية الفائزة بالمركز الثاني / شباب

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

Rashid bin Hamad Al Sharqi Innovation Award

2019

الرواية الفائزة بالمركز الثاني / شباب
جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع
Rashid bin Hamad Al Sharqi Innovation Award

رواية رَمَادُ الشُّوق

محمود رمضان السامرائي

الرواية الفائزة بالمركز الثاني / شباب

لجائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

الطبعة الأولى 2019

رقم الطلب: MC-03-01-1932147

الترقيم الدولي : ISBN: 978-9948-37-803-7

التصنيف العمري: 13+

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتاب وفقاً لنظام

التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

الفجيرة دولة الإمارات العربية المتحدة

ص . ب. 7444 - الفجيرة

هاتف: +971 9 2222 678 فاكس: +971 9 2222 959

Website : www.darrashid.ae Email : Info@darrashid.ae

تصميم الغلاف: فيصل جواد

الإخراج الداخلي: آية خليل

التدقيق والمراجعة: فيصل جواد

حقوق النشر والتوزيع محفوظة



دار راشد للنشر
Dar Rashid Publishing

الأفكار والآراء في هذا الكتاب تعبر عن آراء الكاتب ولا تعبر عن رأي دار راشد للنشر.

جميع الحقوق محفوظة لدار راشد للنشر، لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

رواية
رَمَادُ الشَّوْقِ

مقدمة

والجائزة تضع معاييرها كان ثمة سؤال علقته استحالة الدقة في الجواب على قارعة إنتظار لحين موعد إنتهاء المحكمون من أعمالهم المنوطة بهم قراءة وتقييماً ، وربما كان السؤال مبكراً في تزامنه ووضع القواعد والأسس التي تقوم عليها الجائزة فقد حَمَلْنَا حلم الديمومة في مسارها على أن نسأل دون أن نجد سبيلاً لحُدس يشفع لإجابة قطعية ، فطرحنا السؤال دون إخفاء توجسنا مما يمكن أن يجيء به الجواب ولم نحاول أن نمرره باطناً في ظاهر السؤال ، فإننا نرى فيه مشروعية يقررها الحرص على بقاء الجائزة عنواناً لدعم البنى الإبداعية ولبانيها من الأدباء والنقاد العرب ، وعليه فقد كان السؤال « هل ستحظى جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع بعناية المبدعين عبر عديد المشاركات التي نأمل ؟ » ، وهل سترقى تلك المشاركات إلى مايكفل حلم الجائزة بحيازتها على كم من الأعمال الأدبية التي تشير إلى إبداع عربي لطالما كان محوراً أساسياً في الرؤية التي قامت عليها الجائزة ؟ بطرحنا التساؤلات لم نكن نتوخى إجابة عاجلة طالما أن الإجابة تلك مرهونة بالنتائج ، وتلك النتائج هي الأخرى مرهونة بآراء المحكمين التي تعدل عندنا ماتتطوي عليه المحصلات الرقمية في التقييم حرصاً على ضرورة إقتران الكم بالنوع ، بما يأخذ حلمنا لمنطقة تحقيقه بأحقية

تحقيق المنجز الإبداعي العربي في الفضاءات الأدبية العالمية
ليغدو الكتاب العربي طائر الشمس الذي ينشر إبداعه تجليات
دافئة فوق المساحات البيضاء التي حالت دون تحليقه فوقها
عوامل التسويق له وإضاءته إعلامياً كما يستحق فالنتاج أي
نتاج مالم تنهياً له فرصة الإعلان عنه والترويج له وحظوته
بالإهتمام من خلال الكتابة عنه أو فوزه بإحدى الجوائز
الأدبية التي تحظى باهتمام ومتابعة جمهور الأدب والثقافة
لا يمكن أن يكون ملفتاً للأنظار، وهذا بالطبع يشمل كبرى
النتائج الأدبية العالمية ، ولعل هذا الهدف كان الهاجس
الأول للرؤية التي وضعها سمو الشيخ الدكتور راشد بن حمد
الشرقي رئيس هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام ، والتي منها
انطلقت اللجنة التحضيرية في وضع الأسس في رسم آفاق
تلك الرؤية وحددت آليات العمل لتنفيذها ، والتي تمخض عنها
شمول العدد الأكبر من المرشحين للجائزة بدءاً من القائمة
الطويلة ، فالقصيرة ، فالمراكز الثلاثة الأولى بعناية الجائزة
لطبع نتائجهم وفق استحقاق أقرت به لجان التحكيم في
فروعها السبع، وتسعى الجائزة لإنجاز ما وضعت لأجله متخذة
الموضوعية عنواناً لمهنتها ، عبر اختيار المحكمين المتمرسين
 والمعروفين بحيادية أحكامهم ، وعدم التدخل بقراراتهم ، كيما
تكتمل صورة مقاصد النبل من ورائها بصفتها تشدد دعم
الإبداع العربي والمبدع العربي دون أن يخالط الهدف هذا
هدف آخر ، لتضع نفسها جهة فاعلة في الحراك الإبداعي
العربي إيماناً منها بأن أرض العرب موطن الخصب المعرفي
والنماء الحضاري ، وليس ثمة غايات تتخطى حدود رعاية
المنجز ودعومه وتقدير ما يكفل المبدع ونقل منجزه للأقاصي
البعيدة من جهات الأرض ، وبالتالي فهي تسعى لخدمة القارئ

والكاتب على حد سواء ،وأخيراً إذا كان لابد من شهادة بحق تلك المشاركات فلا أدل على أهميتها شيء من آراء محكميها التي وثقت بتدوينهم إياها بمعرض توصيفهم لها والمقدمة لأمانة الجائزة التي تحتفظ بها كوثيقة تحفظ ألق الأسماء التي ندعم كي تأخذ من المساحات المضيئة ماتستحق ، مغتبطون لما آلت إليه النتائج ولما ورد الجائزة من حجم فاق التوقعات من المشاركات التي نافذت على ال ٩٥٠ مشاركة حفلت بتنوع ثر ونصوص نوعية كشفت عن مواهب كبيرة وقدرات عالية في مجالات الجائزة كافة، مما يقتضي منا الإشادة بها مشيرين لآراء المحكمين ومشيدين بدقة أحكامهم التي كشفت عنها النتائج ، الحمد لله على نجاح المسعى ، والحمد له جل في علاه على بلوغ المطمح بحدود الخطوة الأولى لجائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع، والتي نضع ثمار قطافها الأول على مائدة قراءاتكم مشفوعة بالمحبة .

الأمانة العامة

لجائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

الدورة الأولى 2018-2019

تقديم عام

لم تكن مسيرة التحكيم سهلة، ولم تكن صعبة، كانت بين بين، طرقاتها مليئة بالدهشة حيث الزخم الروائي الجميل الذي يخبرنا أن الرواية مازالت بخير، وكلجنة تحكيم أطلعنا في البداية على أربعة عشر رواية وكانت تتراوح ما بين الجيد، والممتاز، ومع تحديد القائمة الطويلة والتي كانت عبارة عن عشر روايات ارتفعت وتيرة التميز حتى وصلنا للقائمة القصيرة بخمس روايات، وبعد الإعلان عنها، تم الاجتماع النهائي لاختيار الفائز الأول والثاني والثالث بالإجماع، ومعروف في سياسة الجائزة أننا نقرأ روايات بلا أسماء أصحابها، أحياناً قد نستدل على جنسية الراوي من خلال السياق والأماكن، وقد يكون حدسنا خاطئاً في الكثير من الأحيان فالحديث عن الأمكنة غير كافٍ بالتعرف على هوية الكاتب لذا لأننا في النهاية نعمل إلى منهج عمل لجان التحكيم باختيار الروايات من خلال معايير محددة جرى الاتفاق عليها .

ومن أبرز الروايات التي تم استبعادها منذ البداية تلك الروايات المكتوبة باللهجات العامية، والأخرى التي تثقلها أخطاء نحوية وإملائية، وتلك التي تتحدث عن الذات الإلهية وغيرها مما يعد مخالفاً لشروط قبول الرواية مثل الإيحاءات الإيروتيكية التي تتنافى وضوابط الأخلاق ومعايير القبول في المنطقة العربية أيضاً، بالإضافة إلى التي لا

تتوفر فيها أسس البناء الفني للرواية، كذلك السير وفق محددات ومعايير الجائزة التي وضعتها الأمانة العامة للجائزة كمعايير مهنية اتفق المحكمون على الالتزام بها ، ولم يكن الاختيار سهلاً لوفرة المتميز من النصوص ربما لم نتوقعها ولكن كان لدينا الوقت الكثير لنقرأ بعناية ثم نختار، بعض الروايات كتبت بلغة سلسة ومبتكرة وناقشت فكرة مستهلكة بطريقة خلاقة ونقلت إحساس مختلف وربما نشترك كفريق محكمين بدهشاتنا من بعض الأفكار وتقانات السرد و ثيمات الروايات المقدمة التي عمد بعضها إلى إحياء التاريخ وتعرية مفاهيم نحملها عنه والبعض الآخر تخلى عن فكرة الرواية الجمعية إلى الرواية الواعية بالذات والتعرف على توجهات الشباب وقضايانا الشائكة في العالم العربي .

والجائزة في النهاية ماهي إلا تقدير للأعمال المنتجة وهي ليست نهاية المطاف للروائي سواء فاز بالجائزة أم لم يفز .

لجنة تحكيم الرواية شباب

جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع

..مَنْ كَانَ يُعْقُوبِي الْحُزْنَ، جَلَى عَنْ بَصَرِهِ الْعَمَى،
بَطَرِحِ الْبَشِيرِ إِلَيْهِ قَمِيصَ يَوْسُفَ!

عبد الكريم الجيلي

كُلُّ الطُّرُقِ كَانَتْ مُؤَدِيَةً إِلَى سَامِرَاءَ ..

وَلَكِنَّهَا مَتَعَرِّجَةٌ ضَيِّقَةٌ، لِأَذْوَابِهَا عِنْدَمَا اشْتَدَّ الْخُطْبُ وَتَحَطَّمَتِ
الْأُمَالُ عَلَى شَاطِئِ الْحَرْبِ وَالْفَقْدِ، لِتَبْقَى تِلْكَ الْمَدِينَةُ تَصْلِينًا
نَارَ الذِّكْرِ وَتَوْقِدَ الْوَجْعِ الَّذِي لَا أَوَارَ لَهُ .. تِلْكَ الْمَدِينَةُ لَا تَجِدُ
النَّسِيَانَ، كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا يُوَقِّدُ ذِكْرِي وَجَرَحًا وَحُزْنًا ..

تِلْكَ الْمَدِينَةُ لَا تَتَقَنَّ لَعِبَةَ النَّسِيَانِ !!

القسم الأول

١

أَوَّلُ الرَّمَادِ

-١-

فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا، كَانَ صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ يَتَسَلَّلُ إِلَى أُذُنَيْهَا، لَمْ تَسْتَطِعْ تَمْيِيزَ الْوَقْتِ وَالنَّوْمُ مَا زَالَ مَتَمَكِّنًا مِنْهَا، وَسَرَعَانَ مَا أُدْرِكْتَ مَا حَصَلَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِنْ أَهْوَالٍ وَأَوْجَالٍ مَرِيعةٍ، وَاسْتَغْرَبْتَ كَيْفَ أَخَذَتْهَا سَنَةٌ خَفِيفَةٌ، وَرَأَتْ السَّاعَةَ وَإِذْ بِهَا الثَّانِيَةَ وَالنِّصْفَ، لَمْ يَحْنِ وَقْتُ الْفَجْرِ بَعْدَ؛ فَلَمْ الشَّيْخُ مَاضٍ فِي أَذَانِهِ الَّذِي قَدْ طَالَ؟ لَتَسْتَرْقِ السَّمْعَ جَيِّدًا فَتَسْمَعَ الشَّيْخَ مَاضٍ فِي تَكْبِيرٍ وَتَسْبِيحٍ لِلَّهِ عَلَى مَا جَرَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ. قَامَتْ وَلَفَتْ فَوَطَّطَتْهَا لَتَمَشِيَ مَتَدَّةً وَقَلْبَهَا قَدْ طَارَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَتَسْبِيحِ الشَّيْخِ الَّذِي غَمِرَ قَلْبُهَا ذِكْرًا وَتَسْبِيحًا وَتَبَتُّلًا، وَرَاحَتْ تَسِيرُ نَحْوَ الْغُرْفَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ تُدَمِّدُ بِالْدَعَوَاتِ وَالْأَذْكَارِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي تَحْفَظُهَا، وَهِيَ عَلَى قَلْبِهَا إِلَّا أَنَّهَا تُعَدُّ بَيْنَ قَرِينَاتِهَا تَقِيَّةً، وَلَهَا إِمَامٌ يَسِيرُ بِسِيرَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَرَجَالِ آلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ دَفَعُوا بَلَاءً وَعَذَابًا عَنْهَا وَعَنْ بِلَادِهَا غَيْرَ قَلِيلٍ حَسَبَ زَعْمِهَا، فَهِيَ تَحْفَظُ قِصَّةَ الْإِمَامِ عَلِيِّ الْهَادِي مَعَ الْمُتَوَكِّلِ وَمَا بِهَا مِنْ أَسَاطِيرَ، وَوَلَدِهِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ، وَقِصَّةَ جَدِّهِمَا الْحُسَيْنِ وَاسْتِشْهَادِهِ، وَتَحْفَظُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ الْجِيلَانِي وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَلَهَا تَجَارِبُ مَعَهُمْ، كُلَّمَا اشْتَدَّتْ اسْتَصْرَخَتْهُمْ وَتَوَسَّلَتْ بِهِمْ وَنَادَتْهُمْ. وَبَيْنَمَا تَرِيدُ الْوَصُولَ إِلَى الْغُرْفَةِ الْمَقَابِلَةِ لِحَجَرَتِهَا سَمِعَتْ صَوْتَ انْفِجَارٍ هَائِلٍ كَادَتْ تَتَفَجَّرُ أُذُنَيْهَا لِشِدَّتِهِ، فَقَالَتْ تَلْقَائِيًا وَهِيَ تَتَوَكَّأُ عَلَى الْحَائِطِ بَعْدَ أَنْ كَادَتْ تَسْقُطُ: اللَّهُمَّ

صَلَّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ . وَبَقِيَتْ تَتْلُو الصَّلَوَاتِ إِلَى أَنْ عَادَ الْهَدُوءُ شَيْئاً فُشِيئاً ، فَقَامَتْ وَمَشَتْ إِلَى غُرْفَةِ أَوْلَادِهَا فَرَأَتْهُمَا مُسْتَغْرِقَيْنِ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ ، فَحَمَدَتِ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ ، إِلَّا أَنَّهَا وَكَمَنْ تَذَكَّرَ شَيْئاً قَالَتْ : أَيْنَ صَوْتُ الشَّيْخِ ؟ فَصَاخَتْ السَّمْعَ وَلَكِنْ لَا شَيْءَ ، هَدُوءٌ يَلْفُ الْمَكَانَ ، فَخَرَجَتْ وَفَتَحَتْ الْبَابَ وَنَظَرَتْ نَحْوَ مَكَانِ الْمَسْجِدِ وَلَكِنْ لَمْ تَرَ الْمَنَارَةَ ! فَصُعِقَتْ وَدُهِشَتْ ، وَسَرِعَانَ مَا انْحَدَرَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهَا ، هَلْ حَقًّا زَالَتْ وَتَهَدَمَتْ عَلَى رَأْسِ ذَلِكَ الشَّيْخِ الزَّاهِدِ الْمُتَبَتِّلِ وَلَنْ تَسْمِعَهُ ثَانِيَةً كَمَا تَسْمِعُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ ؟ هَذَا الشَّيْخُ الَّذِي سَمِعْتَ عَنْهُ وَأَحْبَبْتَ حَدِيثَهُ وَإِنْ لَمْ تَلْقَهُ يَرْحَلُ أَمَامَ عَيْنَيْهَا وَتَحْتَ الْإِنْقَاضِ ! وَصَارَتْ تَتَخِيلُ صُورَةَ الشَّيْخِ وَهُوَ مَدْفُونٌ تَحْتَ مَسْجِدِهِ الَّذِي قَضَى عَمْرَهُ قَارِئاً وَمُؤَذِّناً لَهُ ، وَبَيْنَمَا تَتَمَوَّجُ الْأَفْكَارُ وَمَشْهَدُ الشَّيْخِ تَحْتَ الْإِنْقَاضِ عَادَتْ الذِّكْرَى لِتَصْلِيحِهَا أَلْماً عَلَى أَلَمٍ . أَلَمْ يَكُنْ يُحِبُّهُ وَيَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ ؟ وَلَا تَزَالُ تَذَكَّرُ كُلَّمَا مَضَتْ مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْخِلَافِ الَّتِي يَتَحَوَّلُ غَالِباً إِلَى صِيَاحٍ غَيْرِ مُسْتَسَاغٍ ، كَانَ يَقُولُ لَهَا : كَمَا قَالَ لَنَا الشَّيْخُ فِي الْمَسْجِدِ : (إِنَّمَا الْمَالُ غَنَى الْيَدِ ، وَالْإِيمَانُ غَنَى الْقَلْبِ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ أَغْنَى قَلْبَهُ ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ غَنَى يَدِهِ عَنْ قَلْبِهِ فَيُخْسِرُهُمَا مَعاً) . وَعَادَتْ صُورَةُ ثَانِيَةِ حَيَاةِ أَمَامِهَا عِنْدَمَا آثَرَ أَخَاهُ بِمَحْصُولِ ذَاكَ الْعَامِ وَبَاعَهُ الْمَحْصُولَ بِثَمَنِ بَخْسٍ ، فَتَارَتْ وَصَرَخَتْ بِوَجْهِهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهَا بِهَدُوءٍ : كَمَا قَالَ الشَّيْخُ : (إِنَّمَا السُّمُومُ سُمُّ الرُّوحِ ، أَمَّا الْجَسَدُ فَحَقُّهُ التُّرَابُ وَحُفْرَةُ تُرْدَمٍ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ الْغَنَى مِنْ مَلِكٍ مَالاً ، إِنَّمَا الْغَنَى غَنَى النَّفْسِ) . هَكَذَا كَانَ يُلْقِي عَلَيْهَا حُكْمَ الشَّيْخِ الرَّابِضِ تَحْتَ الْإِنْقَاضِ ، فَيَقَابِلُ غَضَبَهَا وَسَخَطَهَا — وَمَا أَكْثَرُهُ — بِهَدُوءٍ وَحُكْمٍ شَيْخٍ كَتَبَ عَلَيْهَا سَمَاعَهَا كَمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ وَهُوَ يُؤَذِّنُ لِلْأَوْقَاتِ الْخَمْسَةِ ، وَلَكِنْ بَعْدَ الْآنَ لَنْ تَسْمَعَ صَوْتَهُ أَبَدَ الْعُمُرِ ..

وبينما تذكر صوته الرخيم المشبوب ببحة اضافت ميزة له،
ذلك الصوت الذي يوقظها فجراً رحل، وبينما تحاول استيعاب
الفكرة والتي بدت عصية على الفهم على بساطتها أقبل من
البيت المجاور يسير بهدوئه الرتيب المعتاد وكأن شيئاً لم يكن.
فقال تحيته المعتادة بصوتٍ خفيضٍ:

-مساء الخير يُمّة.

-مساء الخير يا ولدي.

فدخل معها البيت دون أن ينيس ببنت شفة، وتهاوى على
سريره والنعاس قد أخذ منه كل مأخذ، فنظر فوجدها ترمقه
بانتباه واستتكار، فعلم ما بها، ولكنّه قال بدون اهتمام:

-ما بك؟

-لم تأخرت الى هذا الوقت؟ ألا تعلم الوضع؟ ألا تعي ما
يجري حولك؟ الوقت ليس وقت السهر.

-أماه، إن البيت مجاور لنا، فأني تأخيرٌ والبيتان كالبيت
الواحد.

-ليسا كالبيت الواحد!

فقال بيأس:

-هذه عادةٌ قديمة.

-الوقت تغير.

فقال وفي لهجته شيء من السخرية:

-تغير! منذ متى؟ منذ سنين طوال وأنا متواجد في بيتهم
أكثر مما في بيتنا. فهل من جديد؟

-قلت لك مراراً، بيت عمك لم يعد كما كان، لا يحق لك أن تبقى معهم وتسهر، وإن بقيت على هذا الحال فسيصدق الناس ما تلوك به نورية عمتك.

فقال متأففاً ضجراً:

وماذا تقول هذه الأخرى؟

-أنت تريد الزواج من رحمة، وإنك غدوت صهرهم، هكذا تدعي عمتك، فعليك أن تقطع ادعاءها.

-قريباً لن يكون ادعاءً.

-ماذا تعني؟

-أعني ما فهمتيه، سوف أخطب رحمة.

فقالت بدهشة مصطنعة وكأنها لا تعلم وكل من يمت بهم بصلة يعلم بمشاعره ونواياه تجاه رحمة.

-رحمة! هل جنت؟؟ تتزوج رحمة!

فعدل من جلسته، وقال باهتمام:

-وما بها رحمة؟ بنت عمي وأنا راغبٌ فيها، ونويتُ أن أتزوجها على شرع الله، وهو امرٌ طبعيٌّ، كل الناس تتزوج بنات أعمامهم، بل كي ولرحمة مزية لم يحظَ بها الا القليل، أنا أحبّ رحمة، فلها مزيتان تزيد أو اصر المحبة وتؤكد اسباب رغبتني بها: بنت عمي، وحبيبتي.

فلم تعلم ماذا تقول، فقالت بعد أن تكدر وجهها:

-تتزوج وهذا حالنا وأبوك لم تمضِ سنة على وفاته؟

فقال وهو يذلف رأسه في فراشه:

-ليس الآن يا أمي، وكما تأمرين بعد أن تحول سنة على وفاة أبي...
أبي...

وبينما هم يتكلمان بدأت اصوات الرصاص تعودُ مجدداً، ويبدو أنها بعيدةٌ، وبدأت أنها كثيفةٌ، ثم تبعها انفجارات، وقامت ونظرت من النافذة ورأت الدخان يتعالى من بعيد، والانفجارات متتابة، وعاد أزيز الرصاص يُسمع في كل مكان، وها هي الشظايا تثير دياجي الظلمة الحالكة لتتناثر على الأرض. وتعود فتقف وتصلي على النبي وتدعو الله وتستجد بالأولياء، فقالت لولدها:

-ولدي، هذه المعارك على اطراف تكريت على ما يبدو، وأنا خائفة على أخيك.

-اتصلتُ به قبل ساعة ونصف، وقال إن الوضع مستقرٌ، بعضُ المناوشات التي حصلت، وهم سيعودون الى القاعدة، ولن يبقى، وأخبرني أنه سيأتي غداً صباحاً، فاطمئني ولا تقلقي.

-كيف لا أقلق، آه.. أشعر أن ناراً شبت في قلبي.. ولدي جواد، يُمة اتصل عليه الآن، أريد أن أسمع صوته.

وأخذ الهاتف واتصل به، ولكنَّ الرقم مغلقٌ، يعيدُ الاتصال، ولكنّه لا يجيب، فيعود يطمئنها، ويقول لها: سيكون بخير لا تقلقي، لن يكون هناك خطر عليه. ويعود ثانية ويقول: أمه جواد شجاع باسل، لا تقلقي، ولا تهتمي، مجرد زوبعة ومعركة وسيخلصون منهم. وهي مع ذلك تجلس وكأنها في مأتم والخوف يأكل قلبها الى الصباح، وما أن اشرقت الشمس وطبعت أول قبلاقتها على دجلة حتى لبست عباءتها وجلست عند باب البيت تنتظر أوبته.

لم يكن جنب دارها الا بيوتات معدودة، وقد سموها مع الأيام (قرية)، وما قريتهم الا عشرون بيتاً لهم ولأبناء عمومتهم ومعها أراض زراعية واسعة جنوب غرب تكريت، تلك المساكن والأراضي التي استقروا بها صار لها شأن وأي شأن، فأمام اراضيهم تقع (العوجة)، تلك القرية الصغيرة التي خرج منها أحد ابنائها فقبض على دفعة الحكم خمسة وثلاثين عاماً!!

الآن قريتهم أصبحت تعرف بـ(لوعة عباس)، وعباس هذا هو جدهم.

-٢-

كانت الأخبار متسارعة؛ سقطت الموصل.. ثم تكريت.. دُكت السجون.. فرَّ المحكومون.. انتشرت في تلك المناطق الأنباء عن انهيار الجيش والمؤسسات الأمنية.. هكذا غدا الوطن غير آمن، عادت هواجس الخوف تحيط بالساكنين.. عاد الهلع يتبخر وسطهم.. كل شيء ينذر بأيام حوالك.

جواد لم يعد، والأم بقيت تنتظر وتنتظر ولكن لا خبر عنهم، سقطت تكريت ومناطقهم، فرَّ منها رجال الجيش مذعورين، تتسلل أخبار إعلام تقول أن جواداً ورفاقه رحلوا كلهم في جريمة غاشمة ارتكبتها الإرهابيون، الحكومة أنكرت ذلك، وصدقوها! هم كاذبون ونعلم أنهم كاذبون ولكن في تلك الأيام صدقوهم، لم يكن هنا بُدُّ من التصديق، كيف تقنع الأم أن ولدها قتل ولا جثة له؟! وفجأة تظهر الحكومة فتكرر ذلك، فيقنع الأهالي أنفسهم بما قالته الحكومة.



كان أجود يرمق الغروب وسمرته الهادئة ولمعان الحنطة المذهبة
أوان الحصاد وهو جالس على تلة تشرف على أراضيهم
المترامية، وفوق التلة تشمخ نخلات باسقات متعانقات
وارفات الظلال يتفياً أجود في ظلالهنَّ وإن كان وهج الشمس
قد ولى. يقال أن هذا الموضع كان مقام جده عباس، وهنا
تجرع حسرته ولوعته التي مات بسببها وسميت القرية بهذا
الاسم (لوعة عباس). وأهل القرية اعتادوا كلما أظلمت الدنيا
بوجههم، وكلما حزنوا ويأسوا أو فقد حبيب أو مات عزيز
جلسوا تحتها وراقبوا الغروب وتذكروا حسرة جدهم. تقع
هذه التلة خلف بيت أجود وبيت عمه؛ إذ يفصل بين البيتين
المتجاورين فرع يؤدي الى التلة المشرفة على حقول، وعند
هذه التلة تنتهي حدود بيوتات القرية.

وبينما هو ساهٍ يتابع الغروب جاء صوت عذب طالما انتظر
سماعه: أجود..

نظر نحوها وفتر ثغره عن بسمه هادئة، وجلست جنبه،
فقالت:

-ما بك؟

ومضى يتابع هبوط الشمس ويقول بفتور:

-أخي جواد لم يأتنا خبر عنه، نحن خائفون عليه، لعله في
خطر ونحن لا نعلم.

فقالت رحمة بسذاجتها المعهودة التي كرهتها أم أجود منذ
طفولتها:

-اطمئن، رأيت في المنام جواداً على فرس أغرٍّ جامعٍ آتٍ
إلينا، وهذه بشرى بعودة أخيك فلا تخف.

لم يكن لأجود مزاج في الرد على رحمة وحديثها الممل، وهو لأول مرة يشعر أن كلامها ممل لا قيمة له كما تتعتها بتول أخته بذلك، ولكنه كان يراها غير ذلك تمامًا، يرى كلامها حكمًا ودررًا، ولكن في هذا الوقت رآه ساذجًا مملًا.

-أيُّ حلم يا رحمة؟ أقول لك لم يعد ولم نسمع عنه خبرا وأنبتِ تقوّلين حلم وفرس!

فقامت رحمة غضبى وتركت أجود مع أفكاره. كانت هذه المرة الأولى التي تجرباً فيها وزجرها، علاقتها منذ الطفولة، يسكنون متجاورين، على عادة العوائل والأقارب في الريف، بيوتاتهم متراففة في مكان واحد بلا جدار يحدها أو يفصل بينها إلا قبل سنين قصيرة عندما شبت رحمة فقرّر أبوها أن يبني جداراً بينه وبين أقاربه، وهي على أي حال كالبيت الواحد. وما أن بلغ أجود الحلم حتى بدأ يسترق النظر إليها، ورأى فيها الفتاة المناسبة له من دون سائر قريباته، مصير الأبناء هنا في الزوج محسوم، عليه أن يأخذ بنت عمه، وإن كان قد شذ عن هذه القاعدة نفرّ قليل، ولكن هي العادة التي فرضت نفسها، وأجود نشأ وهو يعلم هذه القاعدة جارية في حياته، فهو لم يرَ أحداً تزوج غير بنت عمه، فعائله محصور جداً، نشأ ولم يرَ إلا بيوت أقاربه والفلاحين العاملين عندهم، ولما بلغ التاسعة دخل المدرسة القريبة، وكانت هذه المدرسة القريبة يمشون إليها ثلاثة كيلومترات، لذلك لم يكونوا يرسلون أبناءهم إلى المدرسة إلا عندما يبلغون التاسعة تزيد أو تنقص قليلاً، وكل الرفقاء الذين يعرفهم هناك هم من أبناء الفلاحين، نفس البيئة، أما زيارة المدينة فلم يعرفها إلا بعد بلوغ الخامسة عشرة عندما دخل الثانوية الإسلامية في تكريت، وزيارة المدينة عدا ذلك قليلة، في مواسم الحصاد

فقط، وقد زار علوة سامراء وبلد والسريع، ومع ذلك فإن أجود يعتبر مثقفاً قياسيًّا بأبناء عمومته، فهو لم يرسب أي سنة في الابتدائية والمتوسطة حتى الثانوية التي لم يكملها، ويمتلك مكتبة صغيرة في بيته يقرأ فيها على بساطتها، إلا أنه كان يقرأ ويشترى الكتب على أي حال. كان يأخذ معه خمسة آلاف دينار كمصروف في يومه، وهذا المبلغ يعتبر كبيراً على فتى في السادسة عشرة من عمره، إلا أن هذا المبلغ لم يكن من جيب أبيه أو أمه، إنما من عمه سعيد، إذ كان عمه هذا ذا ثراء، يأخذ محصولهم بثمن بخس ويبيعه هو، فكان يعمل معه، وطالما اتهمت أم أجود عمه بأنه مختلس لهم، فتكفل هو بمصاريف أجود الدراسية، فأصرت أم أجود أن يتقاضى خمسة آلاف يومياً، كان يأخذها، فيبقى معه عندما يعود ألفي دينار، فيتركها في محفظته وآخر الأسبوع يشتري كتاباً، ويقرأه طول الأسبوع، إلى أن اجتمع معه طائفة من الكتب الدينية وبعضها أدبية، ولكن الأدبية التي كان يقرأها ليست كالأدبية التي يقرأها الشباب من روايات وقصص غرامية وعاطفية، إنما أدب قديم كما يوصيه اساتذته، ك (البيان والتبيين) للجاحظ، و (الكامل) للمبرد، كانوا يسمونه أدباً حقيقياً، أما من يقرأ الشعر الحر أو شعر الحداثة، أو غيره من أجناس الأدب الحديثة فغالبا ما سخروا منه وضحكوا عليه، وما زال يذكر ذلك الأستاذ الذي كان يدرسهم النحو عندما تحدث لهم عن الشعر الحديث وكيف سخر من السياب وقصيدته (صبر أيوب) عندما قال لهم:

وهذه قصيدة السياب (صبر أيوب) التي قدسوها وجعلوها الأدب السامي الذي لا تصله يد أديب بعده، أما والله أن سجع خطيبنا أفضل منه!!!

وهكذا مضوا كارهين للأدب الحديث وضروبه، يرونه مفسدة للسليقة والذوق. وكذلك من شروط أدبهم السامي أن يكون ذا رسالة وهداية ولا تُثر غريزة أو حفيظة أو تمس عقيدة، وما زال يذكر كيف يخفي الكتيب الذي كان يحوي كتاب اخبار مجنون بني عامر وأبياته التي ظن أنها فاحشة، وعندما قال لأصحابه تجمهروا نحوه، فقرأ عليهم هذه الأبيات:

كلانا مظهرٌ للناس بغضاً وكلُّ عند صاحبه مكينٌ
تبلغنا العيونُ بما أردنا وفي القلبين ثمَّ هوى دفينٌ

وفجأة دخل الأستاذ، فسكتوا، فأمر أجود أن يخرج ما عنده، فقرأ البيتين بخجل كبير، فضحك الأستاذ، وقال: لا بأس، النفس تحب الطرب، وهذا مما لا بأس فيه، ولا شر يرتجى منه.

كان هذا التشجيع دافعا للمضي بمثل هذه الأشعار حفظاً وقراءة ورواية لصحبه، بل تجاوز هذا، عندما كان يعجب بشعر يأتي وينظم على منواله، وهو للسرقة أقرب مما هو للتدريب على النظم، مثلاً كان يحفظ قول مجنون بني عامر:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا

سوى أن يقولوا أنني لك عاشقٌ

نعم صدق الواشون أنت حبيبةٌ

إليَّ وإن لم تصف منك الخلائق

فقال:

وماذا عسى الواشون أن يقولوا

سوى أن ينطقوا أنني لك عاشقٌ

لكن كذب الواشون أنت حياةٌ

إلَيَّ وإن لم تصفُ لكِ الخلائق

إلى أن تلاحقه أحد الأساتذة بعد أن قطع شوطاً في هذا
المضمار، فقال له:

-أجود، هذا ليس ابداعاً أو ادباً، إنما هو سطو وسرقة!
-لم؟

أنت لم تبدع شيئاً، مجرد سرقة في سرقة...

-يا ولدي، ما زلت صغيراً، والعمر أمامك طويل، فلا تضعه
في هذه السرقات، كن أنت المبدع، اعتمد على شاعريتك
المنتظرة، لا تقلد احداً، انظم مهما كان شعرك ركيكاً، مع
الأيام ستتقوى. وعليك بحفظ الشعر والإكثار من قراءته،
حتى تتضج موهبتك.

ثم قال بصوت خفيض:

-إنني أرى فيك شاعرية متدفقة، قد تبرز يوماً، جرب أن تكون
شاعراً، أو كاتباً، وربما روائياً.

في هذا الحوار بدأ يسمع كلمات جديدة لم تمر عليه من
قبل: (موهبة، نضوج، مبدع، شاعرية متدفقة، روائي). هناك
شيء يطرأ عليه.

فقال الأستاذ:

-ماذا قرأت من النشر؟

-النشر؟

-أجل، قصة، رواية، مقالة، مقامة.

كان ذلك اليوم ايدانا بالتعرف على رجال جدد: المنفلوطي، الرافعي، يوسف زيدان، دوستوفسكي، امبرتو ايكو، أليف شفق، وان لم يتعرف عليهم بعمق.

وكان محل إعجاب عندما يعود من المدرسة حاملاً حقيبتة، أو عندما يذهب الى الحقل فإنه يحمل كتاباً يقرأ فيه وقت فراغه، ومع ذلك كله لم يفكر يوماً بامرأة عدا رحمة.

من يرَ رحمة أول وهلة يسخر من أجود وذوقه في اختيار النساء، فهو عندهم ذوّاق فَهَام، فرحمة قصيرة نحيلة تميل الى السمرة — علماً أن أجود يميل الى السمرة هو الآخر —، وغير متعلمة، ولكن مع ذلك لها قسمات جذابة، وصوت رخيم له وقع، يسحر الفؤاد قبل أن يقع في الأذان، وكل الذين سمعوا بحبّ أجود لرحمة أولوا وفسروا ذلك الحبّ، منهم من رأى أنه يريد أن يأخذها ليس حباً بها، إنما طمعاً بمال أبيها الذي هو مرشح وبشكل قوي لأن يصبح شيخاً لعشيرتهم خلفاً لعمه المتوَعَك، فهو يسعى للمال والنسب ولكن بدون جمال، ومنهم من قال أنها سحرته كما سحرت أمها أباهما من قبل، ولكن أجود كان مسحوراً بها، هائماً شغوفاً، وهذا الحب الذي شمل المليح والقبيح، وكلما اعترض أحد من أهله أو اقاربه وبين له ما في رحمة من قبح ظاهر وغباء بادٍ ردّ عليهم بقول ابن حزم — وهو كل ما في جعبته من حجج يلوذ بها عن نفسه: (لو كان علة الحبّ حُسن الصورة الجسدية لوجب أن لا يُستحسن الانقص في الصورة). فقال له مرة أحد أبناء عمومته ساخرًا:

—وما معنى هذا الكلام...صورة ومصور..لم نفهم شيئاً.

فقال أجود متجاهلاً سخريته:

-أي أن الحب يشمل المليح والقبيح، ألا ترى أن بعض القبيحات أسرن قلوب الرجال، وما من سبب لذلك إلا لما زرعه الله في القلوب من التآلف — كما يقول ابن حزم — .

وكثيرا ما تهامسوا وظنوه جاهلا في الأذواق على تفوقه عليهم دراسياً، فهم على جلالة طبعهم، وسذاجة تفكيرهم وأميتهم إلا أنهم يحبون الشقراوات والأجنبيات، وفي نهاية المطاف تُزف إليهم بنات أعمامهم، وما زالوا يذكرون ابن عمهم سامر الذي اعتبروه نابغتهم فقد نشأ معهم كما ينشأون وتأخر في دخول المدرسة كما يتأخرون، فلم يكمل الثانوية حتى بلغ الثانية والعشرين وكان قد سُميت له بنت عمه كلاما، والكلمة عندهم لها شأن وأي شأن، فلما دخل جامعة تكرت فرأى من الحسنات المليحات ما لم يره من قبل تعجب أشد ما يكون العجب، ورأى بنت عمه أمامهن قبيحة ومع ذلك القبح قوية قوة لا تليق بالنساء، وقرأ بعض قصص الحب التي كان الطلاب يتداولونها، فصنع لنفسه قصة حب خيالية، وكلما ذكر ابنة عمه، قال لهم: أحببتها ثلاث سنين، عانيت من البعد والألم ما لم يلقه قيس من ليلاه. حتى صار محل سخرية، فكلهم يعلمون هو لم يحب يوما ولم يُدق طعم الهوى إنما هو حكم العادة.

وكان العائق الأكبر أمام أجود هو أمه، لم تكن تحب رحمة أو ذويها، ولم تتفق معهم يوماً من أيام عمرها، كانت متخوفة متوجسة منهم، وكم سعت سعياً حثيثاً لئن لا تجاورهم، ولكنها فشلت على مكرها وفرض كلمتها على زوجها، فقد كانت عندهم كلمة الأم هي العليا، وأم زوجها كانت مدركة مكرها، لم تنجح في الابتعاد عن بيت رحمة، بقي الخوف من أن يقع في حبالها شغلها، ولما ذهب أجود لإكمال دراسته الثانوية

في تكريت اطمأنت، فقد رجحت أن يرى أجود فتيات ألواناً وأشكالاً مختلفات، وأن رحمة ستبدو في عينيه قبيحة، ولكن أجود كان فتى لا يرفع رأسه أمام بنت غريبة، ولا يتلصص كما يفعل أقرانه، بل كان يفض البصر.

هو خائف من أمه ومكرها في ضياع رحمة منه، لأنه مطيع لأمه، لا يغضبها وإن كلفه الأمر أن يخسر روحه.

-أجود-

انتبه الى الصوت الذي يناديه، واذا بعمه سعيد والد رحمة يناديه، لما رأى عمه بزي المشيخة خاف منه، لعل رحمة دخلت عليه وقالت له أنه صرخ في وجهها وأثقل لها القول فهو قادم للعتاب أو غير ذلك.

-٣-

-أريد أن أرى أمك!

هذه المرة الأولى التي يطلب بها عمه سعيد أن يرى أمه وبهذه اللهجة المتواضعة التي تتم عن حدث جلل، لم يودها يوماً أو يجالسها، واذا رآها صدفة فغالباً لا يبدأها بالسلام، وكأنها عدوة، ومن قال أنها ليست بعدوة؟ ألم يتهمها بأنها السبب الأول في وفاة أخيه الذي هو زوجها؟ ألم يطردها من مأتته وسط ذهول الحاضرين وهو يصرخ بها دون هوادة: أخي علي لم يمُت بل هي من قتلته!!

لعمه سعيد مع أمه تاريخ طويل من الاتهامات وتبادل الصياح والصراخ، أما أبوه فلم يكن الا متفرجاً، أو منادياً يسكت زوجته وغالباً ما يضيع ذلك النداء في تلك الفوضى العارمة.

وأمه هي الأخرى كانت ترى عمه عدوًّا لأبيه لا أخا، هو وأمه متآمران عليهم وعلى خيرهم ومالهم، ومع ذلك كانت الغلبة دائماً لسعيد وأمه على أم جواد، كانت تخرج من المعركة خاسرة منكسرة، وتقلب ليل البيت نهاراً، صراحاً وهياجاً وسباً بسعيد، وبعد أن تكمل سيل الشتائم ذاك تبدأ فتلعن قسمتها والساعة التي وافقت فيها على الزواج من علي، ومما زاد من حرقتها على نفسها وزاد مستوى الشتائم واللعن على قسمتها هو ذلك الرجل ابن ماجد الحداد الذي كان يعمل سائق سيارة حمل، إذ تقدم لخطبتها وألح هو وأهله —كما تزعم— في طلبها، ولكنها فضلت علياً بطل الفאו على الغريب، والحق أن أباهما هو من فضّل ابن صديقه وسميه على الغريب كما جرت العادة.

—ماذا؟ عمك سعيد يريدني؟ وماذا يريد هذا؟ قل له أن أُمي مريضة ولا تستطيع لقياك.

فقال بصوت خفيض:

—يُمّة، يبدو أنه موضوع مهم، ولا تحسبي عمي سعيداً يأتي لغير ذلك.

فقال بعد تردد وإلحاح أجود:

—هيا لنرَ بماذا جاء هذه المرة من بلايا.

كان واقفاً عند باب الديوان ولا يقطع هدأة لحظة الغروب إلا طقطقت حبات مسبحته الفاخرة ولم يدخله، يزعم أن لديه أشغال وأعمال لا تنتظر التأخير، فأقبلت أم جواد بعد أن ارتدت عباؤها، وقالت بهدوء:

—أهلاً يا أبا أسامة.

فقال ولم يُدر وجهه نحوها بل بقي يراقب الأشجار:

- أهلا بك... يا أم جواد أنتِ رأيتِ الوضع وكيف هو في تدهور كبير، ونحن لا نعلم ماذا سيحصل غداً، ولكن ما حصل في الموصل ليس بعيداً أن يتكرر في تكريت وهنا، وفي الموصل حصل ما حصل من تهجير وقتل ولم يمض على ذلك إلا أياماً قللاً، ونحن سنحزم حقائب الرحيل، الدواعش لا دين لهم، وإن لم نمت على أيديهم سنموت على يد الجيش، منطقتنا هذه ستكون أرض القتال والنزال ولو بعد حين، فاستعدوا أنتم أيضاً..

فقال باستتكار:

- تريدني أن أرحل دون أن اعرف مصير ولدي؟

- يا أم جواد إن كان ولدك على قيد الحياة فسيعود ولن يجد صعوبة في العثور عليكم، وإن..

فقالت بحزم:

- لا تكمل، ولدي لم يمت.

- قلت إن..

فقالت بصرامة:

- لا تقل..

- الموت حق..

فصرخت به:

- أقول لك لم يمت، فلماذا هذا الحقد القديم يحز في نفسك، حسبي الله ونعم الوكيل فيك، هذا ابن أخيك تقول إن

مات هكذا بكل بساطة..

ثم أغلقت الباب بعنف وانفردت في بكاء حاد، وأنت بتول
لتهدأها وإذا بها تدخل معها في ذلك البكاء..
-عماه.. عماه...

توقف سعيد عن سيره السريع، فقال أجود:

-عماه، أُمي لم تقصد ما قالت، حالتها سيئة منذ أن غاب
أخي جواد، وأنت أعلم بحال الأم إذا فقد ولدها.
-أعلم ذلك، أنا أقدر مشاعرهما.

قال ذلك ثم مضى يقطع الظلمة الكثيفة.

ولما فرغ أجود من حوار عمه مع أمه والمشكلة العتيقة وأحداثها
الكثيرة والتي عادت حية أمامه، يوم وفاة أُمي، مشكلة عمه
سعيد، جواد واختفاؤه المريب، ورحيل بيت عمه، يعني رحيل
رحمة. وقف حائراً أمام هذه المشكلة، فكرة معارضة أمه
لزوجها من رحمة كان يؤرقه ويجعله يقضي ليله ساهراً
ساهماً متسهداً، فكيف به وسترحل الى مدن لم يسمع بها
ولم تطأ قدمه اياها؟ ستجد أناساً غيره، وقد تتزوج هناك
في خضب الحياة الصاخبة التي لم يسمع بها، فكرة الرحيل
وحدها تؤرق الانسان، فكيف به وسترحل محبوبته وتتركه هنا
وحيداً؟

ثم انقلب الى مثواه يحث الخطى ويركل الأحجار الصغيرة
المتناثرة على الطريق كما يفعل الياثس، تُرى كيف يقنعها أن
يرحلوا معهم؟ أو يقنع عمه سعيد ليعدل عن فكرة الرحيل!
ولكن ما ذنبهما وقد وقعا بين جبلين من الخلاف والعناد،
قد تلتقي الجبال، وقد يتفق الأعداء ويألفون، وقد تجتمع
أحزابنا السياسية يوماً، ولكن عمه سعيد وأمّه لن يتفقا، هما

كالضدين، كالليل والنهار، كالماء والنار، لن يتصلا.

-لماذا لا نرحل؟

فقالت أمه بعصبية:

-أنت مجنون؟ نرحل؟ لا أراك الا قد جُنت يا ولد، هل نسيت

جواد؟ وهل نسيت قبر أبيك؟ أتريدنا نرحل ونتركهما هنا؟

ثم مضت في بكائها المعتاد، وهي تردد قائلة: أريد أن أموت

هنا، وأدفن جنب أبيك.. و..لا أعلم ماذا أقول عن أخيك، أهو

عدل أم ميت، ولئن أموت تحت قصف المدافع والرصاص

خير من أن أموت في الغربة حسرة وكمدًا... وأنت ارحل

خلف تلك السمراء الدميمة.

وقف خارجا يقطع الطريق نحو سهرته المعتادة وكلامُ أمه طاغ

على تفكيره .. سمراء ودميمة! هذه الصفات كلها في رحمة،

ولم تقل الثالثة فتكتمل : (غبية)، يا رباه رحمتك بقلبي،

الذي صدعته الهموم والغموم والأشجان، جواد.. أين أنت؟

وأي أرض تجوس؟ أميت أنت فنريح ونستريح من الكدر الذي

توشح دارنا ونحزن كما يحزن الناس ونقيم مأتما لائقا، أم

أنت حي؟ إن كنت حيا فاطهر وخفف عني يا أخي وجعي.

-٤-

سهرتهم المعتادة كانت في دكان تحسين، يبقون معه الى أن

يمضي هزيع من الليل. دكان تحسين هو لبيع المواد الغذائية،

يقع على الشارع العام، يجلسون معه يشربون الشاي والقهوة

ويتحاورون ويضحكون وقد يتناقشون قليلا، هي تقوم مقام

المقاهي المنتشرة في المدن، ولكن لا قهوة هنا ولا رواد، فقريتهم

صغيرة ومعظم رجالها في العمل ولا مجال لهم في المساء للسهر. وشلة السهرة قد يحتاجون لعشرين دقيقة أو تزيد حتى يصلوا لمكان الدكان، الدكان له بابان، الأول والرئيسي يطل على الشارع العام، وأغلب رواده من المسافرين بين تكريت وسامراء أو غيرها من المناطق المنتشرة، والباب الثاني خلفي يطل على بيوتات القرية القليلة والحقول والمزارع؛ إذ فيه الكثير من النساء ولا يستطعن القدوم من الباب الرئيسي خجلاً وحياءً من المارين والفضوليين وما أكثرهم! ولأن الوضع سيء لا يطاق فإنه يغلق الباب الرئيسي ويفتح الباب الصغير الخلفي لبيع للفلاحين والبيوت القريبة. أعضاء السهرة المعتادين هم: تحسين، وأسامة، وعلي، وأجود. جمعتهم — عدا علي — الجوار وصحبة في المدرسة الابتدائية، ثم الثانوية الإسلامية في تكريت. أعمارهم متقاربة، أما الأفكار فمتباعدة أشد ما يكون البعد حتى لتجد أصواتهم مرتفعة وكأنهم في عراك، ويخيل لمن يسمعهم أن مجلسهم الليلة سيكون آخر مجلس يجمعهم، ولكنهم سرعان ما يخرجون وكأن شيئاً لم يكن. تحسين صاحب الدكان لم يكن يتناقش كثيراً معهم، ولم يكن يههم أمرهم أصلاً، لأنه يحب المال حباً جمّاً، فتراه طوال الجلسة منهمك في عد الديون ومتابعة أمور الدكان، وإن فرغ فغالباً ما يكون منهكاً متعباً نعساناً، فيجلس يستمع لحديثهم بفتور، هو لم يبلغ الثانية والعشرين بعد، ومع ذلك فإن له حصافة ومهارة تجارية حادة نادرة، حتى أن رفاقه عندما كانوا يسخرون من درجاته في الامتحانات كان يقول لهم: (آني عقلي تجاري مو دراسي)! وبدأت تجارته وهو صبي في الثالثة عشرة عندما كان يبيع الزراعة وعملها المتعب، ففتح له أبوه دكاناً في باب البيت يبيع الحلوى والعصير والكعك

للأطفال، وبقي شغوفاً مجداً في هذه المهنة الى أن توسع
دكانه الصغير، الى أن بنى دكانين كبيرين على الشارع فيها
كل ما يحتاجه المرء من غذاء، بل وسع دكانه فصار يبيع الجبن
والقيمر والحليب الطازج في الصباح الباكر، وفتح فرناً صغيراً
جنبهما، ودكاناً لبيع الأحذية وجنبه لبيع الملابس، ووضع عمالاً
وهو في العشرين من عمره، فصار ذا مال وعمال يأتُمرون
بأمره ويطيعونه. ولكن هذا الأمر لم يستمر إلا بضعة شهور،
ليحسب تجارة محلاته وإذا به يخسر خسارة فادحة، وإذا
بمحلاته غارقة في الديون، فجاءه أبوه يرعد ويزيد ويتوعده
حاملاً عصي غليظة وما أن رأى تحسين عصي أبيه تلوح
حتى فرَّ الى الحقول هارباً تاركاً لأبيه أمر الدكاكين والديون
المثقلة لكاهله، وبقي يوم ويومان، فعاد ليجد أباه قد أغلق
الفرن ودكان الأحذية والملابس، ولم يبقَ الا دكان الغذائية،
وأعادته الى الغذائية بعد أن وعده أن يبقى على دكانه هذا ولن
يحاول فتح دكان آخر، وبقي تحسين أمداً يفكر في خسارته
تلك، كيف يخسر ويعود خاوي اليدين؟ ومن سرقة؟ والحق
أن هذا التفكير لم يكن يشغل بال تحسين فحسب، بل كل
من يعرفه عن كُثْب، فتحسين قليل البذل والعطاء، شحيح، لا
يعطي سائلاً ولا يتصدق على محتاج ولا يبيع بالدين، والدينار
لا يخرجُه الا بعد أن يعرف ويدقق ويحسب كي لا يغبن ومع
هذا يفارقه بكثير من الحزن والحسرة، فكيف يخسر وما
يشتره بألف يبيعه بألف وخمسمئة لا يتنازل عن الدينار ولو
كلفه عمره؟ لم يعرف أحد تعليلاً أو تأويلاً مناسباً مقنعاً
لنكبة تحسين وسقوطه الى القاع سقوطاً مدوياً، ولكن علياً
صديقه ادعى أن (غنية) هي من سرقت تحسين وتسببت بتلك
الخسارة، وغنية هذه فتاة من البدو الرحل الذين يرتادون

تلك المناطق في موسم الربيع عندما تغدو أراضهم سهولا منبسطة خضراء تسر الناظرين، فأعجب تحسين بغنية على سواد بشرتها، لم يكن ينظر الى الوجه، إذ لو لبث ينتظر ذات وجه صبح لبقى دهرًا طويلًا، ولكن رأى في غنيه ما لم يره في غيرها من الشارين، فهي ترمي النكات وتقف تتجاذب معه الحديث وغالبًا ما يكون حديثها متغنجًا منطويًا على ألوان وأصناف مختلفة من مكر النساء وسحرهن الأخاذ، ولو ألقته وهي تتلوي وتتمأيل أمامه بعباءتها الضيقة والتي صورت جسدها كاملاً بل زادته حسناً ورونقاً على شيخ كهل ولت أيامه لأغوته فكيف بها وهي تلقيه على فتى يتفجر شباباً؟ وادعت لميعة الجارة — والتي وصفها تحسين بجارة السوء والشؤم — أن غنية كانت تأتي على دكان تحسين في الثانية ظهرا وهو وقت اغلاقه وتبقى لساعات ممتدة، لم يقتنع تحسين في أعماق نفسه أن غنية هي من حسرتة وكبَلته بديون طائلة سيفني سنتين في تسديدها، ولكن هذه القناعة ترسخت تدريجياً فيه بعد أن علم أن غنية هاجرت وإنها لم تعد الى دكانه من يوم فراره الى الحقل من غضب أبيه.

وثاني أعضاء السهرة المعتادة هو أسامة الابن الوحيد لسعيد عم أجود، وهو نشأ مع أجود، وذهب معه ومع تحسين في الثانوية الاسلامية في تكريت، وكان اوسمهم وأجملهم شكلاً، فعيناه زرقاوان ووجه صقيل أبيض، ولكن بفعل الشمس انقلب بياضه سمراً، ولكن فيه تعصباً في الدين وتشدداً، لم يكن تشدد أسامة تشدداً حدَّ التطرف أوّل الأمر، بل كان شاباً محافظاً، يصلي الصلاة لوقتها، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا الشيء طبيعي في تكريت موطن درسه وحتى في سامراء التي زارها مراراً، ولكن في تلك البيئية كان أمراً

منكرًا، فمعظم الناس أُمِّيَّة لا يحسنون القراءة، ولما دخلت المدارس مناطقهم تحسن وضعهم ولكن ليس لحد أن يتقبلوا أمر أسامة، أسامة كان مولعًا بالمطالعة وقراءة القصص كابن عمه وسميه، وكل ما كان يملكه من كتب هي سيرة ابن هشام وتاريخ الخلفاء للسيوطي وكتاب المعارف لابن قتيبة والمستطرف من كل فنٍّ مستطرف، فلما درس في تكريت ولقي أساتذة ومعلمين متمكنين تعرف على علماء ومفكرين لم يسمع باسمهم الا من بعيد، الغزالي، الطبري، ابن كثير، الجاحظ، ابن تيمية، اسماء كان يسمع بها ولم يعرفها، فلما زار المكتبات في تكريت وقرأ ودرس انقلب حاله، فهو كان من الذين يقرأون فيتأثرون بما قرأوا بخلاف أجود، ارتاد مسجدهم ولكن بفكر جديد لم يسمعوا به، فمثلا لما سمع أن أبا حازم يتعاطى الربا ولكن بشكل ملتو، ليحل ما حرم الله، وذلك عندما يأتيه محتاجا يريد قرضًا — وهو معروف بهذا العمل — يقول له: لنفرض عندك بقرة تريد بيعها بمليون دينار، خذ المليون (وينقده المبلغ) والان سأبيعها لك بمليون وربع بالآجل ..!

ويبقى على هذا الحال يبيع ويشترى بالبقرة المتخيلة الى أن يقرضه من المال ما يريد، فيعطيه مثلا خمسة ملايين ثمن تلك البقرة التي تضاعف لأضعاف كثيرة ويبقى عليه دين سبعة ملايين ثمن البقرات!!

-عم أبو حازم ما تقوم به حرام، وهو نوع من أنواع الربا .

فقال أبو حازم محتجًا:

-يا ابن أخي كيف يكون ربًا وأنا بعثُ واشتريت؟!

-أيُّ بيع يا عم؟ أنت تضحك على نفسك!

-بيع البقرة.

-أي بقرة؟!

-التي بعثها واشتراها مني ثم باعها لي ثم اشتريتها ..

فقاطعه أسامة :

-واشترت وبعت بزيادة وبقيت تزيد وتبيع في الهواء، ولا يوجد بقرة في الموضوع ولا بيع ولا شراء ..

فقال أبو حازم مغمغماً يريد صرفه:

-لم أجبر أحداً على شيء، هم من يأتوني.

فقال أسامة بلهجة ظاهرها الهدوء وباطنها ومن قبلها عصبية متأججة:

-إنما هو رجل ضاقت به السُّبُل وماجت به الأيام فلم يجد ركناً يأوي إليه أو شيئاً يلوذ من قسوة ضائقته المالية فجاء مضطراً مكرهاً لأمثالك من تجار الأزمات. وإن كنت تحب أن تقرض الناس فاقرضه قرضاً حسناً، والله يضاعف لك الأجر يوم القيامة، ولكنك تستغل عازة الناس.

فقال ابو حازم صائحاً:

-أيها الولد ..

فقال أسامة بحزم:

-لست ولدًا بل رجلاً ..

-اغرب عني واذهب الى أبيك قبل أن تضيع .. هيّا ..

وانقلب حديثهما الى صياح صاخب، ابو حازم يردد ويتوعد، واسامة يقول له:

-قبحك الله من رجل، تحتال على شرع الله وتحل ما حرم علناً ولا ترضى بمن ينصحك؟ والله ليقبلها بكم ربي.
-لم أحتج لك.

وطال الأمر وتحول حديثهما لجلسة عشائرية بين أبي حازم وأبي أسامة، وطالب أبو حازم أن يرد له اعتباره، واجتمع الرجال للفصل ولكن أسامة رفض الاعتذار لرد الاعتبار لأبي حازم، لأنه ليس على خطأ، واعتذر أبوه نيابة عنه. بعد تلك الحادثة صار الكثير من الناس يتجنبون أسامة والحديث معه، حتى الفتيات اللواتي أعجن بشكله الوديع لم يستسغن صرامة طبعه وعصبيته، ولكن رفقاء السهرة لم يتركوه خاصة ابن عمه أجود، لأنهم مؤمنون أنه أحسنهم وأطيبهم ولكن المجتمع لم يرغب به، ولم يمتلك ثقافة لدرجة قبول أسامة. لذلك آمن أسامة مع مرور الأيام أن المجتمع الذي هو فيه لا يصلح للحياة التي عرفها، هناك فرق كبير بين ما تحمله مظان الكتب وبين الواقع، تلك الأفكار التي تشربها وشبع منها وهضمها، اين تنفذ؟

وثالث أعضاء السهرة علي، المهندس الجديد، وهو ابن عم أجود سالم، ابو علي قضى نحبه منذ وقت مبكر، عندما دخل الجيش الأمريكي العراق انخرط في صفوف المقاومة وقضى نحبه في معركة الفلوجة. علي أكبر منهم ببضع سنين، ولكنه يعاني من مشاكل كما يعاني أهل المدن، بطالة، لا امكانية للزواج، فسخر منه تحسين أول الأمر وحسبه ساذجاً لا يفقه شيئاً من الحياة، وعلي تركه وخرج إذ حسبه جاهلاً، إلا أن اجود تدارك الموقف، فأخبر تحسين أن علياً له ثقافة تختلف، ثقافة المدينة، فهو لا يستطيع الزواج كما نستطيع نحن، ولا يستطيع العمل كما نعمل نحن.

-يعمل كما يعمل خلق الله، فلاحا او صاحب محل أو سائقا،
أي شيءٍ.

فقال أجود بتؤدة:

-يا أخي هذا مهندس مدني، ودرس في بغداد، لهم ثقافة
تختلف عن ثقافتنا ومعيشتهم تختلف عنا، لا يستطيع المرء
منهم أن يتزوج دون معرفة مسبقة، يعني يجبها أولا لا أن
يرضى بنبت عمه، وهو عندما يقول لك: (ابحث عن عمل)
يعني وظيفة حكومية أو أهلية ضمن تخصصه، يعني تعيينا،
ولا توجد تعيينات الا لمن يدفع، وهو رجل لا يملك ما يدفعه
للمرتشين لأجل التعيين.

المهندس علي عندما عاد الى ديار أبيه يحمل شهادة الهندسة
المدنية فرح به أهله وأبناء عمومته، وعلي هذا كان شيئا
مبهما بالنسبة لهم بل رمزا ملغزا، فأبوه رمز للشجاعة
والنضال، ولم يخفف من مصاب ذويه الا ذلك الفخر الذي
بقي ملازما لهم، حملته أمه بعد وفاة أبيه وذهبت الى بغداد
عند أهلها ولم يكن ليأتيهم الا لماما، فلما استقرت الأوضاع
وعم السلم وتخرج اعدته أمه الى دار أبيه، خاصة وأن أباه
يمتلك بيتا وأرضا واسعة، وهي التي ضمها سعيد الى أرضه
في وقتها. أجود وأسامه استأنسا به وارتبطا بعلاقة وثيقة
العرى متصلة، الى أن غدا لقاءهم شيئا رتيبا شبه يومي في
دكان تحسين. علي لم يجد أفضل منهم في تلك المنطقة على
تباين التحصيل الدراسي بينهم، ولكن من ير أجود وأسامه
ويحاورهما يرى أنهما يمتلكان نصيبا من الثقافة غير قليل،
وهما جادان في مطالعتهما وتحصيلهما مما حفز علي على
الاستمرار والتواصل لإنشاء مشروع (اقرأ) في القرية لو كتب

له البقاء. وقد فرح أجود وأسامة بعلي، فهو روح جديدة قد
بثت في مجالسهم ولقاءاتهم، ولما كان تحسين تبعاً لهما صار
أيضاً من أصحابه. علي لا تكاد تعرف له دين أو ملة أو نحلة،
تراه يتفق مع الكل ولا يختلف مع أحد، وكم اجتهد أجود في
معرفة مذهبه وتوجهه ولكنه فشل في ذلك، لدرجة أن اقر
مرة بعجزه فقال له:

-علي، بماذا تؤمن.

فقال له:

-أؤمن بما تؤمنون.

-يعني مسلم.

فقال ضاحكاً:

-وهل في ذاك شك.

-لم لا تصلي؟

-ومن قال إنني لا أصلي؟

-لم أرك في المسجد أبداً.

-الصلاة في المسجد ليس فرضاً كما أعلم.

-صحيح، ولكنك لا تدخله أبداً!!

وعلي هذا هو أول من عرف أسامة وأجود على أسماء لم
يسمعوا بها من قبل، فمثلاً مرة كان يتكلم معهم عن الزواج
في الأديان وكيف أن الإسلام جمع بين النظرة المادية والروحية
الصوفية:

لقد أثبت (فرويد) أن الغريزة الجنسية لا يمكن تدميرها وإنما

فقط كبتهَا، وأنَّ كبت الدوافع الجنسية يجلب مساوئ أكثر.
يا الله من (فرويد)؟ هما لم يسمعا به من قبل.

ثم مضى قائلاً: ويقول الفيلسوف المسلم علي عزت بيجوفيتش معلقاً على رأي فرويد هذا: فمهما كان مطلب العفة والكبت في المسيحية سامياً، إلا أن فكرة الاسلام عن ضبط الحياة الجنسية والتوسط فيها أنسب للاسلام، لأن فيها اعتراف بالمشكلة ومواجهتها، وفي هذا المجال ليس الاسلام ديناً مجرداً، ذلك لأن البراهين التي تدعم الحياة الجنسية كلها براهين عقلية وعملية وليست دينية

فبقيا فاغري فيهما لا يعلمون ماذا يجيبون، ومن (بيجوفيتش) هذا؟ الاسماء الغريبة كانت من سمته التي خصوه بها، فهو إذا ذكر الشعراء ذكر (دانتي) و(جوتة) و(فولتير) وهم يعرفون من الشعراء امرئ القيس وأبا الطيب وأبا العلاء المعري، أنى لهم معرفة هذه الأسماء التي لا يستطيعون لفظها أصلاً؟!



-لم يبقَ الا القليل، ساعاتٌ قلائٌ وينتهي أمرنا وتعلن دولتهم هاهنا، انتهى كل شيء، حتى هذا المجلس لن يعود كما نجتمع الآن، ربما هذا الاجتماع الأخير والسهرة الأخيرة، منذ الغد ستكون هذه السيكرة محرمة علينا، وهذه الشعيرات المنتشرات في ذقونكم فرضاً.

قال علي ذلك بيأسٍ بادٍ. فقال أجود:

-ربما ليس الأمر بهذا السوء كما يخيل لك.

-كيف اذن؟ هل شاهدت الموصل؟ كيف مزقت أشلاء، كيف وئدت، أهذا اسلام ترتضيه؟

-ومن قال إنهم يمثلون الإسلام الصحيح؟ هم متطرفون متشددون.

فقال اسامة:

-لَمَ التطرف يا أجود؟ أليس من الدين قطع يد السارق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة الى توحيد الالهية والربوبية والأسماء والصفات؟ والدعوة الى إقامة العدل، أليست هذه من صميم الإسلام؟

فقال أجود:

-وما قولك في القتل والذبح الذي ارتكبه، أهو من صميم الاسلام الذي يدعونه؟ لماذا ترون الحقيقة من جانب واحد؟ ألا ترى أنهم يأخذون بالعنف ويقتلون بالشبهة دون رفق كما تدعون، هم صورة عكسية للإسلام، بل هم صورة من الخوارج السابقين.

-الخوارج خرجوا على علي بن أبي طالب، فتى الاسلام وخليفة المسلمين وابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من الصالحين المصلحين الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، أما الدولة الاسلامية فهي خارجة على دولة الظلم والجور والتعسف، أنسيت أبناء جلدتنا من المجاهدين الذين بذلوا الغالي والنفيس في جهادهم ضد الأمريكان، وماذا كافأتهم دولتك؟ هه؟ المكافأة كانت أن زجوا بهم في السجون، يعانون من العذاب أشده، أي دولة تسجن رجالها الصالحين فلا تأس عليها ولا تنتظر منها خيرا، الدولة خير ما تكون لأبنائها الخلاء، فكيف بها ويحك وقد ملئت بهم السجون؟ هذه سقطة واحدة من سقطات دولتكم الرشيدة (وقال كلمته الأخيرة بسخرية لازعة) وعدا ذلك القانون الجائر الذي لا

يستند الى شرع ولا الى دين، بل هو قانون وضعه البشر وفضلوه على قانُون ربهم، امثل هذا يستقيم أمر الدولة؟ ولعلكم لم تسمعوها بحكمة ابن خلدون : (العدل إذا دام عمراً، والظلم إذا دام دماً).

فقال علي ساخرا :

-وهل الدولة التي ستأتينا عارفة بحكم ابن خلدون وفلسفته في شؤون الحكم والعمران والبنيان كما تعرف أنت وهل ستطبقها كما تظن، إني أكاد أراك ساذجاً غرر به، لا يفقه شيئاً، وستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً، لعل حكمة الشاعر الجاهلي تنطبق عليك خير من حكم ابن خلدون التي تريد أن تطبقها دولتك!! من يسلك مسالك الهمج الهامج لا تظنه قد سمع بابن خلدون والغزالي وحتى ابن تيمية، وحتى ان سمع بهم لا تحسبه قرأ لهم، وان قرأ لهم فلا تحسبه فهم عليهم، وإن فهم عليهم فلا تحسبه طبقه، من يفعل ما يفعلون من إجرام لا تتوقع منهم أن يفعلوا خيراً لك.

كل واحد منهم كان يرى نفسه رأساً، ولكنها كرؤوس البصل، كثيرة رخيصة بلا قيمة، ولكن هذه الرؤوس الرخيصة أوردتهم الهلاك والخراب من حيث لم يحتسبوا.

وقف سعيد أمام أرضه الواسعة، وسرعان ما تحدرت دموعه بسخاء مفرط، وكأنها استغلت الظلمة الحالكة لتتهمر، البكاء لأمثاله عيباً، بل مخزماً للمروءة، ولكن هنا أمام تعب الأب الكدوح واخوته الذي افنوا عمرهم في سبيلها حرثاً وزرعاً وحصاداً، ولكن الآن ضاع كل شيء، وغداً سيتركها هرباً بنفسه وماله، كم كافح ونافح في سبيلها، مع أم جواد وأولادها، مع أم علي التي أتت بعد احد عشر عاماً تطالب بأرضها وبيتها،

وكل هذا سيزول، بيته الفخم الذي بناه بدمه قد لا يعود إليه ثانية، ما العمل؟ الرحيل كَتَبَ علينا أم نحن من يكتبه على أنفسهم؟ وإن لم نرحل هل نبقى ننتظر الموت هكذا؟ ألم يكن آباؤنا يموتون في سبيلها ويشورون ويؤدون حكومات ودولا؟ فمالي أفر وقد دنا الخطر؟

وفجأة خطر خاطر يبرر جنبه ونكوصه والفرار من المعركة قبل بدأها: لما كان آباؤنا يستهدون في سبيل الأرض لم يكن لهم وجهة يولونها أو مال يسافرون به ويعيشون منه في بلد آخر، ونحن لنا ..!

بينما هو يطمأن لهذا الخاطر تراءت صورة أبيه في الحقل وهو ينسج قصة كفاحه وكدحه الطويل ..

-٥-

من كان يصدق أن هذه الأراضي هي لذرية عباس وقد انفرد بها ولده سعيد دونهم أجمعين، لو أخبرت عاقلاً أن ذلك الفتى المدلل الذي خرج هائماً لا يلوي على شيء وصدره ينطوي على فكرة مجنونة خلاصتها الانتحار في دجلة سيملك هذه الأراضي الشاسعات لما صدقك، لم يكن يفصل بين بيت الحاج صبحي ودجلة إلا سور متآكل، وكان عباس قد قرر الانتحار فعلاً أول ما يجتاز ذلك السور، ولكن أيام المرء متقلبة متغيرة ككتاب الفصول، قد تأتي مكفهرة ملبدة بالغيوم، وقد تأتي شمس رائقة هادئة، وقد تأتي محرقة. الان سعيد يمتلك ما تنوء عن حمله الأبطال، مال وفير وعيشٌ رخيٌّ رغيد، لم ينل سعيد وإخوته من نوائب ومصائب مما نال أبوهم من قبل.

ومع كل هذه المال الطائلة من الزراعة ومن اضرب التجارة التي كان يعمل بها كابر سعيد في دفع الزكاة وماطل، وكثيراً ما وقف أسامة في وجهه تائراً محاولاً اقناعه ولكن عبثاً، حتى أن رجلاً عجوزاً من صحبة أبيه قال له:

-المال ليس مالك لتمنعه عن الفقراء، المال مال الله وقد جمعه الحاج عباس رحمه بجهد وتعبه، ولكن لم يكن يمنع حق الفقراء.

فقال سعيد:

-يا عم، لم يكن أبي يمتلك هذا المال، وأنا اليوم أدفع أضعاف ما كان يدفع هو.

-قياساً على مالك اليوم فهو أقل من القليل، يا ابا أسامة هذا حق الله المفروض.

-وأنا أعطيت هذا الحق، ولا تتدخل في أمر ليس من شأنك.

-وحق زوجة عمك سالم رحمه الله أم علي؟

-هذا المال من كدنا وتعبنا، ولم يعمل أخي سالم رحمه الله معنا، لا حق لها ولا لابنها، وأنت تعلم ذلك جيداً.

فقال الرجل العجوز بيأس:

-وحق أم جواد؟

فقال سعيد بانفعال:

-وما بها أم جواد؟ ما شاء الله تجلس في بيت بنيته لها دون أن تدفع درهماً أو ديناراً، وأنفقت على ولدها أجود ما لم أنفقه على ولدي.

-تدفع! ومال أخيك الذي أخذته؟ هل نسيت؟ أنت تعد الواجب فضلاً ومنةً منك، وأي بيت؟ بيت متواضع لم يكلفك خمسة عشر مليوناً، بينما بيتك ما شاء الله، كأنه بيت أمير أو وزير.

-أتحسدني في تعب عمري؟

لا أحسدك، ولكن أد حق الله وحق إخوتك.

هذا جانب من المشاحنات التي لا تنتهي، ولكن سعيداً بقي مصرّاً على جهله، ماضياً في غيه، الى أن غداً —بأمالك أبيه واخوته— من الأثرياء ثراءً فاحشاً، كل المشاحنات التي تمر عليه هينة، الا ولده أسامة، فقد كان عنيداً، وعناد أسامة وحده الذي كان يؤرق سعيد، ولولاه ما دفع حق الفقراء—وان كان أقل من نصيب الزكاة بكثير— دفع ذلك النصيب شراءً لراحته وحلاً للمواجهة والمجافاة التي بينهما وما أكثرها، وما أكثر ما يصفح سعيد—وإن بالغ أسامة في عناده— ولكن الأمر لم يقف، كان أسامة يخاطب أباه بعصبية المستضعف المغلوب على أمره: أتمنع حق الله يا أبت؟ هذا حق فرضه الله، فلم تغير ما أمر الله به أن ينفق؟ يا أبت الزكاة تورث البركة وأنت بفعلك هذا تفعل ما يحقق البركة من مالنا، ثم أن حق الزكاة قليل، من كل مليون دينار تدفع خمسة وعشرين ألفاً، وهي قليلة والله قليلة، ومهما ستدفعه سيكون كمن يأخذ من دجلة مجرى صغيراً على شكل ساقية لأرضه المجاورة للنهر. والحق ما قاله أسامة أن مال الزكاة قليل، ولكن الخمسة والعشرين ألفاً إذا استلت من كل مليون من ملايين أبيه الطائلة سيبدو مبلغاً ضخماً جداً وهذا ما يمنع أباه من اخراجه عن طيب نفس. هو يطيل نفسه مع أسامة كما يقول، فهو وحيد، والولد ذخر، واسم يرثه بعده، ولكنه لم يأت على هواه،

وعزير شدته وعناده للمدارس والكتب التي يقرأها، حتى أنه قال مرة: لعن الله تلك الساعة السوداء عندما جاءني أخي علي وقال لنرسله مع أجود الى تكريت، يتعلم الدين. فقلت لنفسي، يتعلم الدين ويتثقف لا أن يكون متشدداً، وهذا أجود درس معه ولكن لا يعاندني أو يجادل. كان سعيد يظن أن أجود لم يجادله في مال أبيه الذاهب إلا محبة واحتراماً، ولكن الأمر ليس كذلك ويعرفه أصغر أفراد الأسرة، فأجود يريد رحمة، وهو ساكت طمعاً فيها، وهذا ما جعل بعض الأقرباء يفسرون ذلك السكوت بأنه طمع بميراثها الذي سترته، ولكن أمه وأخاه جوادا كانا أشد عنادا وشكيمة من أسامة، لدرجة أنهما أجبراه على بناء بيت لهم، وإن كان هذا البيت بسيطاً لم يكلفه شيئاً يستحق الذكر أو الشكر أمام الأموال التي حصل عليها بشرائه الحنطة منهم بثمن بخس وبيعها للدولة بأضعاف ما اشترى، فهو قليل من كثير، ولكن واجهوه بكل صلافة، وأجلسوه مع عمه أبي زوجه — وهو شيخ قبيلة —، وجاءته أم علي هي الأخرى تطالب بحق زوجها الذي أورثهم مجداً واكاليل من الفخر لا تنتهي ولكنها لم تقدر عليه، وأنى لسيدة بغدادية حضرية تواجه رجلاً صلباً مارس كل أنواع التجارة فهو يملك حذاقة التجار وذكاءهم وقوة رجال القرية وشدتهم؟!



في حديقة بيت سعيد ذات الثراء والرخاء انطرحت مناجاة رحمة مجسدة لمعاناة جدها عباس، تبث شكواها لذلك الليل الطويل وما تعانیه من أجود وهاجس الرحيل المؤرق لها، ترى متى يطلع الغد، فترفع حُجُبُ الترقبِ الأليمة؟

كانت رحمة رقيقة كنسمة الصباح الهادئة، تحزن من أصغر كلمة، وتَصعَّرَ خدها لمن أذها بتلك الكلمة الصغيرة، ولكن مع ذلك ترضى بأدنى كلمات الاعتذار، وكم جافاها أجود، فتعود مكفهرة كاسفة البال، وقد تقضي ليلها تذرف الدموع السواجم بسخاء محب عاشق، وفي اليوم التالي يأتيها وترضى بكلمة أو غمزة من بعيد أو حتّى قبله في الهواء، وكانت تظن هذه المرة كتلك المرات عندما جاء أبوها مكفهرًا يقطر غضبًا.

-ما بك يا أبت؟

فقال بعصبية وصوت يشبه الصراخ:

-ما بي؟ وماذا يحصل أكثر من هذا الذي بي؟

-ماذا حصل؟

-أخوك، وهل من شيء في هذه الدنيا يكدر صفوي وينغص عيشي ويقلب الدنيا عليّ ظلامًا وسوادًا غيره؟ الأفندي أخوك لا يريد الذهاب معنا يوم غد، ماذا أفعل (ثم صرخة — بدت لرحمة — أنها شقت الفضاء) ماذا أفعل؟ ..

وبينما هو يتابع صراخه جاء أسامة من سهرته يسير ببطء..

-تعال يا أفندي تعال..

وقف أمامه وقال بمنتهى الهدوء:

-ماذا هناك؟

فقال أبوه وقد استفرزه هدوءه:

-ماذا هناك؟ كأنك لا تعلم، سترحل معنا، إن رضيت وإن لم ترض!

فقال أسامة بهدوئه المستفز:

-لن أرحل.

-سأعصب يدك، واقودك مصفداً الى السيارة.

فقال باسمًا بسمة أقرب ما تكون الى الاستهزاء:

-شغل عصابات!

-أنت عاقٌّ، مرأى لا تمت الى الدين بصلة.

-انا لا امثل الدين، وأنت لست بقاضٍ.

فقال سعيد باستسلام أخير:

-لن أدعك هنا، صدقني مستعد أقتلك ولا أتركك هنا، وأترك خلق الله كلهم يتركونا عبرة وحديثاً يملؤون به المجالس، تحسب أنني مغفل؟ تظن اني لا أعلم ما يجول في ذهنك؟ اعرف حركاتك وسكناتك، اعرف الدم الذي يجري بعروقك، تريد أن تبقى هنا لتكون مع (داعش)!!!

عندها شهقت رحمة ووضعت راحتيها على فيها، وأمها بدأت تذرف الدموع وتدعو له بالهداية، وأجود وعلي دخلا مسرعين بعد أن سمعا الصوت، ولكن عمهم لم يعبأ بهم:

-أنت صبيٌّ لم تعرف من الدنيا شيئاً، أتعلم عندما تكون معهم ماذا يعني؟ يعني أننا سنتشرد، كم يريدون البقاء بقوتهم هذه ؟ شهرا، سنة، سنتين؟ وبعدها؟ (ثم قال بعد أن استعاد شيئاً من هدوئه): الجيش الذي فرط حبله سيجتمع، ويعاونه العالم أجمع، فيأتي بما لا تقدرُونَ عليه، من مدافع وقنابل وطائرات، ثم ماذا؟؟ كلنا سنكون في نظرهم مجرمين، أنت واحد منهم قد تقتل، أو تسجن ثم تعمد، أما نحن وهؤلاء أبناء

عمومتك، ماذا عنا؟ سنكون مجرمين، مهددين، ونحمل دماءً
سفكها الارهابيون، سنتحمل وزرهم نحن، أختك هذه ماذا
سيحصل بها، هل تعلم ستكون هي قاتلة إن قتلوا، ومجرمة،
منفية، كل الأعراف والمجتمعات سترفضها، ستورثنا عاراً
نحمله أبدَ العمر.

فقال بهدوء:

-أنا لا أريد أن أنضم اليهم.

-فلم البقاء؟

-لأنها أرضنا.

-ستغدو أرضاً للموت، والخوف، والحرب.

-لمَ نستسلم قبل أن تبدأ الحرب أصلاً؟

-ألم ترَ المعركة التي بدأت في الموصل؟ اذا بدأت المعركة
علينا أن نعيشها، وهل تتوقع أن اجسادنا النحيلة قادرة ذلك؟
لا اظن.

واستمر الصياح وسط بصيص ضياء خافت متدفق من
الأضواء القليلة المنتشرة حول البيت والتي كانت كثيرة ولكن
الخوف من أن يكون بيته هدفاً للعسكر يستهدفونه جعلهم
يطلقونها.

-٦-

القرية عبارة عن بيوتات تزيد على العشرين بقليل، وبين هذه
البيوت صلة قرى ووشائج نسب فيما بينهم لدرجة أنهم
تجاوروا، وقد تبدو للناظر من أول وهلة أن اهلها يبالغون اذ

أطلقوا على هذه البيوت القليلة (قرية). ولكن القرية كبيرة تعادل قرية تصل بيوتها لمائة بيت، وذلك أن لأصحاب القرية أراضٍ كبيرة مترامية، وفي هذه الأراضى فلاحون عاملون، وحرس، وكثير منهم يبنون غرفة من الآجر ويسكنون بها، فلذلك هذه القرية تعتبر مصدر رزق، فيها التجارة والزراعة والقروض الربوية.

أما الزراعة فهذه صناعة أهلها كلهم، كل بيت من تلك البيوتات له زرع وفلاحون، وراع يرعى غنمه، وكل بيت من البيوت عبارة عن حقل للحيوانات التي يحتاجونها، الغنم والماعز يشربون حليبها ويجعلونه قيمراً يفطرون به، ويذبحون للضيف إذا جاء، وكذلك لهم، إذ إن كل بيت يذبح خروفاً يستهلكونه، إذ لا يوجد جزارون كالمدن، والدجاج أيضاً للذبح يأكلونه، ويبيضه للإفطار، والبقرات السمان للتجارة أكثر مما هنَّ للاستهلاك المنزلي، وإذا جاء ضيف فلا يضعون له الا اكلتهم المعتادة (قوزي)، وغالباً ما يأتي على صفيحة كبيرة وأرز وفوق الأرز لحم الخروف، أما اللحم وكميته فحسب قدرة صاحب الدار ومكانة الضيف، فإن كان الضيف ذا شأن ومكانة يضعون له خروفاً مشوياً كاملاً حتى الرأس معه، وإن كان الضيف رجلاً من عامة القوم فيضعون اللحم مقطّعاً، أما الدجاج فقد يضعونه معه ولكن الأثرياء الكرماء منهم يرون ذاك عيباً ونقيصة، فالدجاج لا يسمو سمو الخروف والضأن.

وأما التجارة فسعيد هو صاحبها الحاذق بها وبطرقها وأفنانها، برع في تجارة السيارات، فعظم ماله، وصار أكبر تاجر هناك، ولكن غالب سياراته يبيعها بوعده وأجل معلوم، أي يبيع السيارة أغلى من ثمنها الحقيقي بالأجل أو الأقساط، فلما ماله نمواً فاحشاً آثار حسد الجيران والأقرباء قبل البعداء.

-بييع أكثر من ست سيارات في اليوم، وأنا حين فتحت دكانا صغيرا جنب دكاني أكلتني الناس حسداً.

هكذا حدث تحسين نفسه وهو يرى تلك التجارة في رواج مستمر.

وكان هناك تجارة أخرى بين ليلة وضحاها صار صاحبها ثرياً ثراءً فاحشاً، وذلك عمل أبي حازم وأخيه عمرو، وطرق الربا الملتوية، وبعدها فتحوا صيرفة في تكريت، الكل يعلم أن أبا حازم وأخاه عمرو لا يتورعون عن أكل الحرام مهما تعددت طرقه، المهم أن يملكون مالاً. الطمع هو سمتهم. ولكن أمراً كان يثير الناس (المحافظين) عليه، هو أنه يأكل الحرام ولا يقول هو حرام، بل يحله لنفسه، هكذا بكل صلافة مما أثار عليه اسامة مراراً.

وبيت الحاج سعود، الذين يعملون في تجارة الشاحنات وحمولات النقل، والحاج سعود يملك من المال ما لا يعد أو يحصى، وهو عجوز طماع ولكنه لا علاقة له بأحد مهما كان، وهو لا يدفع حق الزكاة، ولا يسمع نصحاً من أحد، وكانت فيه شجاعة الباطل، إذ يقول علناً: ان نصحه اسامة:—

يا أخي أنا اريد أن أكل الحرام، ما الذي يضرك أنت؟

-وأولادك؟ ينشأون على الحرام؟ أنت تريد أن تدخل جهنم، وأولادك؟ ما ذنبهم حتى يدخلوا النار؟

-لست أنت من يدخلهم النار أيها الصبي.

-أنت تتحدى الله علناً؟ تجهر في معصيتك.

فقال هازئاً:

-انصح أباك أولاً. (ثم بعصبية): أغرب عن وجهي هياً.. أدب
سِرْ.

فغلى الدم في وجهه، وتقدم نحوه وقال:
-ايها العجوز، احترم نفسك..

فقاطعه قائلاً:

-وإن لم احترم نفسي ماذا تفعل.

-ستندم!

-رُح من هنا!

بقي الملا عمر، وهذا موظف تابع لأوقاف تكريت، أمام مسجد
قريب من القرية، وهو رجل وقور، حفظ العلم الذي لقنوه اياه
في المدرسة والجامعة ولكنه نسيه، فيقوم على المنبر ويخطب
لهم خطبه المكررة، الى أن مل الناس وضجروا، وقالوا له
مراراً: يا شيخ حفظنا خطبك. فوعدهم أن يغير موضوعها،
وجاءت الجمعة الأخرى وأملوا أن يخطب ويأتي بشيء جديد،
ولكنه أعاد الخطبة الماضية نفسها، فغضبوا، ولكنهم كتموا
غضبهم وقالوا لأنفسهم: لعل ظرفاً أو طارئاً شغله. وجاءت
الجمعة التي تليها، وإذا هي نفس الخطبة!

فقالوا له بعد الصلاة:

-يا ملا عمر، موضوعك أعدته ثلاث مرات.

فقال لهم:

-وهل عملتم به؟ اقول وانصح ولا تسمعون!

وفي الجمعة التالية جاء وخطب خطبة مكررة، واقام الصلاة،

وما أن بدأ يقرأ الفاتحة حتى خرج كل أهل القرية من المسجد وتركوه يصلي وحيداً! وهكذا أهل القرية اذا ضجروا من أحد ما .

بقي شخص غامض يسكن القرية، لم يعرف أهلها سره أو كنهه، هو (ابو سليمان)، ولا يعرف أحد عنه شيئاً غير ذلك، يسكن في قصر فخم تحوط به البساتين، وجل الذي يعرفونه أن أبا سليمان هذا هو رأس كبير من رؤوس النظام السابق، قيل أنه مقرب من صدام حسين، دخل القرية على حين غفلة في ديسمبر ٢٠٠٢، وبنى وكيله وكان من سكان تلك المناطق قصراً فارهاً، لا يخرج الا بسيارة مصفحة مضللة، وقليل جداً، ولا يعرفون حتى شكله على وجه التقريب، يقال أن سعيداً رآه مرة وجلس معه، ونسجت حول تلك الجلسة التهاويل الكثيرة.

هذه قرية (لوعة عباس) المليئة بالقصص والحكايات والأسرار، وكم مر عليها من نوابب الدهر المفزعات الا أنها بقيت واقفة شامخة، تشبه وقفة عباس في جنته تحت النخلتين وهو يرقب الحقول لحظة الغروب.

٢

لوعة عباس

من ساءهُ سببٌ أو هالهُ عجبٌ
فلي ثمانون عاماً لا أرى عجباً
الدهرُ كالدهرٍ.. والأيامُ واحدةٌ
والناسُ كالناسِ.. والدنيا لمن غلبا

أبو العلاء المعري

-٧-

سامراء ١٩٣٠:

صوت المؤذن جاء هادئاً رخياً يشبه جريان دجلة إذا مر بمدينتهم، قام العجوز يتمتم بأذكاره متكأً على عصي تسند عجزه وتعينه على المشي نحو الإمام علي الهادي للصلاة هناك تبركاً بالإمام، وكم أصرت زوجه عليه أن يصلي في مسجد (الصديق) ولا يذهب الى الإمام، ولكنها عادة متأصلة في طبعه منذ لم يكن على طريقه مسجد كما هو الآن، ومما أصّل هذه العادة هو عمله القريب من الإمام، له محل لبيع الأقمشة، وقد راجت تجارة القماش هذه الأيام لكثرة الزائرين، فهو يخرج بعد الصلاة لكانه لأن الزوار يخرجون عائدين لمدنهم بعد الفجر، فيتبضعون من السوق في ذلك الوقت.

ومضى ماشياً كعادته يقطع الظلمة بمشيته الرزينة وعصاه التي تضرب الأرض بقوة يتردد صداها حوله وكأنه فجرٌ يدب في أوصال الليل الراكد، وبين الفينة والأخرى ينادي بصوته الأجش: (الصلاة يا عباد الله). وقبل أن يصل الى الإمام ترامى لصوته صوت صبي في المهادر، فظنه ابن أحد الزائرات اللواتي هجعن هذه الليلة هنا، ولكن بقي صوت الصبي يتردد ولا حركة قريبة، فاقترب من الصوت ليراه وحيداً! فحمله ودخل الى الإمام، وأكمل الصلاة، وبحث عن أبويه فلم يعثر

عليهما، وبقي يبحث عنهما الى الضحى، ولكن الصبي بقي
يبكي ويبحث عن من يرضعه، فبعثه لجارة له، وبقي ينادي
ويشيع بين الناس أنه عثر على ولد في الإمام، فلم يجبه
أحد، الى أن أرخى الليل سدوله فحمله معه الى البيت.

-من هذا يا حاج؟

-ولد عثرت عليه في الإمام.

-ألم تجد أهله؟

-لا .

-والآن؟

-سأبقيه عندنا الى أن يظهر أهله.

فقالت بتوتر:

-وإن لم يظهرُوا؟

-نبقيه عندنا .

-ومن يطعمه ويسقيه؟

-وهل هذا سؤال؟ أنتِ طبعاً .

-أنا؟ أتسخر مني يا أبا عباس؟ أنت تعلم أن أيامنا معدودة
وقد بلغنا الكبر، لا نقدر على التربية وقد نموت قبل أن يعرف
اسمنا .

-الرحمة علينا إذن .

-والصبي؟

فقال العجوز بإيمان الراسخين:

-الذي وضعه في طريقي وهو طفل في المهادر فلن يضيعه وهو فتى يعقل ويفهم، ولعل الله يطيل في عمرنا فنربيّه حتى يبلغ رجلاً، فإذا بلغ نكون قد كسينا أجره.
-ونتخذّه ولدًا؟

-وماذا نفعل؟ يا امرأة إن استحققناه ولم نعامله كما يعامل الآباء أبناءهم صار آفة كبرى، وقد يكون مجرمًا، أما إذا عاملناه كعباس رحمه الله نلنا أجرًا في الآخرة وعونًا وخلفًا وذكرًا حسنًا في الدنيا.

ولده عباس الذي قُتل في ثورة العشرين، ما زال سر مقتله الى الآن غامضًا، كيف أنخرط في صفوف الثوار؟ لم يكن يومًا قوميًا تجذبه شعارات العروبة البائسة، ولا شجاعًا مقاتلاً، فكيف غدا محاربًا؟ كيف تقتلع ذكرى ذلك المشهد من رأسه عندما أتى به خمسة رجال يحملون نعشه، أوقفوا خيولهم أمام الدكان ويحملونه على عربة تجرها الخيول.
-أنت الحاج صبحي أبو عباس.

لما رآهم وقف حائرًا، كيف يجيب وسيماهم تثير الفضول؟ فقال بقلق باد:
-نعم، أنا هو..

فقال كبيرهم وقد علاه كرب وقتر بالغين:
-عظم الله أجركم في ولدكم عباس، استشهد ولدكم في معركة مع الانجليز !

لم يجد فرصة حتى ليتفكر في خسارته في ولده الوحيد، عندما انهالت عليه التعازي ودعوات الصبر والسلوان، وخرجت

سامراء بشيبيها وشبابها تشيع عباس الثائر الرافض للاحتلال الذي غدا بطلاً قومياً لا يعرفون متى تطوع ولكنه الآن صار شهيداً بعد أن رحل. بعد ذلك وهنت صحة أبي عباس ودبَّ الوهن في جسده هو وزوجه. ولم يكن يمارس عمله في تجارة القماش عن حاجة، بل هو لهو يقضي وقته وينسيه حزنه، عشر سنين لم تكن كافية لينسى مصيبته، ليأتي عباس الصغير ويحيي ذكره فيهم، فاحتضنوه وربوه، ونشأ نشأة المترفين في رغدٍ من العيش، الى أن بلغ الثامنة عشرة وكانت زوجة الحاج صبحي قد توفيت قبل ذلك بشهرين، فلما شعر الحاج صبحي أن أجله قد دنا واقترب؛ قال لعباس وهو على فراش المرض:

-ولدي عباس، أنا ماض الى حيث يمضي كل حي، وأريد أن أبرئ ذمتي قبل الرحيل، أنت لست ولدي! ولدي عباس كبير جدا من مواليد ١٩٠٠، استشهد في ثورة العشرين، وأنت وجدتك في مرقد الامام علي الهادي قبل ثمانية عشر عاماً!

لما سمع عباس هذا الكلام لم يستطع أن يكمل سماعه فخرج هائماً على وجهه كالمجنون لا يعول على شيء، خرج غارقاً في لجج بحر من التساؤلات المفزعة ما يشيب لها الولدان، وكان أول ما أعترض طريقه بعدما اجتاز سور المدينة دجلة يسيل هادراً رقيقاً تارة وغازباً تارة أخرى، وفجأة خطر له فكرة الانتحار، هكذا دون مقدمات، ما العيش وقد أفجعه من كان يظنه أباه وصفعه بحقيقة مرة؟ أليس من السذاجة والسخافة العودة لتلك الحياة التي لفظته؟ الحاج صبحي رجل صالح ولكنه أنكره، فقال بصوت مجروح مخنوق أمام دجلة: لم يا حاج صبحي أخبرتي؟ تريد أن تريح ضميرك قبل موتك على حسابي؟ وهذه النفس من يسكتها ويلجم قساوة السؤال الذي

يحز القلب قبل الجسد؟ هل تريدني أعيش في عار، وإن لم يعلمه الناس فقد علمته، ليتك كتمته وأخذته معك الى قبرك.. يا الله ماذا أصنع؟

ثم عاد يقول لنفسه: ليتني ريشة في جناح طائر، أو رصاصة في بندقية نائر، أو دعوة تخترق السماء لمؤمن حائر، أو قطرة في دجلة ومصبه الهادر، لعلني بذاك أخرج من ضيق التساؤلات لسعة الحرية التي لا تحدها حدود أو فضاء أو اجواء، تخترق سماوات وتستششق عبير الحرية الفواح.

ثم مضى يمشي هائماً ..

-٨-

لما توحّد عباس بالليل ولم يُعد يسمع الا نباح الكلاب وثغاء شياه يصل إليه من بعيد شعر أن بينه وبين الليل ألفة، فالليل هنا أرحب وأوسع، خرج من ضيق أسوار سامراء لرحابة الفلاة، عندما استقر لأول وهلة بعد مسيرة يوم ولا يعرف أين هو، ولكن شعر أن هنا شيئاً يربطه، شيء يقول له: هنا الجذور والأصول .. ألم يقل الحاج صبحي أنه وجده فجرا عند الإمام؟ هو لم يشعر يوماً في سامراء أنها أرضه ومنبته، ولكن هنا تحفه سكينة عجيبة، وكأنه نور من تلك النجوم الساهرة قد لف قلبه، وهو يطالع النجوم وقبل أن يغشاه النعاس تفكر في تلك الحكايات التي كان يسمعها من الشيخ في الكتاتيب، قصة بني العباس وذريتهم وكيف بنوا سامراء ثم هجروها في وقت قصير. ثم أخذ يجد التعليل والتأويل للخلفاء في تركها، وكان اسمى ما وصل له أن الخلفاء كانوا يشعرون في ضيق، والنفوس يثقل عليهم، وبفعل ذلك الضيق

كانوا يقومون بمصائب ونوائب تؤدي الى فتنة، لدرجة أن يقتل الأخ أخاه. وبتفكيره هذا زاد عباس كرها ومقتا لها. وبينما تشرقه الأفكار وتغربه ذهب في نوم عميق.

يشق الفجر عتمة الليل الداكنة، وبينما يشعر أن ضوء الشمس يتدفق عليه شاعرا بحرارته اللاهبة شعر بشيء يحز في صدره، فقام فزعاً هلعاً، ولكن سرعان ما ابتسم، ورأى الدنيا كأنها كانت مظلمة خابية الضياء، وفجأة سطعت وتبددت حلكتها الداكنة، فقد تدفقت الحياة عليه كالشلال، كانت فتاة متلثمة لا تبدو منها الا العينان، ولكن عينيها بدت له ساحرتين جذابتين. فقال له:

-غريب ويجوس أرضي وينام بها؟ من أنت أيها الرجل؟ لص؟

فقال ضاحكاً بعد أن رُدَّتْ له شيء من روحه:

-هداك الله يا سيدتي، أَلصَّ وينام حتى مطلع الفجر، ثم هل يوجد هنا ما يُسرق؟ لا شيء يستحق السرقة.

-قم أيها الدعي وأخرج، ثم كيف وصلت الى هنا؟ ألا تعلم أن المدن بعيدة عنا.

-تائه في أرض الله.

-التيه أنواع وأصناف، ولا أراك الا تائهاً تيه القلوب.

-وكيف يكون ذلك.

-أنت لست سارقاً أو قاطعاً، أنت ضائع، ولكن لا تخف، كلُّ تيهٍ وله نهاية. ما زلت في أوله.

-إذا كان هذا أوله فكيف يكون أوسطه، وكيف سيكون آخره؟

-أوله شاق طويل، طرق وعرة، ولكن ستعتاده وسيغدو أمراً عادياً.

-ولكن تيهي ليس عادياً ليكون طريقه عادياً.

-كل شيء أوله يبدو صعباً مرّاً كالغربة، ولكن ستعتاد، بل ستسسى أنك تأثه. والآن أيها الغريب قم وامش طريقك، وسر نحو غايتك.

-وما غايتي؟

-وما أدراني؟

فازداد حيرة، ولما رأته حائراً، ورأت ما به من تعب وهزل وضنك، قالت عاطفة عليه بلهجة رقيقة بلا ضعف:

-سأصب لك حليباً سائغاً شرابه، اشرب وارثو وارث، ثم ارحل، هذه أرضنا وهذه شياهي، وذاك الكوخ مسكني، ارجوك ارحل بعدها.

ثم راحت تتهادى نحو كوخها، وجاءت بإناء فيه حليب ومعه خبز، وقدمته برفق. وبدأ يأكل، ومع الأكل قصّ قصته. مع العلم أنه قصها بلا تزييف أو تجميل كما يفعل القصاصون والكذابون والمبالغون والباحثون عن استعطاف السامع، بل قالها هكذا عفواً وهو يتناول طعامه، وأخبرها أنه لا يعرف وجهته ولن يعود الى الحاج صبحي بعد أن عيَّشه في كذبة كبيرة رماها عليه عند موته. عطفت عليه، واقتрحت عليه أن يعمل مع أبيها يحرث الأرض، فوافق مباشرة على هذا العرض الذي بدا مغرياً لا يُردُّ، وكلما تذكر عباس تلك اللحظات غمرته سعادة، لأن عرضها هو عرض الزواج منها ولكن من وراء حُجب، وهذه من سمات حمدية المحمودة، فهي وإن كانت قوية ولكن فيها ليونة.

رُفّت إليه، وعاشا عيشة هنية رغيدة هادئة لم يشبها كدر، وإن لم تخل مما يحدث بين الأزواج من منغصات ولكنه لا

يكاد يذكر أمام سعادتهما . يخرج فجرًا ، فيؤدي فرضه ثم يمضي الى أرض زوجه التي تحيط بكوخهما الصغير فيمضي النهار فيها دائبًا عاملاً لا شيء يعنيه سوى العمل بعد أن قرر نسيان الماضي وما به من ترف — إذا قيس بحياة الشظف التي يعيشها بعد زواجه — بل كما قالت له حمديّة في أول لقاء بينهما ، لقد اعتاد عباس على التيه — أو ما كان يراه تيتها — وصار أمرًا عاديًا ، واشترى أرضًا جديدة ليحرقها مع أرضه الصغيرة ، ثم اشترى معها أرضًا أخرى أوسع وأرحب ، وزرع الأرض التي حول الكوخ فغدت جنة وارفة الظلال ، تسير السواقي نحوها ، فتسقي الورد والرمان والنخلات الباسقات . وصار كوخهما في فيء وظل دائم ، يجلس عباس فيها كلما بلغ الجهد منه مبلغًا ، يجلس مسترخيًا مطمئنًا وسط رائحة الورد ولا يسمع الا صوت خرير الماء وهو يمشي في سواقيه ، او تغاء شياهاه المألوف عنده ، حتى ظن أنها جنة خلده ، لدرجة أنه مرة كان يضع رأسه في حجر حمديّة وهو تظله بشعرها الكستائي ، كان الوقت ظهرًا وقت بلغ منه التعب مبلغًا ، فما أن استقر راسه في حجرها وصوت العصافير المزقزقة وهي تقف على الساقية بدا جميلًا طروبًا ، حتى قال لها :

يا حمديّة ، في رأيك عندما ندخل تلك الجنة التي وعدها ربنا للمتقين هل سنشعر بالغربة؟

فقالت ضاحكة :

-أيُّ غربة؟

-اعني موطننا جديدًا لم نره من قبل ، من الطبيعي أن يبدو غريبًا ، ولكن أنا لن يكون لي غريبًا .

ففتر ثغرها عن بسمّة ودیعة:

-ولم؟

-أنا الآن في الجنة، أنتِ يا حمديّة تقوين الإيمان بالآخرة وجنتها وما وعد به المؤمنون من جنة عرضها عرض السماوات والأرض. كل تلك الصفات التي ربما يعجز المرء منا عن تصوّره أنتِ تجعلينه يقيناً، كم أنا محظوظ بل كم أنتِ عظيمة يا حمديّة؟ حُبِّكِ إيمان، والجلوس معكِ جنة، والابتعاد عنكِ تيه. فقالت متعجبة:

-أهذي أنا يا عباس؟

-أجل هذه أنتِ.

-شكراً لأنك عرفتني بنفسي!

-٩-

الحياة بهرجة كاذبة، وإن كان النعت قاصراً عن اداء المعنى ولكنه ادى بعضه، من ذاق حلاوتها واستلذ بها حسب أنه ملكها، وبعد أن يركن إليها ويؤمن مكرها تأتي ضرباتها متتابعة قاسمة وتنسي ما لاقى صاحبها من فرح ومرح وابتهاج. وهذا عباس الذي حسب الدنيا دنت له، وجمعت من أطرافها بيده، وكأنه الرشيد أيام عزه، والحق من يَرِ عَبَاساً أو يكون مكانه لآمن بتلك الفكرة ايمان المتقين، فبعد أن كثر ماله وعياله، واتسعت أرضه، وبنى بدل كوخهما بيتاً واسعاً الغرف رحباً، وصار عبارة عن جنة كبيرة، وحمديّة التي رآها أول مرة ترعى غنمها وتهشها بعصاًها قد أصبحت سيدة مرموقة في يدها

الأساور الكثيرة، وفي قدميها حجلان، وكلما سارت وسط معارفها تعجبين بها ومن ذهبها الذي يكثر يوماً بعد يوم، وزوجها عباس التاجر الصدوق الأمين، الذي صار علماً لتلك المنطقة لما يملك بها من الاراضي الكبيرة والتي لا تكاد تعد. علي وسالم وسعيد ونورية، أولاده الذين بدو كالأقمار، فكأن قمرين تزوجا فكانا هذه الذرية. وشيء آخر كان زاد من جعل تلك العائلة نموذجاً عالياً يحذون حذوه ويخطون خطوه، هم أولادهم وتربيتهم الصالحة، تجدهم يوقرون الكبير ويعظمونه، ويحترمون الصغير أيما احترام، إذا نادوا أباهم نادوه بصوت خفيض، يطيعونه ولا يكادون يعصون له أمراً، إذا تكلم فكلامه هو الفصل، لا كلام بعده، وإذا دخل أحدٌ عليه دخلوا هادئين، وقالوا تحيتهم بعد السلام: كيف حالك يا أبت. وما هذا الانضباط الا لقوة عباس وشخصيته الرفيعة، فقد تزوج ولده سعيد بنت شيخ قبيلة كبير في القرى المجاورة، وكان عرساً تحدث به الناس وقتاً غير قليل، ولكن تأبى الحياة الصفاء الدائم، وما زال يذكر عندما جاءه الجند، أول مرة يطؤون هذه الأرض، لما رأتهم حمدية يخترقون جنتها ارتعدت وظنت بهم شراً. وقف الضابط ذو النجمات الثلاث وملامحه الصارمة تدل على أن ما جاء به ليس خيراً. خرج عباس ورحب به. فقال الضابط:

-هذا بيت علي عباس.

-أجل، تفضل سيدي.

-عليه أن يلتحق بالتجنيد.

-التجنيد؟

-نعم التجنيد، وابنك متأخر جداً ولم يخدم، لم؟

-لم يأتنا أحد ويقول أن عليه خدمة.

-حجي، هذا ليس عملي، على ولدك أن يلتحق بالأحد القادم، وهذا الأمر استلمه، وإن لم يلتحق سيعرض نفسه عقوبة قد تصل الى الإعدام!

-إعدام؟

لم؟

-البلد في حالة حرب، والفار من الجندية كالفار من أرض المعركة، وهذا واجب الوطن المقدس، أم تريدون أن نقاتل وأنتم قاعدون؟! هذا فخر يجب أن تفخر به يا عم لا أن تخاف على ولدك، الوطن يستحق منا التضحية لأجل البقاء..

ثم مضى الضابط بعد أن قرأ الوطنيات والحماسيات عليه وتركهم في حيرة.

-تريد أن ترسل ولدنا الى الموت؟ نرسله بيدنا؟ (قالت حمديّة وهي تكاد تأكل عباس بعينيها من العصبية.)

-وماذا نفعل؟ أتحسبهم سيتركونه؟

-فليهرب!

-أين يهرب؟

-الى اخوالي في العمارة.

-اتركيني أترو في الأمر.

-أيُّ ترو؟

فقال بعصبية:

-حمديّة! اسكت.

كان علي ولده قد بلغ الخامسة والعشرين، ولكنهم يسكنون

بعيداً عن عيون المدينة والأمن، فلم تبال بهم آنذاك — أي عندما كان عمره ثمانية عشر عاماً — وسائر البعداء أمثاله، فلم تكن الدولة مستعدة أن ترسل لجنة من ضابط وعناصر وتتفق عليهم لأجل البحث عن فارين من الخدمة، إنما تضيع على اسمائهم تأشيرة فمتى نزلوا المدينة أو دائرة أو مروا بمخفر مسكوا بهم، وهؤلاء يعرفون الأمر، فغالباً ما كانوا يمتثلون في أراضهم إن كانوا قد سجلوا في التعداد السكاني، ولكن الآن الأمر قد تغير، فهذا هو الحرب تحصد الرجال كما يحصد المنجل الزرع، والدولة تحتاج رجالاً أكفاءً يفدونهم ويرسلونهم الى تلك الأماكن.

لم يَنم عباس ليلته، كان يعلم أن العسكرية هذه الأيام طريق محفوف بالمخاطر، العسكرية ليلهم خوف، ونهارهم حرب وموت، الجندي منهم يكون كالعبد بين أسياده، أولئك الضباط القساة الذين كان أكثرهم يستحق أن ينادي العسكري باسمه، يناديه بازدراء واستحقار: (قشمر)، هكذا ينادونهم: قم قشمر، واخرج قشمر. عدا الإهانات والعقوبات والمرتب الذي لا يسد أجور السيارة التي يغدو بها ويروح على معسكره وسكائره، وكثيراً ما يصرف أهلهم عليهم أضعاف ما تصرف الدولة، هذا في أيام السلم. الآن قد دارت رحى الحرب بين الجارين، وصارت المدن عبارة عن مآثم كبيرة، إذ كان في ذلك الوقت «للميت حرمة» كما قالت الجدات فيما بعد، كان الحزن لائقاً بهم، كان الشهيد اذا دخل حياً انقلب الحي كله الى مآثم، فلا عرس ولا فرح، احتراماً له. والآن عباس تحيط به تلك الأفكار، تحاصره، هل يلقي بولده في النار؟ هكذا هي، نارٌ حارقة، لا ترحم، يعلم أن النصر إن انتصروا سيكون للقواد والرؤساء، أما أولادهم إن عادوا من الحرب سالمين سيأتون

حفاة ذوي أسمال بالية ووجوه شاحبة. إنها الحرب يا عباس تفرض عليك أن تسقيها من نسلك. لم يكن يفكر عباس وهو يجوب جنته: من يحمي هذه الأرض؟ من يلوذ عنها إن لم يلذ أبناؤها بدمائهم، ألم يعلم أن الأرض تحتاج سقياً عدا سقاية الماء؟ تحتاج دمًا فائراً حتى تختلط بهم، وتكون جزءاً منهم. جاء الصباح ولم تأخذ عينه نومًا، جلس عند حمديّة وهي تخبز. فقال بهدوء:

-حمديّة، سأُرسل عليًّا الى الحرب، الوطن يحتاج منا التضحية ولو بأبنائنا، لنبقى على هذه الأرض يجب أن نضحي ونخسر! أرايت لو أن عدوًّا وقف أمام أرضنا يريد العبث بها وبمقدراتنا، هل نتركه يعبث ويفسد في الأرض أم نقاومه بما أوتينا من قوة الى آخره قطرة من دمائنا؟ هه؟ كذلك الوطن هو أرضنا مثل هذه الأرض التي نحرتها ونسقيها.

قال كل ذلك بهدوء وفتور بالغ ودون أن يظهر على سماته تأثر أو قلق من الحرب وولده المولي وجهته إياها، ذلك لأن عباس كان عندما يحزن، يحزن بداخله، بكوامن نفسه، لا يخر باكيًّا كما يفعل بعض الرجال، بل يراه عيبًا ومنقصَةً لرجولته، كان يتقن التظاهر واللامبالاة وعدم الاكتراث مع العلم أنه قضى ليلة صاخبة وصراعات وخلافات في نفسه. الحزن، الألم، كله يحتفظ به لنفسه، يتألم وحده دون ازعاج الآخرين.

فقال حمديّة بعصبية وكانت أول مرة تخاطبه بهذي العصبية المفردة:

-كيف تضحي بولدنا؟ ترميه بالنار هكذا بكل بساطة!

-يا أم علي، (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم)، هذا حال الحروب في كل زمان،

علينا أن نضحى، وعلى ولدنا أن يذهب كما يذهب الفتيان
الشجعان، يقاتل ببسالةٍ، دفاعاً عن الأرض والعرض.
فقالَت بعناد مشبوب بحنو الأم:

-بل دفاعاً عن طغاة كفروا بنعمة الأمن، وقتلهم الطمع، هم
لن يخسروا شيئاً، مكاسب فوق مكاسب، رتب وامتيازات
ومجد يملؤون به صفحات التاريخ، وأولادنا يا أبا علي الى
القبر، قل لي بالله عليك، لو انتصر العراق نصراً ساحقاً
على أقوى الأمم، وغنم الغنائم، وحاز المجد، وتقلد أوسمة،
هل ستبعث شهيداً من جدته وترجعه لحضن أمه التي حملته
وهناً على وهن؟ أم ترد غائباً لم يعرف له قبرٌ تجثو أمه عنده
في الأعياد وليالي الجمع فتبكي؟ أجب يا ابا علي يا من يريد
أن يبعث ولده قريباً لقضية لم ننل منها عيراً ولا نفيراً.
كان لهجة حمدية حدية وفيها عصبية زائدة، وكان عباس
يستفزها بلهجته الهادئة:

-أنتِ تنظرين الى الأمر من جهة واحدة.

-وأى جهة تريدني أن أراها؟ أن اقول لك اذهب وخذ ولدي
واعطه لهم، وقل لهم هاكم ولدي خذوه فداءً للأرض،
فيضعونه في منتصف الحرب؟

-ولكنهم لن يضعوه وسط الحرب. أخبرني ضابط أنهم لن
يضعوا المجندين الجدد في الحرب أو الخطوط الأمامية، بل
في مدنٍ آمنة رخية.

-هذا هراء.

-ليس هراءً.

فقال باستسلام:

-انها الحرب التي تطحن أبناءنا يا أبا علي.

فقال جازما:

-سأرسله، وانتهى.

لما قال كلمته الأخيرة قاطعاً ناهياً كل آمالها، تحدرت منها الدموع، لأنها تعلم عناده واصراره، قامت وجثت ماسكةً بيده تلثمها وتقول: أرجوك يا عباس لا تتركه يرحل، ولدي، لا أريد أن أخسره، فلذة كبدي... أرجوك.

فسحب يده بهدوء وخرج تاركاً حمديّة في بكاءٍ وعويل!

كانت قراراته كلها غير قابلة للنقاش أو المراجعة، بل قطعية نهائية، لأنها غالباً لم تأت إلا بعد وقت كافٍ من التفكير والتدبير.

- ١٠ -

صوت أنين حمديّة يصل الى أذن عباس، يخشوشن تارة فيحز قلبه ويغوص كمديّة اخترقت القلب، ويتلاشى تارة أخرى فيبقى ذلك الصوت الداخلي — وهو أشدّ فتكاً من صوت حمديّة — يصليه عذاباً اسمه ندمٌ. ما أشدّ أن تقف أمام ضميرك مذنباً، وتقف عارياً من أيّ حجة، فتشعر أنه يسحقك.. في تلك اللحظات، تتمنى لو أنك هويت من مكان سحيق فتخطفك الطير وتقاسمت جسدك فضعت وامتزجت بها وكنت نسياً منسياً خير لك من ذلك الصوت القاسم للروح. كل ذنبٍ له حساب ثم عقاب، ولكن عقاب الضمير

الحي أشد أنواع الحساب والعقاب، كقاضٍ عادل ولكنه يتخذ من الأحكام أشدها حيطةً وحذرًا.

أربع سنوات يا علي وأنت في الحرب، والأخبار تزداد سوءًا، أين أنت؟ ماذا تأكل؟ كيف غدوت من جندي متطوع الى مرابط على الجبهة؟ هل عشت أم مت؟ العدو شديد، واسراب الموتى تصل تباعًا ولكن لم تأت أنت، هلا أتيت، كيفما كنت، حي أم ميت، المهم ان تأتي. هلا أتيت وكحلت العيون التي رمدت حزنًا، وجفت وجدًا، يا علي أنين حمديّة يقطع فؤادي، بكاءها. صراخها. كل شيء في البيت ينتظرك، كل شيء خلا في البيت، الضحكات المجلجلة، صخب اخوتك وهم يتدافعون للخروج الى الحقل، لم يعد من ذلك شيء، الحزن وحده ما يؤثثه، نحن في انتظار جنازتك منذ سنتين، ولكن أنت حيّ ونحن نموت قبل موتك، نموت انتظارا، فقدك يا علي ريح عاتية أجهزت على مسكننا وجنتنا وبهجتنا.

-قلت لك يا عباس، لا ترسل ولدنا الى الجنديّة، ليفر الى اخوالي في العمارة ولكنك بدأت تبيع الوطنيات والحماسيات. فيقول بهدوء:

-لكل أجل كتاب، والمكتوب ستراه العين.

-ولكن الله قال لك خذ حذرك يا عباس لا أن ترميه في تلك النار المحرقة.

-.....

-لم أرسلته يا عباس؟

وعلى هذه الشاكلة يقضون ليلهم، أما النهار فيحاول عباس جهد الإمكان أن لا يراها، حتى لا يتضاعف وجعه، تحسب

أنه لا يشعر، ولكن عباس كان يتلظى على تلك النار الهادئة، ومع ذلك الألم كان يعمل دائماً وبهدوء بحثاً عن علي وفي أي جبهة هو، وما يخوض من معارك ضارية، وكان يرسل له معونة، بعض المال، وبعض الثمار والمحاصيل التي كانت تصل معظمها الى الضباط وقليلها له يتقاسمها مع رفاقه، وكان بعض الثمار يبيعها خصيصاً للضباط ليحصل على اجازة لأيام قلال يأسون به، ولكن هذه الإجازة قليلة متباعدة قد تصل الى شهرين أو ثلاثة، وما أشده من مشهد عندما يعود علي — قبل أن يبعثوا به الى الجبهات الأمامية —، كان يأتي وحاله يرثى لها، جسده الضامر ووجهه الشاحب وسمرته الداكنة التي سقاها قيظ الصيف وقيظ الحرب فبدا شكله مخيفاً لأول وهله، ولكنه عندما يعود ويتغذى من مطبخ حمدية الدسم تعود له شيئاً من نضارة وجهه، عندما يأكل اللحم والشحم وكل ما لاذ وطاب مما لا تخلو منه بيوت أثرياء الفلاحين وكبرائهم. عندما كانت ترى حمدية حال ولدها وما ينطوي عليه من ضنك وتعب تدعو علي من تسبب بهذه الحرب بأشدّ الدعوات، ثم تذكر أن ولدها — كما أخبرها — ليس قريباً على الجبهات، بل بعيداً أشد العبد — وكانت تلك تعليمات عباس —، وظلت شاكة شكاً قوياً الى أن افتضح الأمر عندما سها أمامها في الحديث عن خسارة الجيش للفاو.

-أنت في البصرة؟

قالتها بذهول وتعجب وتحديق يكاد يخترق جسده، الكل ينفر من تلك النظرات، نظراتها كالشظايا تتطاير عليهم بعشوائية ولا يعلم أيهم ستصيبه، والويل والثبور لمن سيقع ضحية تلك النظرات، وغالباً ما يقع عباس، فيتركها تصرخ وتزجر،

ويستمع إليها ساكنًا، فهو عليم بها وبطباعها.

-هل ستشارك في تحرير الفاو؟

سأل عباس عليًا.

-لا أعلم يا أبت.

-متى تبدأ المعركة؟

-لا أعلم.

-ماذا تفعلون اذن؟

-نحن نتدرب على أرض أشبه ما تكون بأرض الفاو، نوحل في الماء المتجمد فجراً في عز الشتاء، على أرض فيها مياه مالحة صعبة الحركة، جغرافيتها معقدة، نحن نتدرب على تلك الجغرافية.

-يا ولدي، إذا اشتدت الحرب، فقف وقفه الصناديد، ولا تسمع كلام أمك، في الموت يستوي الجبان والشجاع، فمت شجاعاً ودع لنا مجداً وفخراً نحمله أبدَ العمر، وأنت صاحبه.



(يجب أن يموت بعض الأفراد ليعيش العشرات، ويموت العشرات ليعيش المئات، ويموت المئات ليعيش الآلاف، ويموت الآلاف لتعيش الدولة، أنتم فداء للأجيال الآتية، لإخوتك، ليكون لنا موضع قدم في بلدنا، لنقف في وجه من يسلب حقنا ونقول: نحن ضحينا، يا ولدي؛ الشجاعة عز، والشهادة أجر وفخر، الى أن يأتي النصر)

هكذا كان يتذكر عباس نصيحته لعلي قبل أن يخرج الى جبهته، وهو منطوٍ منعزل في جنته التي غدت مصدر شقائه

وبؤسه، هو من حرصه على قبول فكرة الموت والإقدام عليه دون خوف وجل، أو فماله الآن لما انقطع خبره، وحمي القتال تقهقر وندم؟

أهي دموع حمديّة التي ستكلفه أن يبقى حبيس جنته — التي انقلبت جحيماً — ما بقي من عمره إن لم يعد علياً سالمًا؟ كيف يقنعها أن السلام لن يعم الا قبل أن يؤمن الناس أن التضحية هي الطريق، الطريق المعبّد على قساوته، القريب من السلام على وعورته، الأمن على أهواله وأوجاله؟

نحن على قيد الوفاء ما دام الأب يهب ابنه هكذا، هدرًا لوطن تتكرّر لنا دومًا، أنكر كفاحنا، نحن وهيناه أغلى ما نملك فلم يعطنا الا نشيداً نتغم به، تصدح حناجر أولادنا به صباحًا :

الجلال والجمال...والسناء والبهاء

- ١١ -

رسائل حمديّة الى علي وهو في جبهات القتال أملاها أخوه سعيد .

(السلام عليكم.. ولدي الحبيب علي كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ انقطعت عنا زيارتك من شهور ثلاث، ولم نعد نسمع لك خبرًا أو مكالمة، ولو كتابًا صغيرًا إن لم تتوفر المكالمة. أنا خائفة وجلة عليك، لم أنقطع عن البكاء منذ رحلت، أسمع الأخبار، أسترّق السمع كلما مرت جنازة أقول: لعله جاء شهيدًا. ابعت لي خبر ليستقر قلبي ولا تدعني هكذا في قلق دائم.

أمك

تكريت، اغسطس ١٩٨٧م)

ولدي الحبيب:

ها أنا أبعث إليك ثانية، وقلبي مكلوم محزون، لم يصل منك الى الآن رد، فهل من سوء؟ الموت بدا في كل شيء، ابوك الذي اعتزلنا ولم يعد يجلس معنا، بل عاكف في الحديقة أمام الحقول ينتظر أوبتك بهدوء كعادته.

أمك

تكريت، سبتمبر ١٩٨٧)

ولدي الحبيب:

وصل كتابك قبل شهر وعشرا، ومنذ ذلك اليوم وأنا في أنس متصل، ورغد مستمر، وابتهاج، لما وصلت رسالتك ذبحت خمسة خرفان شكرا لله. أنا بخير وكلما وصلتني أخبار عنك زادت سعادتي .

تقول لي: حدثيني عن الحب والحياة فالموت هنا من كل جانب. ألا تعلم يا ولدي أننا نجرب الموت مرارا، نعيش مع شبجه، بل كل من في البيت كأنهم أموات.

او حبيس ذنب اقترفه في حقك ولن نسامحه إن حصل لك مكروه.

أمك

تكريت، نوفمبر ١٩٨٧م)

(ولدي الحبيب:

عدت مجدداً الى الغياب الدائم ، هل جد جديد؟ الحال هنا

يزداد سوءاً، أبوك عنده أزمة قلبية، وقد دخل في غيبوبة استمرت لبضعة أيام، وهو الآن بخير، لم يستطيع الحركة الا قليلا، ولم يعد يتكلم، الطبيب أخبرنا أن أباك لا علة في نطقه، ومرد صمته لحالة نفسية وامتناع ذاتي. والسلام..

أمك

تكريت، يناير ١٩٨٨م)

رسالة سعيد لأخيه علي قبل معركة الفاو

أخي علي:

أبعث إليك رسالتي هذه، بعد أن أوصتني أمي بذلك، هي مرهقة جداً، وتتقبل فكرة موتك تدريجياً، كلما سمعنا بيان حرب خفنا، وحسبنا كل قتيل هو أنت، إن فكرة موتك وحده مؤلم، فكيف إذا غدت حقيقة؟ لا أستطيع تخيل فكرة رحيلك مقتولاً، إذ ستمي أمي من كثرة البكاء، ولسوف يموت أبي حسرةً وكمدًا وندماً، إن حالته النفسية تتدهور كلما طال غيابك، وفكرة الخطيئة العظيمة التي ارتكبتها عندما شجعك تؤرقه وتصيبه بإحباط فعلاً، عُد أرجوك، احفظ بيتنا من الخراب الوشيك، إننا مرهقون يا علي، لا تحسب تفكيري وكلامي منطلقاً من عاطفة مراهق أضناه ما يراه في عائلته من تفكك فحسب، بل هو صوت العقل، فلا تبق متشبهاً بفكرة الرجولة التقليدية الخائرة التي سرعان ما ستزول وينقلب موقفك إذا حقت الحقيقة الى طالب النجدة. عد الى رشدك فإن عائلتنا لم تعد تتحمل أكثر من هذا.

أخوك سعيد

تكريت، شباط ١٩٨٨م)

لم تكن رسالة سعيد لأخيه علي ذات نفع أو تأثير في نفسية علي، فهو قد اعتاد على مثل هذا الكلام العاطفي منذ سنين، يعلم أن الذي يقدم عليه هي معركة فاصلة طالما طال انتظارها، كانت عقولهم قد تقبلت فكرة: أما التحرير والنصر، أو الشهادة والأجر. هذان الخياران هما مصيرهم وقدرهم المكتوب، هذه الفكرة كانت منيعة لأي عاطفة مهما كانت جياشة أن تنزل تلك الفكرة الخالدة، الأرض والعرض أهم من حزن الحبيبة، والمسكن الآمن الهادئ الذي تحلم حمدي أن تحتويهم به، لكن الفكرة التي سطرت بالروؤوس كانت أعظم، تلك الفكرة التي مازجت الدم امتزاج قلب الصائم بالذكر، بل هو إيمان وتسليم بها، وما أعظم الإيمان إذا غشي القلوب؟ هو سلاح فاتك لا راد له، هو ريح مزعزعة مزمجرة تقتلع أكبر شجرة من أصولها، هو صبح يفجع أشد الليالي حلقة وظلاماً وطولاً، هو غد المظلومين الذي انتظروه طويلاً بوعده الدعاء.



كانت معركة الفاو قد انقضت وتوجت بنصر عراقي باهر، ومنذ يومين وأزيز رصاص الفرع لم ينقض، كانت حمدي تخاف من لحظات الفرع، تتوجس منها، تشعر بالذعر والهلع، إذ أي نصر سيصاحبه دماء وشهداء جدد، وهؤلاء لن يهتم بهم أحد مجدداً، وغالباً سيصرفون لأهاليهم تعويضاً بخساً وراتباً من دراهم معدودة لا تعادل طلقة من طلقاتها أو صرخة ضائعة أو دمعة عندما حملوا ولدها الشهيد مضرجاً بدمه، تلك اللامبالاة والاهمال الذي كانت تتمتع به الدولة إزاء جنودها الذين فدوها ما زال علامة فارقة وحدا فاصلاً بين الأمم المتقدمة التي تعني برجالها، والمتخلفة التي ترميهم كما

ترمي منديل السعال لسلة، دون اكتراث أو اهتمام، هذا دأب الأمم المتخلفة.

وبينما تنتظر حمدية كعادتها قبيل الغروب جالسة على التلة ترقب الشارع وعباس على التلة من الجهة الأخرى يرمق الغروب وكيف يطلي الحقول بصبغته المذهبة؛ لمحت حمدية سيارة عسكرية انعطفت نحوهم وفوقها تابوت ملفوف بالعلم، فشبهت شهقات متتابعة قبل أن تصرخ صرختها المدوية التي شقت أذن عباس وهي تراهم يقصدونها، كانت السيارة تتعرج بالشارع الذي ملأ بالحفر تعرجاً يشبه الوطن المشطى. وقفت ونزل الضابط، وقال بهدوء لا يناسب ملامح وجهه الغليظة وشاربه الكثيف:

-بيت (علي عباس)؟

فشعرت أن الأرض وقفت لا حراك بها، تجمدت، تعلم ماذا يريد أن يقول، ولكنها تكافح، لا تتطق يا سيدي والا هشمت رأسك، العطف الذي تدفق بلهجتك لا ينم عن خير، الخير من أمثالك لا يأتي ليناً هكذا.

فقالت بذهول:

-نعم، بيته. أنا أمه.

فأدمعت عيناه، وقال بعطف يغالبه البكاء:

-ابنك يا خالة استشهد في معركة الفاو. وهذا جثمانه!! كان بطلاً ألهمك الله الصبر والسلوان!

هكذا قالها، دون ترو، كأنها قنبلة يدوية بيديه ورماتها بسرعة، وحسب أن المهمة انتهت. صرخت ونشجت واجتمع ولداها والفلاحون من بعدهم، هل كانت تتخيل أن أفراح (العوجة)

والرصاص الذي رمته احتفالاً بانتصار القائد سيكون هو خبر
استشهاد ولدها؟

رحل علي بكرها، وسرعان ما انقلب الواقفون الى بكّاءين ..
كالأطفال .. بل كالنساء البكّاءات، وهي تصرخ صرخات تشبه
وجع الوطن لو كان له صوت .. أما عباس فما أن سمع تلك
الصرخات حتى توقفت الدنيا في عينيه، كل شيء انتهى، لم
يستدر لهم، لم يصرخ بوجعه، بل كتمه، الى أن اتى احد
الفلاحين وهو يقول له: يا ابا علي، علي مات ..

فلم يرد، حركه، واذا به يسقط ميتاً! مات عباس بلوعته في
جنته التي بناها لنفسه، لتبقى تلك الحادثة علماً على ذريته،
وخبراً تتناقله الأجيال وصدىً من الصبر والكفاح والألم!

٣

أنين الناي

«أنصت الى الناي يحكي حكايته..

ومن ألم الفراق يبث شكايته:

مذ قطعت من الغاب، والرجال

والنساء لأنيني ييكون

أريد صدرًا مَرَقًا مَرَقًا بَرَحَ الفراق

لأبوح له بألم الاشتياق..

فكل من قطع عن أصله

دائمًا يحن الى زمان وصله..

وهكذا غدوت مطربًا في المحافل

أشدو للسعداء وأنوح للبائسين

وكل يظن أنني له رفيق

ولكن أيًا منهم (السعداء والبائسين) لم

يدرك حقيقة ما أنا فيه»

جلال الدين الرومي

-١٢-

وقف رجال القرية كلهم أجمعون، وعلى وجوههم قَتَرٌ وَكَدَرٌ، وقفتهم تتم عن ما في نفوسهم من خوف وفزع رهيبين، كل شيء جمد وسكن، والوجوه قد بدأت تسكب عرقاً، لعل وهج شمس يونيو الحارق قد تلافى ما في وجوههم من هلع بادٍ بذلك الحر اللاهب. صامتون صمت من ينتظر الموت، كيف لا والبنادق موجهة عليهم، مجهزة للإطلاق؟ كان المثلثون مستعدين للرمي، لعله الخوف الذي يعتلج في نفوسهم من أن يخرج أحدهم بندقيته فيمطرهم رصاصاً! ولكن أهل القرية كانوا أقل من ذلك بكثير. ومضت ساعة الضحى، فتقدم أحدهم، وقرأ في ورقة بلغة عربية فصيحة داهنتها لكنة عجماء:

الحمد لله رب العالمين، القائل (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)، ناصر المتقين، وجنده الغر الميامين، والصلاة والسلام على الرسول محمد بن عبد الله، القائل (إنما جئتكم بالذبح)، وبعد :

فهذا كتاب والي تكريت، الأمير أبو عبد الله النجدي، أمر بتعميمه وقراءته على سائر الأقضية والنواحي والقرى، لتعلموا أن دولة الإسلام قد عادت قوية متينة، وما هذا الفتح إلا أول الخير، وهو المزن الذي يتبعه المطر، في دولتنا ستأمنون وتمارسون حرياتكم، وسنعود للإسلام سيرته الأولى، وما دخلت الدولة الإسلامية في العراق والشام أرضاً إلا واستقام المائل، وأمن السابل، وأمنت الغوائل، وارتدع الجاهل، وانشعب الصّدع، وسكن النّقع، وزال الرّوع، وعم النّفع، وانتظم الشّمل، واستحصف الحبل، وانجبر الوهل، واستفاض الوهن، وذهب الحزن، وانبت الشجن، وانحسم الداء، وانكشف البلاء، واندمل

الداء العياء، واعتدل الميل، وذهب الوجل، وثَقَّفَ القاسط، وأرضى الساخط. وما تشاهدوه من تشديد أمني، وتكثيف عسكري، ما هذا الا لتستقر البلاد والعباد، وهو وضع مؤقت. والي تكريت الأمير أبو عبد الله النجدي،

(١٥ شعبان ١٣٣٥هـ)

وما أن انتهى من خطابه حتى أخرج قائمة من المنوعات وقوانين الدولة الوليد:

• إقامة الصلاة: على سكان القرية أجمعين وبدون استثناء الصلاة في مسجد القرية جماعةً، وغير ذلك يعرض صاحبه للتعزير عند القاضي.

• إيتاء الزكاة: على جميع سكان القرية دفع الزكاة للرجل الخاص الذي تعينه الدولة الاسلامية، وبخلاف ذلك يتعرض صاحبها للعقاب.

• المحرمات والبدع ما ظهر منها وما بطن كلها تعاقب حسب الشريعة الاسلامية وغير ذلك تتألون عقاباً أليماً.

• السلاح: يمنع منعاً باتاً أن يحوي بيتاً من بيوتات القرية أي سلاح كان مهماً صغراً، ومن نجد عنده سلاحاً يعرض نفسه للمسائلة.

• أي اتصال بالخارج يعتبر تعاوناً مع الكفرة، ومن نجده متصلاً بالخارجين يعتبر خارجاً على الدولة وكافراً بمبادئها.

• كلُّ جندي يعتبر كافراً خارجياً يجب قتله أنى وجد والتبليغ عنه.

• الولاء للدولة الاسلامية، والتعاون معهم.

- السكائر حرام شربها وبيعها ومن يخالف يعرض نفسه للتعزير.
- من يسرق تقطع يده.
- من يزني إن كان محصناً (متزوجاً) رُجم حتى الموت، وإن لم يكن محصناً جلدناه مئة.
- من يشرب الخمر يجلد ثمانين جلدة.
- لا تخرج امرأة الا منقبة، ولا تتبرج أو تتعطر.
- الدكاكين والتجارة تتوقف اثناء الصلاة.
- باب التطوع في الجهاد ضد الكفرة مفتوح لكم.

وها أنا ادعوكم يا أخوة الايمان، أن تلتحقوا أنتم وأبناؤكم للجهاد في الدولة الاسلامية، فإن هذه الدنيا زائلة فانية، وأيامكم محسوبة معدودة، كم ستعمرون؟ الموت آت لا ينتظر، جاهدوا وصابروا، واستغفروا الله لما فرطتم في جنبه.

ثم قال: ونستسمحكم أيها الأخوة في التفتيش عن محرم أو ممنوع، واخوانكم هؤلاء متعاونون معكم، ونحن نتحلى بأخلاق الحرب كما أمرنا نبينا.



وانقلبوا الى بيوتهم راجعين، ها هم أتوا وسيبدأون تطبيق قوانينهم التي بدت مجحفة لهم، كيف لهم أن يلتزموا بها؟ كان أول مكان دخلوا يفتشونه هو دكان تحسين. كان قائدهم ذلك الذي ألقى الخطاب قبل قليل، وأول ما رآه وخلفه رجلان شاكي السلاح خاف تحسين وارتعد، فقال ذلك الرجل:

-لا تخف أيها الرجل، إنما نحن أخوة، أخوة الإيمان، هذه الأخوة شديدة العُرى، صلبة لا ينهيها الا الموت، لا صلة الوطنية أو القومية التي سوقها هؤلاء الكفرة (ولما قال الكلمة الأخيرة قالها بعنف لدرجة أن تحسين قد ارتجف)..

فقال تحسين بتوتر:

-نعم يا أخي صدقت.

-أتبيع السكائر؟

فبلع تحسين ريقه بصعوبة وبدا متوتراً:

-أستغفر الله، أنا طالب شريعة يا أخي.

-ما شاء الله، أين؟

-في تكريت.

فقال بعنف:

-بئس المعلمون.

فقال تحسين بتوجس وبطء:

-لم؟

-انظر الى لحيتك الحليقة، كأنك امرأة، حضوا الشوارب واعفوا اللحى، (ثم بصوت خفيض هو للتهديد اقرب) اياك والحلق مرة ثانية، (ثم باستهزاء) يا طالب الشريعة.

-حاضر.

-أتدفع الزكاة؟

-الزكاة!

-نعم الزكاة، ما بك؟ أم لا تعرفها؟ وكيف بك أن تعرفها وأنت لا تعطي حقها؟ قبحك الله من تاجر طامع لا يؤدي حق الله!
-يا أخي، أنى لي الزكاة وهذا المحل بسيط جداً، لم يبلغ نصاب الزكاة.

-هذا كذب! تتهريون منها.

-ستدفع الزكاة رغماً عن أنفك.. أما باقي البضاعة التي لا أعلم ما هي فأוכל رجال الحسبة للتفتيش، ناولني هذا الشراب.

فأخرج تحسين بيد مرتجفة ثلاث علب من العصير وناولها له ولجنده. فأخرج من جيبه ألفاً وناولها لتحسين. فقال تحسين:

-هذا على حسابي، لن آخذ منكم شيئاً.

-لا، لن أقبل، هذا حقك وبضاعتك، خذ.

كان هذا الفعل محل استغراب، فهو يعلم جيداً أنهم لا يتورعون عن قتل مؤمن خالفهم، يقتلونه ويسفكون دمه ولو على الظن، بينما لا يقبل أن يأخذ شراً دون أن ينقد ثمنه، تلك الحادثة كانت بداية الانشطار في القرية والتفرق فيما بين أهلها نحوهم، فقد تعددت المواقف، ولكن الأيام وحدها كانت قادرة على كشف ما تحمله القلوب من خفايا وخبايا قد دفنها الزمن لتعود حية جذعة.



-بيت جواد علي عباس؟

فقال أجود:

-نعم هو.

-نريد التفتيش.

أشـرع الباب وفتشوا وعبثوا في كل مكان عدا الغرفة التي
تقنطها أم جواد وابنتها .

فقال الرجل بهدوء ووجهه يطفح بالتساؤلات :

-أين جواد .

فقال أجود :

-لا نعلم .

-ألا تعلم أين هو؟

-لم يعد منذ أيام .

-لا تكذب ..!

فقاطعه أجود بلهجة شابها شيء من العصبية :

-أنا لا أكذب، المؤمن لا يكذب .

-ستأتي معنا للتحقيق .

-الى أين؟

-ساعات وتعود .

وما أن اكمل كلمته حتى خرجت أم جواد سريعة، وما أن رآها
حتى قال :

-استري وجهك يا امرأة .

وكانت مكشوفة الوجه ترتدي عباؤها . فقالت بصرامة :

-اسكت، أنا مستورة قبل أن تعرف أنت الاسلام!

-اسكتِ .

- اسكت أنت، آخر الزمن يأتي أجنبي ويعلمني الاسلام!
- وجهك عورة.
- ليس عورة الا أن يؤدي الى فتنة، وأنا عجوز.
- استريه سداً للذريعة.
- لا يوجد لدينا أنزال لدرجة أن يتلصصوا على نساء بعمر أمهاتهن.
- فقال أمراً الرجلين:
- خذوه.
- فصرخت به:
- الى أين؟
- تحقيق.
- لن يخرج من هنا، ولن أتركه.
- فصرخ بهم:
- خذوه.
- وشحطوه وصرخات أمه خلفه متتابعة الى أن اجتمع المارة والجيران، فقال سعيد:
- أخي أين تأخذونه؟
- من أنت؟
- أنا عمه الوصي عليه.
- استفسار صغير.
- كان أجود أول من أخذه بهذه الطريقة وما أكثر الذين أخذوهم

بهذه الطريقة فيما بعد؟ تلك الطرق كانت أبرز المآخذ على الجيش العراقي، الظلم والأخذ بالظن، ولكن الآن اتبعوا نفس الطرق التي كانوا يستكرونها من قبل، تلك اللحظة جعلت أم جواد تعض أصابعها ندماً، لمَ لم تسمع كلام سعيد وترحل كما اقترح عليها قبل يومين؟ ولكن احتدمت الدهماء ولم يعد هناك مفر من مواجهة القدر المسطور.

ولكن سعيداً لم يهاجر، لمَ؟

-١٣-

لم يكن ذلك المكان سجنًا، ولم يكن هناك وقت لهذه الدولة الفتية لدرجة أن تبني سجنًا في ولاية صلاح الدين، إنما هو بيت كبير اجتمعت فيه القيادة وجعلوا أحد الغرف للتحقيق — وقليلًا ما حققوا — مع المطلوبين أو المشتبه بهم. لما فتحوا عينيهِ المعصوبتين بعد برهة من شدها — بدت له قليلة — كان المكان مألوفًا، بل هو يعرف تفاصيله، رفع رأسه في المكان فلم يتذكر. فدخل رجل آخر ذو لحية كثيفة غزاها المشيب، وشعر طويل أبيض مسدل، وعمامة سوداء، بدت له ملامحه القاسية مألوفة معروفة، ولكن أين؟

قدموا له ماءً باردًا، فشرّب، فقال هذا الرجل الكهل:

-اجود، نحن نعرف عنك كل شيء، من أنت وماذا تدرس، ونعرف جواد جيدًا، فأين هو؟

-لم يرجع الى البيت منذ أيام.

-كيف لم يرجع؟

-قلت لك لم يرجع.

-اين هو؟

-لا أعلم!



وصل البيت عند العاشرة والنصف، حيا أمه تحية فاترة:

-مساء الخير يمة.

-ولدي..أنت بخير؟ هل آذك؟

-بخير والحمد لله.

وَدُق الباب، فتح أخوه الصغير جودت الباب واذا بعمه سعيد يتهاذى ببطء نحوه.

-الحمد لله على السلامة، الله لطف بك.

-لم يفعلوا شيئاً، بل كانوا وديعين معي.

-ها ها ها ها .. طبعاً .. ادع لي.

-لك؟

-أي، أنا من أخرجك منهم، على العموم هم لن يأتوا ثانية الى هنا، لن يعودوا.

-كيف؟

-أمير تكریت، هذا الذي حقق معك.

-أبو عبد الله النجدي؟

-ها ها ها ها ها، هو ليس نجدياً بل عراقياً منا؟

-عراقي؟!

-أجل ومن قریتنا؟

ففغر أجود فاه تعجباً .

-من؟

-ابو سليمان . هو الأمير .

-غير معقول!

-ولم؟ يأكل ويشرب في قريتنا دهرًا طويلًا، وإذا به أمير في الدولة، هكذا تسقط الدول يا عمي، إذا نُخِرْتَ وتأكَلت من الداخل، أنا رأيته مرة واحدة، وكانت سماته تدل على أنه ضابط من النظام السابق متخف ومكتف براتبه التقاعدي، ولكن يبدو أنه كان يخطط لهذا الأمر منذ وقت مبكر، فلما رأيته الآن بدا كأنه أفغاني، بعد أن كان ذا شاربٍ متين كثيف ولكنه حلقه، وبعد القيافة اللائقة لبس ثوبًا قصيرًا، وتركك على اثرها، وهو وعدني أن لا يتقرب لك هو أو رجاله، ولكن من مأمنه يُأتى الحذر، وأنا خائف عليكم هنا، لا تعرف ماذا سيفعلون، وخاصة أن أخاك عسكري.

-ماذا نفل اذن يا عماه؟

-الرحيل، أنت وأخوك على الأقل.

-لا يا عم، لن أترك أُمي وأختي.

-اذن ننتظر قليلا .

كانت أم جواد جالسة وحدها تستمع الى الحديث مدفونة بعباءتها دون أن تبس بكلمة، في تلك اللحظات وهي تصغي بغير اهتمام لأمر مصير عائلتها، كانت قد وصلت الى قناعة أنَّ الصمت أنفع وأجدي من كلامها الذي سيتحول الى خلاف ينتهي بزعل جديد، والأمر لا يحتمل. مهدية أم جواد على

رغم ما تطوي في أعماق نفسها من كرهٍ لسعيد الا أنها مؤمنة أن له قلبا عطوفا على أولاد أخيه، ذلك الشعور الذي كان يأتي مراراً في الأزمات، هذا عدا الرعاية الخاصة التي يوليها لأجود.

كان يحث الخطى نحو صلاة الفجر، دخل المسجد وإذا بالقريبة كلها في صلاة وذكر، وإذا بصوت يأتيه من الخلف يقطر تقوى:

-أخ أجود، لمَ التأخر عن الصلاة؟ لم يتبق على صلاة الفجر الا دقائق خمس!

فاستدار نحو ذلك الصوت المؤلف قائلاً:

-خمس دقائق، أي ما زال الوقت مبكراً.

فدهش لما رأى صاحب الصوت!

-يا أخي، أنسيت السنة القبلية؟ وهل في هذه الدقائق القلال ستلحق أن تصلي السنة بذاك الخشوع المنشود وهما خير من الدنيا وما فيها؟

فقال أجود ذاهلاً:

-تحسين! أنى لك هذه التقوى؟

فتقدم نحوه وقال بصوتٍ خفيض:

-اسكت هداك الله، فإنَّ أبا قتادة قد حذرني، إن لم أصل فيغلق المحل ويرميني في السجن.

-ومن أبو قتادة هذا؟

-هذا الذي اعتقلك تلا البيان علينا، وعلمت أنه معاون الأمير

أبي عبد الله النجدي.

وبينما هما يتابعان كلامهما جاءهم صوت مألوف آخر:

-يا أخوان، المسجد مخصص للعبادة والتلاوة والطاعة، لا الكلام، اتقيا الله وتعوذا من الشيطان.

فقالا بصوت واحد وعيناهما تكاد تقتلع من محاجرهما
ذهولاً:

-أبو حازم!

فقال:

-استعجالاً، سيقم الصلاة!

رباه ماذا حصل؟ هل انقلبت الدنيا؟ أبو حازم الذي يأكل
الربا أضعافاً مضاعفة يأمرنا بالاستعجال؟ قبل فترة وجيزة
أقام الدنيا ولم يقعدّها لأن أسامة نصحه بالكف عن أكل
الربا، وها هو اليوم يأمرنا، يا دنيا لمّ القلب هذا؟ كيف غدا
الأوغاد أسياداً؟ أين العدل؟

ولم يكملّا عجبهما حتى رأيا ما هو أشدّ عجباً، علي! علي
ابن عمه سالم قادم يتهادى ببطء ويكاد يفر من خياله وجهه
قد ملئ رعباً، علي الذي لم يدخل مسجداً قط ولم يعلموا
الى ذلك اليوم هل هو مقيم للصلاة أم تارك، ها هو سيصلي
الفجر جماعة، كيف لا وأبو قتادة أعلن أن من لا يصلي يعتبر
مرتداً كافراً وسيقام عليه حكم المرتد ولن يدفن مع المسلمين؟
وأقيمت الصلاة، فأشار أبو قتادة للملا عمر أن يتقدم، وتقدم
الأخير بعد امتناع وإباء، وما أن قنت حتى رفع يديه داعياً:
اللهم انصر الدولة الاسلامية في كل مكان...

وكانت لهجته تقطر خشوعاً مبالغاً لدرجة بدأ نحيبه يطفى على صوته، ومن الناس من بكى معه بكاءً مرّاً!! ولم ينسوا أن يترحموا على شهداء الدولة الإسلامية.

خرج أجود ومعه أسامة وعلي، ثم التحق بهما أبو حازم، ودعا لهم بالبركة وأن يتقبل الله أعمالهم. فقال أبو حازم:

-يا شباب، بعد الدعاء في صلاة الفجر لا تمسحوا وجوهكم!

فقال أجود وكان أجراًهم في هذا الموقف:

-وهل في المسح اثم أو حرج؟

-بلى هناك اثم، واثم كبير، لم يرد فعلها عن النبي حتى تفعلها.

-تأدب وصلّ على النبي عندما تذكر اسمه، قبل أن تتحدث عن الحلال والحرام.

-صلى الله عليه وسلم. ولكن أليس من الأولى الإتيان؟

فقال أسامة بعد أن ضاق من ريائه:

-اتق الله يا أبا حازم، أنى لك هذه التقوى واتباع السنن وإقامة الفرائض والنوافل؟ الذي نعرفه عنك أنك أكل للربا وللسحت الحرام!

فقال مغاضباً:

-قد تاب الله عليّ إنه هو التواب الرحيم، وقد لطف الله بنا وبعث لنا دولة إسلامية ترشدنا لطريق الصواب..!

-ولكن التقوى لا تباع وتشترى وتقلب بين يوم وليلة الى ورع زاهد في الدنيا بعد أن كنت مكابراً تحارب الله ورسوله!

-احترم نفسك.

ومضى يذرع الطريق غضباناً. أما علي فمضى يسير وحده
 كأن الأمر لا يعنيه. فقال أجود: غريبة الدنيا... تخيل لك
 أحياناً أنها وفيّة تسير على نواميس محكمة ولكن سرعان ما
 تنجح الى فلك متلاطم أمواجه، عاتية رياحه، فتخونك خيانة
 نكراء، لدرجة أن تقف كما نقف الان يا أسامة، ونلعنها ونعزم
 الا نثق بها مجدداً ونتواثق على ذلك !..

فقال أسامة ضاحكاً: ألان حتى عرفت؟

فقال أجود له:

-قل لي واصدقني القول، أنت مع من؟

-أنا مع الحق.

-أيُّ حق؟

-لم يتبين الرشد من الغي بعد .

-ومتى يتبين؟

-لم أعرفك عجولاً الى هذا الحد!

-١٤-

(الجهاد أقصر طريق الى الجنة المنشودة، قد ترون فيه
 جحيماً، قد تخافون، وقد يبدو وعراً أوّل الأمر، ولكن اذا
 ذقتم لذته، ورفضتم الذل الذي تعيشونه تحت ظل الطغاة
 الكفرة علمتم غاية الدولة الاسلامية، الدولة الاسلامية أيها
 الأخوة جاءت لإنقاذكم، للوذ الدهماء عنكم، كي تكونوا مؤمنين
 حقاً، ولا سبيل الى الحرية الا بالجهاد، أول السلم هو الحرب،
 ولولا تطاير الرؤوس الكافرة ما قامت دولة مؤمنة، نحن الان
 في صراع دائم، العالم مقسوم، بقاء وفناء، والبقاء للأقوى،

ولكن قد شاهدتم ما في مسلمي اليوم وحكامهم من جبن وخنوع وخضوع للغرب الكافر، حتى غدت الأمة الإسلامية أمة متخلفة جبانة، وأنتم يا أهل العراق، أصل العرب ومادته الأولى ومهد الدولة، أنتم تعانون من ضنك وشظف.. نحن جئنا لتحريركم، يحز في نفوسنا ما نسمع من ظلم وحصار وجوع ودمار، وتصفية عرقية طائفية من قبل كفر مجرمين، نحن جئنا لننقذكم.. والا ما الذي يدعوني للقدوم من ليبيا الى هنا عبر رحلة طويلة؟ إنه الجهاد أيها الأخوة الذي تقاعستم وتكاسلتم عنه، فأذلكم الله أيما اذلال، وسلط عليكم هؤلاء.. فالجهاد الجهاد)

هكذا أكمل (طلحة) ذلك الشاب الذي لم يتخطَ الثانية والعشرين بعد كلامه لتحسين وأسامه، كان طلحة هذا فارع الطول، لم تكتمل لحيته بعد ولكن كلامه ينم عن رجولة مبكرة شابتها أفكار أودت به الى هنا، هو يرى نفسه قد أحسن صنعا، كان يتألم وهو يرى حال العراق تحت القصف الأمريكي، وكم تألم وهو صغير وهو يشاهد القتلى والجرحى، كان يشعر بالذعر، يخرج الى فناء المنزل ليلا في برد يناير القارص، يفضل سكون الليل القارص على تلك المشاهد، ومنذ ذلك اليوم وهو يحلم أن يأخذ بندقية وينازل أولئك الذين يقتلون المؤمنين. العراق كان يعني له أشياء كثيرة، فأبوه الذي لم يره عراقي كما قالت له أمه، فهو يشعر بالجدور تحز في صدره عن ما يعانيه موطنه الأول.

-ماما، هؤلاء الأطفال عندما يموت آباؤهم أين يذهبون؟

هكذا فاجأ طلحة أمه ذات يوم، شعرت بالرعب، كيف تجيبه؟ هي الأخرى كانت لا تقل عنه فضولا لمصير أولئك الأطفال،

هي تسمع أن العراق خراب، كله قتل وسفك، بل تظن أنهم في صراع باق لا أوار له. بدأ طلحة حياته يتيماً، هكذا فتح عينيه وإذا به وحيداً مع أمه، كانت الحجة الأولى لاختفاء والده أنه مسافر، أبوه الذي التحق بتنظيم القاعدة في أفغانستان منذ وقت مبكر، أم طلحة لا تعلم أن زوجها يميل نحو الجماعات المقاتلة. الجهاد، القتال، أمريكا، مصطلحات لم تكن تعلم عنها شيئاً، زوجها كان حاذقاً بهذه المصطلحات، عارفاً بدهاليزها، بل كان يجمع الكثير من الشباب في بيته، ويقرأ لهم بعض الكتيبات، كذلك وجدت عنه تسجيلات كثيرة عن الجهاد ومفهومه. لم تسأله يوماً: ما الذي جاء بك من العراق الى هنا؟ قالوا لها أنه ضابط عراقي متهم بمحاولة انقلاب فاشلة ضد صدام مع مجموعة من الضباط، وقالوا هو جاسوس عراقي في التنظيمات المسلحة المتطرفة، ولا أحد يعلم حقيقته.

-انا راحل.

-الى أين تذهب وتتركني، أنا حامل، هل نسيت؟

-لم أنس، ولكن أنا ذاهب فداءً لهذا الدين. الموت في سبيل الله أمنيته وغايتي.

-والحياة في سبيل الله أليست أجدى نفعاً؟

-كيف تقولين هذا يا امرأة؟

-فقالته باستسلام وانكسار:

-لا ترحل وتتركننا؟

-كوني شجاعة وباسلة، وقولي لابننا أن أباك كان شجاعاً ورحل في سبيل الله!

تركهما في خضم الحياة الهادرة لا يجدون شيئاً يقتاتون منه، عملت آنذاك خادمة في البيوت، تجني بعض الصدقات، أمه كانت طيبة وساذجة في نفس الوقت، لا تستطيع الكذب ولو كلفها ذلك عمرها، فما أن نشأ ووعى حتى حكى له سيرة أبيه، وعن خروجه وجهاده، ومنذ ذلك الوقت وطلحة يحلم أن يكون كابيه، مجاهداً في أفغانستان أو العراق أو أي بلاد تدعوه للجهاد، وقد رأى الفرصة مواتية قبل عامين، رأى الوقت قد حان لتنفيذ الواجب المقدس، لطالما حكى له أمه عن أبيه ورحلته في سبيل الجهاد ولم يعد، لم تحاول أن تردع طلحة عن الرحيل أو تحرضه على البقاء والحياة في سبيل الله، لأنه ببساطة لم يقل لها أنه ذاهب للجهاد.

-تركيا؟ وهل بلادنا ضاقت ولم يبقَ مكان للعمل الا تركيا؟

-أماه فرصة مناسبة، هناك البلاد أوسع وأرحب، وسينتظرنني صديقي الذي وجد لي عملاً في شركة تجارية براتب معقول بل ومغبر، وفي العام القادم أكمل الكلية هناك بعد أن أتكّن التركية.

-ومن هذا الصديق؟

-تعرفت عليه عبر الفيس بوك.

فقالت مدارية هلها بسخرية بدت باهتة وغير لاثقة عليها:

-فيس بوك!! ومن هذا الصديق العظيم الذي وجد لك مأوى وعملاً ولم يعرفك أصلاً الا في الفيس بوك؟!

-صديقي منذ أمد بعيد..

صحيح ما قاله طلحة لأمه من أن صديقاً ينتظره في تركيا، ولكن لن يعمل هناك، ولن يدرس الكلية هناك بعد سنة، بل

سيُتوجه الى الرقة السورية، عاصمة الخلافة المزعومة، ويبيع خليفته على السمع والطاعة في المنشط والمكرب. وسافر طلحة غير عابئ بدموع أمه الساجمة، تساءلت أمه: لم على النساء أن يتحملن دوما ما لا تتحمله صناديد الرجال؟ الموت في ساحات القتال يأتي مرة واحدة، قد يأتي فجأة وأنت تأكل أو تضحك أو حتى تمرح، دون أن تشعر بالآلام أو حشرات، هو أهون من ساعات الانتظار القاتلة.

- كم انتظرتُ أباك ولم يعد، فهل ستجعلني أنتظرك أنت الآخر؟

- لن يطول، وهو انتظار بسيط، عمل ودراسة.

ورحل طلحة وانقطع خبره، الى أن وصل تسجيل لأبن خالته على بريده وطلب منه أن يسمعه لأمه:

(أماه، السلام عليكم، أنا الان في تركيا، عندما تسمعين هذا الصوت سأكون في الرقة، عاصمة الخلافة الإسلامية، حيث الجهاد على سنة ابي رحمه الله، سامحيني، أنا لا يمكن أن أعيش والخطر محقق في أمة الاسلام من كل جانب، ادعي لي، لن أعود يا أمي حتى يعود مجد الأمة أو أموت دون ذلك.)

فاحتار ابن خالته ماذا يفعل، فوجد من الأنسب أن لا يخبر أمه، وأن الأنسب أن يجعلها قيد الانتظار!

ولكن ما وجده طلحة في الرقة لا يصدق.. وجد أباه!! لم يجده ساذجاً طيباً بسيطاً كما تخيله وكما حكى له أمه، وجده حاذقاً حصيماً متمرساً في القتال وفوق ذاك مقرباً من الخليفة، ذلك الرجل كان أبو عبد الله النجدي، قائد الجيش

الذي سيغزو العراق والمرشح لولاية العراق!



دخل أجود دكان تحسين فرأى طلحة وتحسين وأسامة يستمعون إليه بشغف، فسلم، ثم طلب كيساً من الشاي. فقال أسامة:

-اجلس يا أجود معنا هنا واستمع الى حديث أخينا طلحة.
فقال أجود:

-غير متفرغ للاستماع، عندي عمل.
فقال طلحة:

-يا أخي، كل عمل الى زوال، الا ما كان في جنب الله وفي سبيل الله، أما هذه الدنيا ف الى فناء، استمع مني، لعل الله يهديك.

-الله هداني الى الاسلام، وأنا مسلم وطالب علم، وأعرف ما لا تعرفه، ولا أحتاج الى معرفتك.
فقال طلحة بعد برهة من سكوت أثر صدمته من كلمة أجود الجريئة:

-معرفتك واضحة، أنتم خير من فيكم هو عبارة عن مبتدع..
تعبدون قبوراً من دون الله وتشركون به.
-كفرتنا بهذه السرعة، لله در علمك!

أخذ الكيس وخرج، بينما تلافى أسامة الموقف قائلاً:
-اعذره يا طلحة فإنهم في محنة، أخوهم ذهب ولم يعد،
وأنتم من أول يوم شحطتموه وحققتم معه.

-وماذا نفعل اذا كان أخوه كافراً؟

-نسأل الله له الهداية، الدعوة الى الله كما تعلم يا أخي
تحتاج الى ترو وتأن، والنبي صلى الله عليه وسلم صبر على
كفار قريش لما آذوه، حتى يؤمنوا، فاصبر يا أخي عليه. وأجود
شاب فاهم ومتقف.

-سأعتبر نفسي لم أسمع شيئاً، لأجلك فقط يا أسامة.

-فقال أسامة باسمًا :

-بارك الله فيك.

-١٥-

منذ تلك الليلة ودنيا مهدية قد احلولكت واسودت. ما
معنى أن تستمر في عراق خاو وابنها لا يُعلم مصيره؟ تلك
الخلافات رأتها أمام فقد ولدها ضرب من البطر الذي ولى
زمنه، ما فائدة أن تداعي بمال زوجها وقد غاب ولدها، فقد
الولد يحتاج الى توجع لائق، أن تصب كل الحسرات والدموع
له وحده، لم تعد تبالين من سيحكمهم، دولة أم عصابة، كان
كل شيء قد خفت ولم يعد له معنى، ثم تذكرت حكاية علي،
وكيف عاد وانقلبت القرية الى افراح، علي عباس الذي عاد
من فم الموت وصارت قصة عودته حكاية تروى بكثير من
التهويل، هي لم تشهدها، ولكن سمعتها حقيقة منه، وسمعت
ما لفق عليها من تهويل واساطير من أهل القرية ومن أمه،
ومنه أحيانا آخر، قريتنا تلحقها علامة، تكاد تكون سمة
تعرف بها، الا وهي الحكايات الأسطورية التي تروى عنها،
فلما اتسعت الأرض وكثر الخلق في تلك المناطق وما حولها

طار الرواة يحملون تلك الحكايات شرقاً وغرباً، منذ عهد عباس وقصة هروبه من سامراء الى أن رقد في أرض أبي حمديّة الى علي، وحكاية علي الأكثر شهرة وقرباً لمهديّة، ما جعلها تشبه جواد بعلي أبيه.



كان يوماً حزيناً لم ترَ القرية مثله، مات عباس غمّاً وهمّاً لموت ابنه، وكان مما ضاعف ألم ذويهما ومحبيهما أن عليّاً أو تلك الجثة التي نسبوها له — كان مشوهاً تماماً، لا يستطيع المرء أن يميز أعلاه من أسفله، ولما نظرت حمديّة لجثته: صرخت قائلة: ليس هو، هذا ليس ابني .. ليس ابني.

ولكن الناس اعتبروا ذلك جنوناً لأن الجثة مشوهة، حتى أنها كانت تقول أيام العزاء: علي لم يمت، الذي مات عباس فحسب، لا تقولوا علي مات، عزوني في أبيه عباس فحسب. الناس ظنّت أن حمديّة قد جُنّت. ومن يراها آنذاك يوقن بجنونها. كانت تقول بحنو:

- قلبي يحدثني أنه على قيد الحياة، وقلب الأم لا يكذب.

فيقول لها سالم بعطفٍ:

- وهل قلب الأم يبعث الولد من أجدائه؟

فتقول له بإصرار طفولي وعناد مشبوب بيبكاء وصراخ:

- اخوك علي لم يمت يا سالم، لا تقل إنه مات..

فيحتضنها بقوة ويقول بصوت قوي يشبه صوت جبريل وهو يحتضن محمد ويقول له اقرأ:

- علي مات يا أمي... مات.

لم تكن فكرة تقبل الموت سهلة يسيرة، ولم تكن حمدية تلك المرأة التي تتقبل تلك الفكرة، بل بقيت معاندة مكابرة، حتى أن الناس تركوها تنتظره أو تركوها مستسلمة للجنون! وما هي إلا أشهر قلل حتى عادت الأفراح لتضيء القرية الحزينة، إذ صحت ذات يوم على صوت المنادي:

(لقد عاد علي).

وإذا بشبح رجلٍ هزيلٍ موغل في الهزل، اشاروا، اشاروا اليه: هذا علي.

كثيرون أنكروا أن يكون علياً هذا الرجل الهزيل الذي عاد من الموت، لم يستطع حتى الكلام لأيام، ولكن الذي عرفوه أن علياً لم يعد تام العقل، لكثرة ما رأى من أهوال تشيب له الولدان، ومن تلك الرصاصة التي أصابته. كان قريباً من الموت ولكنه لم يمت، كان يقف أمام سيل الرصاص، عندما أصابته تلك الرصاصة وصاح: آه. وبدأ يشخب دما نجده خليله ورفيقه، وأحتضنه ليتلقى هو الرصاص بدلا عنه، وما أن سقطا حتى رأى الفرصة مواتية للهرب، فنزع القلادة التي فيها هويته واسمه، ووضعها في رقبه صديقه، وأخذ هوية صديقه وأخفاها، ثم هرب جريحا. ذلك الصديق هو (أبو جواد)، أبو جواد هذا لم يكن متزوجاً أو لديه ولد اسمه جواد، إنما كان يحلم أن يأتية ثلاثة أولاد فيسميهم: (جواد، وأجود، وجودت)، وكان لتلك الأسماء معنى في نفسه وفي تاريخ عائلته، فلما عاد علي وتزوج سمى أولاده على اسمه تخليداً لذكراه.

علي بعد ذلك عاش والناس تظنه غارقاً في سذاجته، وهو كان يرى ذلك رافةً وطنية، كان يواجه العالم بصوته الخفيض، وخلق له الدمث، ولسانه الذي لا يكل من كثر الذكر والتسبيح.

ولكن الناس «أكلوه لحمًا ورموه عظمًا» كما تقول مهدية، استغلوه أبشع الاستغلال، فكان إذا جمع شيئًا من المال طالبته حمديّة به، وهو يعطيه عن يد وهو صاغر ساكت، وإن اعترضت مهدية، أو دخلت عليها شاكّية إليها منها ما تفعل به، وأن عليًا قد غدا مفلسًا، تقول حمديّة بحزم:

-أنا الذي ربّيته وتعبت عليه، وبقيت أبكي الى أن ضعف نظري، ونحل جسدي، واحدودب ظهري، ثم تأتين أنتِ وتريدين أخذه مني؟ لا تحلمين بذلك.

فتقول بتوسل:

-يا عمة، أنا لا أسرقه، ولكن كل عمله في الأرض لكم، سعيد يأخذ المحصول بثمان بخس، وأنت تأخذين ذلك الثمن الا قليلا، أليس هو ابنك أيضاً، وله حق في ملك أبيه، بل هو أكبرهم.

-ولكن عليًا رحل الى الحرب ولم يعمل كما عمل أخواه، بل حتى عندما عاد، عاد معلولا لا يقوى على شيء، وأنا وأخواه زوجناه ورعينا أولادك، لا تحسبي أن لكم كما لإخوته، الكل يعلم أن عليا صحته ليست على ما يرام، أي ما هي الا سنون معدودة ويقعد عندك في البيت، من أين ستصرفين على عيالك؟ من الدراهم المعدودة التي أخذها أنا منها. يا بنت، أنا لن أترككم مهما ضاق بكم الحال، فلا تبقين هكذا، بكاءة شكاءة وتحرضين الأخ على أخيه.

ولكن حمديّة التي كانت تظن أن عليًا سيموت، وأيامه قليلة، وكانت تحمل هم عياله ماتت وعلي ما زال يعمل في أرضه، لكن عليًا بقي يفعل كما كان يفعل في حياة أمه، يبيع محصوله لأخيه بثمان بخس، واستمر العراك بين مهدية وسعيد، الى أن

كبر ابناؤها، وسجل كبيرهم (جواد) في الجيش العراقي، وكان جواد هذا أسمر مفتول العضل فارغ الطول، يتطاير الشر من عينيه إذا غضب، وما أن تمرس في الجيش وزادته البندقية صرامة وشدة حتى وقف جنب أمه بكل صلابه، وكان لجواد مقام سام بقلب أبيه، فبعد أن التحق بالجيش وقبض راتباً مجزياً وقدره مليون وثلاثمائة ألف دينار تحسنت معيشتهم، بدل تلك الأموال القليلة التي تبقى لهم من محصول الزراعة أو التي تدفعها لهم حمديّة بعد وتعهده مئة منها وفضلاً، بل صار هو ربّ الاسرة، وكثيراً ما وقف بوجه عمه سعيد وقد يصرخ به، وسعيد لم ينسَ ذلك اليوم بل بقي محفوراً في ذاكرته، عندما تصايح سعيد مع مهديّة، وخرج مغاضباً الى معرضه، وعاد جواد الى البيت ليجد مهديّة وبتول في نوبة بكاء، ولما علم أن السبب عمه سعيد خرج مسرعاً وانطلق الى المعرض مع رفاقه المنتسبين في الجيش وبسيارة عسكرية، ونزلوا شاكين السلاح، فتقدم جواد نحو عمه سعيد الذي كان غارقاً وسط الزبائن في التعامل حول بيع سيارة، فمسكه وازال عقاله وأضجعه أمام التجار والشارين، وسحب بندقيته ووضعها على رأس عمه، وقال بصوت هز أرجاء المكان: لم يلد بعد من يصرخ بوجه أم جواد ويكيها، قسماً برب السماء سأذكّك معرضك هذا على رأسك، وسأجعلك اضحوكة ونكتة تتناقلها وترويها الناس!

ثم أشار الى الجنود الذين معه وكسروا بأسفل البندقية زجاج كل سيارات المعرض وخرجوا تاركين سعيداً غارقاً في خجله وحيائه من هذه الفضيحة المذوية. تلك الحادثة توجت مهديّة بالنصر بتاريخ ذلك العداء الطويل الذي كانت الغلبة دوماً لسعيد وأمه، ولكن الأيام حبلت بما قلب الموازين.

وتلك الأفعال المنطلقة من بعض الجنود كما فعل جواد مع عمه كانت تمهيد لعداء طويل وشق واسع بين الجيش والأهالي، بل كانت مقدمة لقبول فكرة الدولة البديلة المنقذة من هذا الاضطهاد وما يحمل بين طياته من قسوة وشدة، تلك الافعال التي تسير بقانون الغاب، ولعل هذا أحد الاسباب المجهولة التي دفعت الأهالي للقعود اثناء دخول التنظيم الى تكريت والموصل من قبل، ولكنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

والآن قد رحل جواد ولا يُعرف مصيره، وأجود مداهن لعمه طامع في مصاهرته، ومهدية أيقنت أن لا فائدة من العداء المستمر، ولكن الذي تؤمن به أن جواداً لم يمّت، ولم تنته حكايته بهذه الصورة العجلى، لم يتزوج بعد، ولم ينجب أطفالاً رائعين كما يتمنى، والأهم لم يخلصهم من عمهم سعيد وبيتعد عنه نهائياً كما وعدها سابقاً، هل الأقدار تأبى الا الدوام لهذا الخلاف؟ الان تتمنى حمدية لو تخرج .. تهرب .. وحدها هي وبنوها تاركين الأرض والبيت لسعيد، بل لن يطالبوه بشيء، ليتها فعلت من قبل. الان تتساءل: إن كان جواد على قيد الحياة هل يستطيع الفرار من داعش؟ هو بين نارين، أهونها فرار لا عودة بعده الى هذه الأرض.

هي لا تقبل فكرة الموت، هي تريد الاقتداء بحمدية، لعل الاقدار تعيد نفسها، ألم يقولوا أن التاريخ يعيد نفسه؟ أليس من الأولى أن تعيد الأقدار نفسها؟

سأل سعيدٌ طلحةً بعد أن أخبره الأخير أن يجمع كلَّ أهل
القرية في المسجد عند الصلاة
-ستعلمون ذلك في الاجتماع.

وما ان انفتل أبو قتادة من الصلاة حتى انتصب قائماً يشمخ
برأسه، وينظر الى الحضور باستعلاء، وكان الحضور كل أهل
القرية.

فقال: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد
الأمين وعلى اله وصحبه أجمعين، وبعد: فهذا بيان من الناطق
باسم الدولة الاسلامية في العراق والشام، واليكموه:

قررت الدولة الاسلامية اعلان الخلافة الاسلامية وتنصيب
خليفة للمسلمين ومبايعة الشيخ المجاهد عبد الله ابراهيم بن
عواد بن ابراهيم البدري القرشي الهاشمي الحسيني نسباً،
السامرائي مولداً ومنشأً، البغدادي طلباً للعلم وسكناً، وقد
قبل البيعة، وقد صار بذلك إماماً وخليفةً للمسلمين في كل
مكان، وعليه يُلغى اسم العراق والشام من مسمى الدولة
في التداولات والمعاملات الرسمية ويقتصر على اسم الدولة
الاسلامية ابتداءً من صدور هذا البيان.

وقد تم إزالة الحدود بين العراق والشام، لتكون دولة واحدة،
فما بعد ازالة هذه الحدود، حدود الذل وكسر هذا الصنم
صنم الوطنية وبقاء خلافة على منهاج النبوة.

ثم قام الناس كلهم متتابعون للبيعة، يقوم الواحد منهم
فيصافح أبا قتادة قائلاً: كما علمهم طلحة: أبايع أمير
المؤمنين أبي بكر البغدادي على السمع والطاعة في المنشط
والمكرب، وعليَّ عهد الله ورسوله والمؤمنين.

تلك البيعة التي نطق بها أهل القرية لم يكونوا ليعلموا معناها أو مغزاها الا أجود ورفاقه، فقد عرفوا أنَّ الخطرَ محقق، وأن الخلافة قد اتجهت الى اتجاه آخر، عداء لكل الدول، والخليفة يخرج على التلفاز علنا في الموصل ومسجدها الكبير ويقولها: أطيعوني ما أطعت الله فيكم.

-إن أمير المؤمنين أبا بكر البغدادي بخطبته هذه أعلن أن للدولة الاسلامية كيانٌ ومنهج؛ حيث قال: (كتاب يهدي وسيف ينصر)، الدولة الإسلامية لم تعد جماعة متطرفة كما يصفها الكفرة الفجرة، إنما دولة تحكم بشرع الله، وقریباً بإذن الله ستتقل الخلافة من الرقة الى بغداد الرشيد..

هكذا قال طلحة لتحسين وأسامة وأجود، فقد انضم طلحة اليهم والى مجلسهم، وعلي قد اعتزل هذا المجلس، وقال إنه تفرغ للقراءة، حاول طلحة أن يحرض أسامة وأجود لجذبه لمجلسهم، ولكنه أبى بشدة، وربما لم يكن صادقاً في تفرغه وعزله للقراءة، إنما هو الخوف الذي يسيطر عليه، أما أسامة فقد رأى طلحة ليس ممن يخشى شره، وهو الذي انضم لهم.

-بغداد!!

قال اسامة بعد أن رأى طلحة قد شطح بخياله الجامح.

فقال طلحة وهو يعرف أن أسامة له ميول نحوهم عكس أجود:

-أي، بغداد، لم يبقَ الا القليل وعاصمة المرتدين الكافرين تسقط بين أيدينا، ستعود يا أسامة الخلافة الى بغداد، بغداد الرشيد، وتطلق الجيوش منها فاتحة عنوة وجبراً، لتتخذ

الانسان وتحرره، هذه الفكرة تستولي على والينا وخليفتنا، العراق يا شباب هو أرض الخلافة الحقيقية، في العراق ستقام دولة مترامية الأطراف، لا تكاد تحدها حدود أو تجمعها راية، كلما كبرت راية الدولة راية النور والعدل والقرآن اتسعت العدالة لتحقيق ما اراده الله من خلقه، الاستخلاف في الارض الذي يريده الله هو خلافة الدولة الإسلامية، وهي باقية وتتمدد، نحن سنغزو العالم، قد يبدو كلامي هذا ساذجاً، أو محض خيال جامح، أو غرور فتى منتصر، أو فتوة، أو لعل قائلًا يقول: ما لك تعدهم وتمنيهم وأنت لا تملك الا شطراً من العراق والشام؟ أقول لكم عودوا الى تاريخ أمتكم، عودوا الى مجدكم التليد، ألم يكن رجلاً واحداً معه فتى ورجل وامرأة وعبد؟ وحدهم بثلاثة عقود جعلوها أمة كاملة يعمها السلام والرخاء والسودد، فما لكم عندما انطلقنا من نفس تلك المفاهيم وتلك الأفكار ضقتم بنا ذرعاً وحسبتمونا مبتدعين مجرمين؟ هل ركنتم الى الحياة الدنيا؟!

فقال أجود:

-لكن محمداً (صلى الله عليه وسلم) وصحبه لم يكونوا يذرعون الوسائل والمناهج التي تتخذوها، لم يكونوا يقتلون بالشبهة، لم يكن محمداً يكفر العالم كما تكفرون، بدأها بدعوة سلمية، يقول لهم: قل لا اله الا الله تسلم، ولم يشهر سيفاً قبل أن يعذب ويضرب في سبيل الله، بل أكثر من هذا يا طلحة، اسمع الى هذا الخبر الذي ترويه كتب السنة ومنها البخاري، أن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال،

فلم يجبي الى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فنادني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، إن شئت أن اطبق عليه الأخشبين لفعلت __ الأخشبان جبلا مكة __ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده ولا يشرك به شيئا). أرايت يا طلحة رأفة النبي؟ أرايت ليونته؟ وهل يكون الا كذلك من قال له ربه: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ)، لِن يا طلحة، هذا الدين لين، لا السلاح والقتل المريع..

فقال طلحة بعد صمت وهو يسمع كلام أجود صمت الأموات:

-ولكنهم كفره!

-وكيف تقول انهم كفره؟ هل شققت على صدرهم؟

-ماذا تقول أنت يا أجود؟ انظر الى حال الأمة الاسلامية، انظر التدهور، انظر الى الخيانات، انظر لتعاون حكام البلاد الإسلامية مع الكفرة، امريكا واسرائيل وروسيا وفرنسا، هل يجيز الاسلام هذا التعامل.

-أجل.

-ماذا تقول؟ والله يقول (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء).

فقال أجود باسم:

-هل سمعت بصلح الحديبية؟

فقال بعد تردد:

-نعم.

-هل تعلم أن النبي صلوات ربي وسلامه عليه قد تصالح مع الكفار وتعاهد على أن يرجعوا هذا العام (عام الحديبية ٦هـ) ويعودوا في العام القادم محرمين لاداء العمرة ولكن بلا سلاح.

فقال طلحة متعجباً:

-النبي فعل هذا؟!

فقال أجود:

-بل سأزيدك علماً، طبق النبي صلى الله عليه وسلم ما أملتة قريش من شروط جنحاً الى السلم ورأباً للصديق وفتحاً للسلم ومغلاقاً للحرب.

-بل تنازل عن أمور تعتبر من هيبة الدولة، عندما أمر علياً أن يكتب: هذا ما تعاهد عليه رسول الله .. فقالت مبعوث قريش: لو كنا نشهد أنك رسول الله ما قاتلناك. فأمر علياً أن يكتب: محمد بن عبد الله فحسب، سيدنا عمر اعترض، ورأى ذلك هزيمة وانكسار، ولكن الرسول كان بحكمته تجاوز عجلة عمر، فكان فتحاً، وهي التي انزل الله فيها (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً). يا طلحة، إن هذا الدين يسير فلا تعسروه، سهل فلا تصعبوه.

بصوت الناي شجياً، يقطر ألماً وحزناً. علي مكروب محزون،
يبث شكواه عن طريق الناي، لم يبقَ له متفسا الا كتبه ونايه،
وهما منفذ الحرية الوحيد وسط صخب العالم، صرخة علي
الوحيدة وسط عالم السدود والحدود الذي يقطن فيه، لقد
ضاق العالم وصغر، وانحصر في هذه القرية.

-لم يبقَ الا الناي يا علي.

فالتفت علي نحوه، وقال وقد فتر ثغره عن بسمة فاترة:

-لو تعلم يا أجود ما في الناي من راحة لي؟ هو حرية، هو
روح، ملاذ نلوذ به من صخبهم وصراعهم، للناي أنين وأنا
أنفث فيه فينطلق صداً في أرجاء القرية، هو صفة في
وجه هذا العالم المتصارع، ألم تسمع وتقرأ قصيدة مولانا
الرومي (أنين الناي):

«أنصت الى الناي يحكي حكايته..

ومن ألم الفراق ييبث شكايته:

مذ قطعت من الغاب، والرجال

والنساء لأنيني يكون

أريد صدرًا مزقًا مزقًا برّحه الفراق

لأبوح له بألم الاشتياق..

فكل من قطع عن أصله

دائمًا يحن الى زمان وصله..

وهكذا غدوت مطربًا في المحافل

أشدو للسعداء وأنوح للبائسين

وكل يظن أنني له رفيق

ولكن أياً منهم (السعداء والبائسين) لم

يدرك حقيقة ما أنا فيه»

-قد غدوت صوفيًا يا علي.

-كلُّ واحدٍ منا صوفي من جهة ما .

-لم اعلم أنك صوفي على قربي منك.

-كيف تفهم التصوف؟ لعلك كعامتهم تظنه سبحة ودروشة وتكايًا؟ التصوف أعظم من هذا، بل إن علي عزت بيجوفيتش يرى أن خلوات الرسول الأعظم في غار حراء نوع من التصوف والخلوة الصوفية، إذن التصوف تأمل، معراج بالروح من هذا العالم الموحد بالخطايا، المسربل بالصراع والعراك، الى عالم أسمى وأعلى، حيث لا ذنوب ولا خطايا ولا صخب، هناك ستستريح الروح وترقد آمنة مطمئنة، أنا لا أثبت شكواي في الناي عبثًا، انما شكوى..

فقاطعه علي قائلاً:

-شكوى ولكن لا تحاسب عليها.

-بالضبط. هنا كل شيء عليه حساب وكتاب، وكأن الجماعة هؤلاء يريدون أن يحاسبونا قبل يوم الحساب!

-يرون أنفسهم خلفاء الله على الأرض، فكل ما يقومون به هو نيابة عن الله، اذن يفعلون ما يفعل الله!

-محض هراء، هم يهرفون بما لا يعرفون، صدقني لو أن نصفهم أو أقل منهم عرفوا الغزالي وابن تيمية وسيد قطب حق المعرفة ما فعلوا نصف الذي يفعلونه. هم لا يعرفون الا

ما يمليه عليهم امراؤهم، طاعة عمياء.

-الان قل لي، لماذا أنت مختفٍ؟

-أين اذهب؟

-دكان تحسين، لم نعد نراك هناك.

-دكان تحسين! ألا ترى ذلك الداعشي الفضولي الذي يجلس؟

-طلحة؟

-أجل.

-طلحة متفهم، ليس مثلهم، يأخذ ويردّ، ويشدو شيئاً من العلم، ومع هذا صاحب مكر ودهاء.

-ماذا فعل؟

فقال أجود بحزن:

-أسامة، أظنه قد جُرف معهم!

-كنت أتوقع ذلك، وكذلك أبوه كان يتوقع.

-الكثير من القرية انضموا إليهم.

-مثل من؟

-أبو حازم!

-أبو حازم!!

-أجل، صار يحمل بندقية، وطالت لحيته وحف شاربه، وصار كأنه منهم.

-اللعين.

-هل تعلم يا علي أن كل من لا يُعرف أصله، أو مشكوك بأمه،
أو لا يتبع الدين قدر أصبح قبل أن تأتي الدولة الإسلامية
صار من رجالها المقدمين؟

فضحك علي ضحكة مجلجلة على غير عادته، إذ الحديث
عن مساوئ داعش كان ينفس كربه، ويريح شيئاً من لوعته.
وأخرج علبة السكائر وقدم لأجواد. فقال الأخير:

-أتعرف أنني لا أدخن.

فقال ضاحكاً:

-أتراه حراماً؟ ردعتك داعش يا أجود وأنت من أنت فينا؟

-ولكنك تعلم أنني لا أدخن أصلاً قبل أن تأتي الدولة،
سيحاسبونك يا علي إن علموا أنك تمتلك السكائر.
فقال بلا مبالاة:

-طز! وبعد هذا الذي نحن فيه ماذا يريدون؟

-صحيح، أنى لك هذه السكائر؟

-من تحسين طبعاً.

-تحسين! الدواعش يسرحون ويمرحون عنده ويبيع السكائر؟
ويله إن علموا.

-لا تخف، فتحسين يحب المال، ولن يردعه مثل هؤلاء.

-لن يردعه؟ ليتك شاهدته بعد أن خرج منه أبو قتادة، كان
مذعوراً هلعاً. صحيح ألا تخاف من أن يقتحموا عليك البيت
ويجدوا هذه الكتب؟

فقال هازئاً:

-الكتب؟ ها ها ها... آخر شيء ممكن تتوقعه من هؤلاء الهمج الهامج أن يفقهوا شيئاً في الكتب، هذه الأمور يا صديقي لي ولأمثالك لا لهم، نحن أمام وحوش، لم تعرف شيئاً أو تتعلم، لا، همهم الدمار، السلطة، أما الانسان والإسلام فهما آخر ما يفكرون به، بل هي مطية يمتطونها للوصول الى مآرب وأغراض ينشدونها، هذا الحلم، الخلافة، الدولة الاسلامية التي تعيد أيامنا الأول قديم جداً، بعد سقوط الخلافة العثمانية بسنين قلال ظهر حسن البنا وأسس الاخوان، ولو سألت أدنى أخواني عن حلم البنا آنذاك لقال لك: الخلافة. بل لعلني لا أبالغ ن قلت لك أن حسن البنا من خلال ما يصفوه لنا من دهاء ومصابرة وما يمتلك من مواهب ربانية كالخطابة، ومع ذلك كله كان لديه حلم جامع، الى أن كون منهم جماعة كبيرة تثير الزوابع والقلق، حسن البنا بخياله الجامع كان يريد الخلافة ويكون هو على رأسها، اذن حلم الدولة الإسلامية كان موجوداً عنده، بل حلمه الشغفي، ألم يقل: الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة، وروحانية وعمل، ومصحف وسيف؟ هذا منهجه، ألا يخيل لك يا صديقي أن البنا أراد أن يطوي تحت لوائه كل الفرق والمذاهب؟

-هذا لا يعني أن البنا مهد للدولة الاسلامية.

-بلى.

-لكن الدولة الاسلامية من أعداء الاخوان، بل حتى تنظيم القاعدة.

-أعداء في الظاهر، أما الفكرة فواحدة، الفكرة التي ظهرت على يد داعش أشد تطرفاً، لا تحسب أن داعش وليدة اليوم، أو عقد مضى، بل هي خلاصة حلم الخلافة المنشود، منذ معاهدة لوزان الى الآن، هي النموذج الأكثر نضوجاً وظهوراً.

-يا ابن عمي لا تشطح كثيراً، ارى هذه الكتب قد جنتك، ولم يعد بك عقل، أنت تخلط الأوراق خلطاً عجيباً، بل يدعو أحياناً الى الضحك، تتداخل فيه السذاجة، والغضب، والحقدهم، مما جعلك تطلق الفاظاً عبارة عن خليط غريب.

-وهذا الذي تسميه خليطاً هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه.

-دع عنك هذا الكلام وقم وخبئ هذه الكتب.

كانت الكتب عبارة عن أكوام مكدسة في كل أنحاء الغرفة، أنواع متنوعة بين كتب الفكر والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع، وكانت الكتب الموضوعية قريبة منه وفيها إشارات وتهميشات من خلال قراءته: أصل الأنواع لداروين، وكتابان للفيلسوف الألماني هيغل، هذي هي الأغلال لعبد الله القصيمي، وهرطقات لجورج طراييشي، اضافة الى كتب مكتوبة بالانجليزية، مثل : وهم الإله، نهاية الايمان، الإله ليس عظيمًا، ثورة ضد الاله، نفي اللاهوت. وبينما بدأ أجود يجمع هذه العناوين ليأخذها ويتصرف بها هو حسب قوله، وإذا بالباب يدق دقاً أقل ما يقال أنه عنيف، زوبعة وجلبية، حراك وصياح، فقال أجود: كبسة!!

ولم يلحق أن يتم كلمته وإذا بأبي قتادة ورجاله يقتحمون عليهما الغرفة، كان منظر أجود في تلك الحالة غريباً؛ يحمل بين يديه أكداساً من الكتب، وتعلوه علامات الذعر والفرع،

فقال أبو قتادة:

-ما هذه الكتب يا أجود؟

فقال بارتباك:

-كتب.. كتب أدب.

فقال ابو قتادة مرتباً:

-كتب أدب!! تعال لنرى ما هذا الأدب الذي تتذاكرونه في هذا الليل الهانئ..

فتبدل وجه أجود، وصار ينطق بالوان وتصاوير، وكان أبو قتادة يقرأ وجه أجود قبل عنوان الكتاب، فقال بهدوء:

-وهم الإله! نفي اللاهوت، هذي هي الاغلال!! أنت يا أجود كما يبدو أشدُّ كُفراً من أخيك العسكري، أكل هذه الكتب في دولة الخلافة؟ وأسفاً عليك، خذوه، لنرى هل تؤمن بهذه الكتب فتكون قد كفرت بربك وبدين الإسلام؟ أم قد آمنت بما في هذه الكتب وكفرت بربك وبدين الاسلام وتنتشر هذه الافكار بين عوام المسلمين؟

فقال أجود وقد راعه التهم التي وجهها إليه أبو قتادة:

-بل أنا مؤمن موحد، أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله..

فجاء صوت من أقصى الحجرة:

-هذه الكتب لي، لا علاقة لأجود بها.

فقال ابو قتادة:

-لا تخف، سنأخذك معه، لتؤنس وحشته، وتستعدا جيداً للمثول أمام المحكمة، وأعدكما وعد صدق، ستكونان عبرة

للناس أجمعين!

فقال علي بصوت مرتجف:

-محاكمة؟

-أجل، محاكمة. هيا خذوهم.

وشحطوهما وسط عياط أم علي.. وقف ابو قتادة أمام البيت وأمامه علي وأجود مكبلان وأم علي تقبل يده وتتوسل، فقال بعد أن لكز أم علي لكزة ابعدها عنه لمترين:

-فتشوا القرية بيتًا بيتًا، كل الكتب التي تتحدث عن الالحاد والغزل وتدعو الى الفواحش والرذائل أريدها اليوم، واعلموا الأهالي أن غداً في الساعة العاشر صباحاً عليهم أن يشهدوا حرقها جنب دكان تحسين..

ورموهما في حجرة مظلمة ظلاماً تاماً لا يرى المرء فيها جسده، وأغلق الباب عليهما.

-١٨-

ليس ظلام الحجرة القاتمة بمؤلم، بقدر ظلام النفوس، أن تشعر بنفسك غائباً، تائها، العالم يجري في فلك وأنت في فلك آخر، عندها سيبدو ظلام السجن القاتم باهتاً، بل ضائعاً أمام ظلام الروح، هذه الروح التي تحترق يومياً بالآهات واللكمات. ابو قتادة لم يصدق أن أجود مؤمن، بل ظن أنه يفر من العقوبة، ولكن أجود بقي متشبهاً بموقفه، صلياً، لم ترحزه النعوت التي اعتادها: كفر، مرتدون. فهم لم يثبتوا شيئاً، ويعلم يقيناً أن اقامته في هذا السجن لن تطول، ولكن المشكلة هي علي. وقف أبو قتادة في صباح اليوم التالي ليحقق معه، فقال له:

- أَسْمَك .

علي سالم عباس .

-هذه الكتب التي تحض وتحرض على الإلحاد هي لك؟

-هي كتب فكرية، تدعو الإنسان لتحكيم العقل وتشغيله، والتفكير، حتى نؤمن إيمان الحق لا إيمان التقليد كما تريدون!

-اخرس.. قل لي أتؤمن بما في هذه الكتب؟

-أؤمن في بعضها .

-تؤمن بالله رب العالمين؟

-أي رب؟

-ربك الذي خلقك فسواك فعدلك .

-أؤمن به، ولكن لا أؤمن بدينكم!! بل لا أؤمن بالاله الذي أنتم تدعون له، أنتم تقتلون وتسفكون باسمه، تستبيحون دماءً، تغتصبون نساءً، وتقتلون رجالاً وكهولاً باسمه، إن كنت تعني هذا الإله فأنا كافر به! ولا تحسب أنني خائف منكم ومن مصاقلكم، فأنا ضحية الفكر الحر!

-والله لنقتلك شر قتلة، ولتموتن أسوء ميتة، ولتكونن عبرة ومثلاً، ولن يطيب لي عيش الا أن أرى هذا الرأس محزوزاً، وهذا الجسد معفراً بدمه .

-هذا دأبكم، وهذا الطغيان ليس عنكم بعيد، منذ زمن بعيد .

علي تحدث كل ذلك مع أبي قتادة بمنتهى الهدوء والثبات، وكأنه كان يرى الموت بين عينيه متجلياً، رآه وهو مقتنع راض بذلك المصير، لعله يريد أن يكون حلاًجاً جديداً، يريد أن يبني، أهكذا دأب من ايسوا من طغاتهم يستسلمون للموت

بهذا التسليم؟ علي يريد أن يصنع لنفسه هالة، يريد أن يسير بخبره الركبان. علي اقتنع أن الموت أهون من الحياة، والفناء أجدى من البقاء، هو استعجل ما ستلاقيه القرية فيما بعد من نوائب، لعل القرية لو علمت ما ستؤول إليه لاختارت نهاية تشبه نهاية علي، سريعة، شامخة، ولكن معظم أهل القرية خنعوا وذلوا واستسلموا الى الدولة، يقول على لأجود بعد أن وبخه الأخير على ما تلفظ به أمام أبي قتادة: (الموت واحد، فلنستعجله، ولنمت بعز مقبلين، خيرا من الموت بذل مدبرين). تُرى ما الذي كان يعنيه علي بنبوءه؟ هل كان يريد للقرية أن تكون بطلة؟ أن تكون مؤمنة بفكرة آمن بها؟ لكن القرية آثرت الخنوع والخضوع، آثرت السلامة على الندامة، يقول علي : (لكن مدهانة التنظيم بحجة السلامة ستغدو غدا ندامة!).



اجتمعت القرية كلها في الساحة جنب دكان تحسين، الوجوه خائفة شاحبة، والمشهد كان مثيراً للرعب لينبئ بقيامة قادمة للذين يعرفون قيمة الكتاب، أما الجهلاء فكانوا يعدونه مشهداً عادياً لأنه لم يكلفهم روحاً أو مالا، كانت الكتب أكداً كبيرة، وضعت بلا ترتيب، منها كتب الغزل، الذي يعدونه أدباً ماجناً مثيراً للشهوات والرغبات، ومحرضاً على الرذائل والفواحش، وكتب الإلحاد التي وجدوها، كذلك الاشتراكية والماركسية بل والصوفية حتى، هذه الكتب — كما يرى أبو قتادة — كانت أشد عداً من دبابات وطائرات التحالف، وأمضى فتكاً من بنادق الجيش.

يقول ابو قتادة وقد أمطر الكتب بقنيتين من البانزين:

هذه كتب الملحدين، سعوا لفساد عقول شبابكم بعد أن عجزوا عن هزمهم عسكرياً، يريدون الطعن والتشكيك في هذا

الدين، ألا فأعلموا أن الدولة الاسلامية كما قاومت الكفرة في ارض القتال ستقاومهم في مجال الأفكار، كتب الالحاد والكفر يجب أن تحرق... الله أكبر..

ثم اضرم النار في الكتب وتصاعدت ألسنة الدخان، وسرعان ما علت التكييرات المؤيدة، بل من أهل القرية أيضًا. وبينما الكتب تحترق قال أبو قتادة: أما الملحدان اللذان وجدنا عندهما هذه فسينالان عقابهما.

كان بيت سعيد قد انقلب الى مآثم، أم علي التي تلطم وتصرخ وأم أجود التي بدأت تدب أجود وجواد سوية: كنت بواحد صرت باثنين.

فقال سعيد بصوت مسموع: كفى، سأذهب الى أبي قتادة وافهم الموضوع.

-لا، هذا أمر صعب جدًا. أنت تريدني أن أفرج عن كافر، وهذا الأمر نبه عليه أمير المؤمنين شخصيًا، فكيف تريدني أن أعصي أمر أمير المؤمنين؟

فقال سعيد يائسًا:

-يا أبا قتادة، إن قریتنا حصن حصين ودرع متين، تتقي به الدولة الاسلامية أعداءها، ولما توسطت لأجود أول الأمر وافقت واطلقت سراحه، شراءً لقلبه، وقلت هو مكسب للدولة ولا تزر وازرة أخرى. وكذلك في هذه القضية، أجود بريء، والكتب تعود لابن عمه علي، وكان في زيارة تفقدية له.

-لا يا أبا أسامة، وجدنا عند أجود أشياء مخالفة، ديوان أبي نواس، تغزل بالغلمان غزلا ماجنا يدعو الى اللواط والزنا، رواية (أولاد حارتنا) للكافر نجيب محفوظ والتي يرى فيها أن

الدين والعلم ضدان، كتب غزلية لكاتب اسمه الرافي، أليس هذا دليلاً كافياً على فسقه وعصيانه؟ وتأتي وتقول لي لا ذنب له! بل هما مذنبان ويجب محاسبتهما.

فقال سعيد مذعوراً:

-وماذا ستفعلون لهما؟

-نقدمهما للقاضي.

-والقاضي عادة بماذا يحكم؟

-حسب الوضع، أجد قد يعزر، ولكن علياً عقوبته كبيرة.

-كبيرة!!

فقال ببطء:

-أظنه سيحاسب ويعاقب على إنه مرتد!

فقال سعيد فزعاً هلعاً:

-مرتد! يعني قد يقتل!

-بل سيحتز رأسه حزاً، ويكون عبرة!

-استهد بالله!

-هذا شرع الله.

خرج وقد أطبق الهم على صدره، مرتد! هذه الأمانة التي تركها له أخوه، أهكذا يسلمها للدواعش؟ ولكن ما ذنبه؟ انحراف هو، ليس أنا من قال له، وما يدريني أن هؤلاء سيأتون؟ أمانة أخي سالم التي أودعها وتركتها، عندما رحل وهو يعلم أنه لن يعود، كان يظن أن ولده وزوجه في حرز مصون، ولكنه خضع من أول زعزعة، سامحني يا أخي، فإني

جزع، لا شيء في يدي، ولكن الشجرة الكبيرة لا تهزها أول ريح، وهذه ريح وستزول، سأمضي الى ابي عبد الله، هو أقدر على مساعدتنا. وبينما هو في أفكاره هذه كان قد وصل داره، وإذا بالمرأتين تأتيان نحوه متلهفتين فزعتين:

-بشر.

-خير إن شاء الله.. اصبرا.

-كيف يعني نصبر؟ ألن يطلق سراحها؟

-لم يرض أبو قتادة، سأذهب الى أمير تكريت لعله يقدر على مساعدتنا.



تحت ظلال أشجار جامع تكريت الكبير الكثيفة الوارفة أوصل المثلثُ المسلحُ سعيداً، جلس على مقاعد مرتبة على شكل ديوان، هذه المقاعد تعود للجامع، وكان أبو عبد الله جالساً ويقف عنده رجل يصب الماء على يده ليتوضأ، وما أن أتم وضوءه حتى قام نحو سعيد ولحيته الكثة تقطر ماءً، جلس جنب سعيد، وكانت أمامهما منضدة وعليها سيف، فمسك أبو عبد الله السيف واستله ببطء، فقال:

-انظر الى هذا السيف، حاد صقيل لماع، له بهرجة تسر الناظر، ولكنه حاد قاطع، هذا السيف اهداه لي أمير المؤمنين اطلال الله بقاءه عندما بعثني على رأس الجيش الفاتح، كان يمني نفسه بإحدى الحاضرتين، عاصمتي بني العباس: بغداد أو سامراء. ولكن هذا الحلم الى الآن لم يتحقق، في رأيك يا سعيد أيهما أنفع لنا استراتيجياً، وفيها مكاسب، وأيها أكثر أهمية؟

-بغداد طبعاً .

-وسامراء؟

-لا اراها مهمة كبغداد .

-ولكن اراها مهمة كبغداد، بل تزيد، لها موقع مهم، موقع ديني وعسكري، الخسائر ستكون أكبر .

-أكبر؟

-أجل، علي الهادي والحسن العسكري، هذان المرقدان المقدسان لو وقعا تحت يدينا لسويناهما مع التراب، ولكن هذا سيثير علينا العالم الاسلامي أجمع، لذلك فيها تكتل عسكري كثيف، ولكن هل تظن إننا نخاف؟ لا، واحد منا يهزم مئة، لكن نخشى القصف، وكذلك المتطوعين الذين سيأتون الى الموت .
-أنتم أعلم .

-ستعود عاصمة الرشيد لنا .

...

-ما سبب زيارتك يا أبا أسامة؟

فقال بعد تردد :

-علي وأجود ابنا أخي .

-ما بهما؟

-الكتب التي وجدوها عندهم ...

-أجل أجل .

-أبا سليمان .. أعدك أن لا يعودا الى هذا الفعل .

-اعذرني يا ابا اسامة، قد انفلق باب الشفاعات، (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) هذا النص، الدول إذا دخلت فيها الشفاعات فسدت وخربت، اعذرني ولا تسمعي هذا الكلام ثانية!

فقام أبو اسامة متهاديا الى الباب بهدوء.

-١٩-

إذا أردت أن تعزل شعباً عن العالم فاصنع له مشاكلًا ونوازل داخلية، افرض عليه قانوناً لم يعهده، كبله بضرائب تثقل كاهله، استلب منه حقوقاً، افجعه بفراق من يحب، عندها سينسى الدنيا. وهذا الذي فعله تنظيم الدولة الإسلامية بعد أن سيطر على تلك الأراضي، فبعد أن قطع أنت على تلك المناطق كافة وجعلهم يعيشون حياة بدائية فرض قوانينه التي قعدها، وترك الناس مشغولين بتلك التغيرات التي أثقلت كاهلهم، فهذه قرية «لوعة عباس» على صغرها وضيقها بدت كأنها دولة واحدة، لا تعلم ماذا حصل في تكريت أو الموصل أو باقي المناطق، أما المناطق التي خارج سيطرة التنظيم فبدت بعيدة نائية، لم يسمعو عنهم خبراً، كل الذي يعرفونه أن الدولة العراقية بل دول العالم أجمع لن يسكتوا على ما حصل، خاصة وأن تنظيم الدولة بدأ يتمدد ويتوسع، فسرعان ما أنتشر انتشار النار في الهشيم، وما دخل قرية الا وقتل جنودها، وقطعها على العالم وطبق قوانينه. عندما كانت القرية مشغولة بهمومها كانت جيوش العالم قد شكلت تحالفاً دولياً ضد تنظيم الدولة، وأما الدولة العراقية فقد أعادت تنظيم صفوفها المفلولة، بل اتكأت على المرجعية الدينية في النجف،

إذ انطلقت فتوى للتطوع والتحشيد العسكري سعياً لاستعادة الأراضي المسلوبة، ذلك الجيش الكثيف من المتطوعين الذين دخلوا الحرب بلا خبرة أو تدريب كان مجازفة كبيرة، فعلى ما خسرتَه الدولة العراقية من أموال طائلة في سبيل التسليح لم يكن أولئك أول الأمر إلا فدائيين يدخلون النزال ويحبون الموت كما يحب الغريق الحياة، لم يكن في حساب التنظيم أن تستعين الدولة بهذا المدد، فلما علم التنظيم ما يعد له من قوى عدة وعدداً انقلبت تصرفاته، ولم يعد كأول امره، بل زاد في الضغوطات التي فرضها على الناس، واستحدث نظاماً جديدة تنضوي تحتها الضرائب الثقيلة على الناس، وكذلك ضَجَرُ الناس من تلك الحياة القاتمة بدأ يظهر رويداً رويداً، روح التذمر من حياة القنوط والشظف المجبورين عليه لاح في الأفق، فالنساء لا يخرجن الا في الخمار والا لحاجة ماسة، وغالباً ما يمنعهن أزواجهن، تلك الحرية التي انعدمت للمرأة كانت تثير حالة من اليأس بين الأهالي بل والغضب المكتوم أحياناً والمجهور به أحياناً أخرى، والرجال فرضت عليهم الأوقات الخمسة بحد السيف حتى الذي لم يصل يوماً صار مقيماً للصلاة، تلك الصلاة كانت شكلاً لا روحاً، فرضها الخوف والذعر من بطشهم، وكانوا يظنون أن هذه الطريقة ناجعة، ولكنها تضر أكثر مما ستنتفع — لو نفعت — .

التنظيم بدأ يحاسب على الفروع كما ولو كانت أصولاً، يتشدد بها أيما تشدد، فبعد أن بُثَّ الهلع في أوصالهم، وصاروا يحسبون كل صيحة أو رصاصة عليهم، مثلاً عندما كان جودت — الأخ الصغير لأجود — يجرب بندقيتهم في الحقل إذ كان شغوفاً بالصيد وهو لما يتجاوز الرابعة عشرة سرعان ما جاء طلحة على بيتهم تفتيشاً وتنقيباً، فسألهم بحزم عن السلاح،

فقال له: رميت بالكسرية ! وأتى بالكسرية لا البندقية، فقلبها طلحة بيديه ثم تركها. ذلك الخوف كان ينبئ ما كانت به الأيام حبلى من مصائب ونوائب غيرت مجرى تاريخ العراق الحديث، في تلك الايام تصدر العراق نشرات الأخبار، وصار بلد الرعب، كانت أفعال تنظيم الدولة من انتحاريين وزواج بالسبايا التي غنموها وتصفية الخصوم بشكل بشع، أثارت المسلمين قبل غيرهم من الديانات. شهوة التكفير التي كانت تتساب منهم وقتل أهل أبناء مذهبهم من السنة لمجرد المخالفة كانت هي بداية النهاية.. إذ ظن العالم أجمع أن التنظيم جاء لنصرة ابناء مذهبه من الدولة التي همشت هذا المذهب، لكن سرعان ما تبين أن تنظيم الدولة جاء ليقطلع تلك المناطق كلها من أصولها ويشكل لهم عقلية جديدة وتفكير مؤدج طبقا لما اختاروا، ولكن ما يريدونه يحتاج عمراً طويلاً، ودولة متينة الأركان، لا متخلخلة متصدعة قائمة بحد السيف. من الأفعال التي كرهت الناس بهم تلك القسوة، ففي القرية لم يكن هناك عدو ظاهر، ولكن عندما وجدوا علبة السكائر عند علي مع الكتب علموا أن في القرية من يبيع السكائر، فوجهت اصابع الاتهام الى تحسين! دخل عليه أبو قتادة مكفهر الوجه ، فقال بحزم: لماذا تبيع السكائر؟ ألم أقل لك اتق الله وبع بما يرضيه؟ ولكن طمعك قتلك!! اخرجه .. هياً. ثم أخرج تحسين السكائر التي كان يخبئها. فشحطوه وأوقفوه أما الدكان، وانطلق طلحة وجمع الناس ليشهدوا ما سيحكم القاضي على تحسين. لما اجتمع الناس كان كتاب القاضي بين يدي ابي قتادة. فقال لهم: هذا كتاب القاضي في صاحب الدكان، كنا قد نهينا عن بيع السكائر، لكن هذا الدعي المتخاذل الذي خالف شرع الله قد باعها علنا، متحدياً الله والدولة الإسلامية، وعليه حكم

القاضي بجلده ثلاثين جلدة على رؤوس الأشهاد ليكون عبرة.
واذا بهم يكبلوه على عامود قد نصبوه لهذا الشأن أمام الناس،
وتقدم رجل منهم وبدأ يجلده، وتحسين يتأوه .. يئن .. ويصرخ
.. يعلن توبته وتراجعته.



مرّ أحد عشر يوماً وعلي وأجود قابعان في تلك الغرفة المظلمة
والضيقة، التحقيقات تكرر يومياً، نفس الأجوبة، لم تتغير منذ
اليوم الأول، علي أصر على أقواله والتي لم يعلم أحد كنهها أو
سببها، حتى أجود الذي ظل طول الوقت يعلمه ماذا يجب،
وأنه مؤمن موحد، لكن علياً بقي على موقفه، وأجود بقي
على إيمانه وتوحيده. في هذه الغرفة المظلمة تعلموا أشياء
وأشياء، الخلوة مرحلة تصفية الذهن، الانعزال فرصة لمراجعة
ما سبق، في ذاك الظلام الدامس أشرقت أفكاراً لمواجهة مد
التنظيم، لم يكن لدى الأهالي سلاحاً لمواجهة به خصماً
لدوداً عنيداً بحجم التنظيم، لكنهم خططوا لمواجهة الأفكار،
(على الأهالي أن يرفضوا التنظيم في أعماقهم)، هكذا قال
علي لأجود، ثم تابع: (إن انتظرنا الى أن يأتي الجيش ويحررنا
فسننتهي قبل أن يأتي، سنكون هباءً، علينا أن نحرر العقول
والنفوس، أن نشيع بين الناس ما تفعله داعش من قتل وقتك،
بل تجعل قضيتي شرارة الانطلاق)!! لم يستسغ أجود أفكار
علي التي بدت له مجنونة ومتهورة تشبه اعترافاته...

-تريد أن تورطنا التهلكة، تريدنا أن نمضي سريعاً الى الموت؟!
تريدنا أن نلحق بك

-الموت هو طريق الحياة الآمنة، علينا أن نموت نحن القلة
لتحيا الكثرة.

-ولكننا نحن القلة نحب الحياة يا علي.
 -إن لم يضح بعضنا فسنموت كلنا! اختر الموت في سبيل حياة
 الآخرين. ما معنى أن نموت؟ فكلنا سنموت..
 فقال أجود عندما تجلى له الموت في خياله:
 -أمي..
 -ما لها؟
 -ولدان تخسرهما في عام واحد؟
 -افضل من خسارة الثلاثة!
 -أنت قاسٍ يا علي، غدوت بلا قلب.
 -...!!

كانت أفكار علي في ذلك الحين تعتبر طائشة متهورة، من ذا
 الذي يستطيع أن ينبس ببنت شفة ضد الدولة؟ هذا الجنون
 بعينه، ورأى أجود أن مصدر تلك الأفكار هي نظرتة السوداوية
 للتنظيم لدرجة أن يطالبه بأن يكافحهم فكرياً، ولكن لما طال
 عليه الأمد في تلك الغرفة المظلمة وظن أنه من الممكن أن
 يكون مصيره مصير علي والتهمة نفسها راجع نفسه كثيراً.

-٢٠-

يمشي مكدوداً منهكاً، يذرع القرية نحو بيته بتؤدة، الى متى
 وهو على هذا الحال؟ التنظيم لن يتركه على حاله، خاصة

وما تحيط به من شبه وتهم، بل هو أكثر شباب بالقرية عليه علامات استفهام، إن نجا من تهمة أنه مرتد لأن أخاه عسكري فلن ينجو من تهمة (مرتد) بسبب الكتب التي تحرض على الالحاد، هم لم يجدوا عنده كتباً ذات بال، ولكن على أي حال هو خرج وعليه أن لا يعود، وصل الى بيته، وقبل أن يدخل وكان الجو هادئاً بعد صلاة العشاء نظر الى التلة.. تلك التلة التي نسجت حولها الاساطير والحكايات التي سمعها من جدته حمدية، وسمعها كذلك بعد أن صقلتها الألسنة بمبالغات وما يطرأ على مثل تلك الحكايات، قيل أن عباسا جلس هناك ينتظر أباه علياً أن يعود من الحرب، هناك مات عباس بحسرتة، تلك التلة كانت النعيم أول الأمر ثم غدت جحيماً.. تقدم أجود نحوها وصعدها وأطل على الحقول.. كانت تقول له جدته: (هذه التلة كانت جنة رحبة، عندما يجلس بها جدك — ولم تكن الأراضي حولها بهذا الاتساع — بعد أن يعود من العمل يسمع صوت خرير الساجية التي شقها لتخترق جنتنا هذه، فكان يضع رأسه في حجري ويغفو، كانت جنة حقيقة، فلما رحل أبوك الى الحرب ووضعوه على الخطوط الأمامية اعتزل جدك، لأنه لم يسمع نصحي ويهرّب أباك الى العمارة عند أخوالي، فبقي معتزلاً الناس متحسراً نادماً الى أن مات). ولكن أباه عاد، ونسجت الحكايات حول عودته الأسطورية. نظر أجود الى الأراضي التي بدت صامتة صمت الأموات، حيث لا روح سارية فيها، ولا ساجية دافقة، وبدت مهجورة، كل شيء ينبئ بفناء قادم، حتى الأرض بدت حزينة كسيفة، أليس فيها روح؟ هي مثلنا، بل هي التي فدوها بدمهم لأجل أن تبقى، الأرض الحانية التي تدر عليهم أموالاً ورزقاً وفيراً بدت خاوية كأعجاز النخل، مقفرة كالطلل، ولكن بلا شاعر

يحن إليها أو يدبج فيها القصائد، ولكنه يملك مشاعر لم يملكها ألف شاعر، يملك حزناً يكفيها، حتى الأرض تطلب من يندبها فهي التي أكلوا من خيرها، وغنوا من ثمرها، الآن وهو ينظر الى الحقول الخاوية تضاعف حزنه وألمه وأدرك أن المصيبة أكبر من أن تحتمل، والان لم يبقَ أحد عندها، فالزرع بار سوقه وكسد، وهو أكوام مكدسة، باعوه بربع ثمنه، بل وزعوا أكثره مجاناً ووهبوا للتنظيم الكثير. من تلك الطلة شعر بمرارة الواقع.. أدرك الشرخ الكبير بين الواقع والحلم الذي غدا وهمًا، وهذا الواقع المرير سيفرض نفسه بعد كل تلك الأم التي عانينا منها في سبيل دحض الواقع. تحسر أجود بعد أن اعتلجت فيه الذكريات وهاجت هيجان الدمع في عين الثكلى ثم أخذ ينشج بصوت عال، يقوم وبعيون دامعة يحاول أن يرتب الوضع الجديد، الذكريات الطافحة، وفجأة جاءته فكرة السير وسط الحقول في الظلام.. ينزل من التلة مكموداً مثقلًا بالحزن وينطلق راكضًا وسط الحقول وقد داهمه الحنين الى أيام الصبا، يوم كانت هذه الأرض عامرة دائبة الحركة ليل نهار، يوم كان هو وابناء عمه يأكلون ويمرحون فرحين، حتى جدته حمدية وهي تسب أمهم وتلعن تربيتها يحن إليها، حتى تقريع جدته له وسب أبويه أمامه كان جميلًا، الآن كل شيء متناثر ضائع، كتطاير الشظايا، حمدية وأبوه رحلا، وجواد في غياهب الغياب، وعلي سيعدم إن لم يتحركوا، وأسامه؛ تُرى أين هو؟ ما أخباره منذ زمن بعيد لم يسمع عنه بل عمه سعيد أين؟ لم يزره كما زاره من قبل أو حتى تحدث مع أبي سليمان — وهو ابو عبد الله النجدي أمير تكريت — على ما بينهما من علاقة سطحية! وبينما هو في ذلك الخاطر وقد انهمرت عليه الذكريات تباغًا وانشغل

عن حنينه للصبا بذاك الخاطر، لعلهم نزحوا كما كانوا يريدون؟ ولكن رأى قبل قليل وهو قادم أضواء باهتة تضيء بيوتهم.. وفجأة سمع حركة وسط الظلام، لم يبين ما هو، فقد كان بعيداً .. كأن حجراً ارتطم في قاع البئر وغار ولم يعد هناك صوت، أرهف السمع جيداً وإذا بتلك الاصوات تقترب وإذا بها جلبه وحركة، وسرعان ما انبطح أجود واختبئ وسط الحشيش، وإذا هو يلمح رجالاً ويحملون أضواءً ينثرون دربهم، وإذا بهم يتقدمون نحوه، وسرعان ما نادى احدهم: أخرج وإلا طشرت رأسك! هم جنود التنظيم في دورتهم الليلة وقد راعهم تلك الحركة، فقام رافعاً يديه مستسلماً وقائلاً: أنا صاحب هذه الأرض. فجاءه صوت أجش: ألا تعلم أن الخروج بعد العشاء ممنوع؟! ماذا يقول له؟ هل يقول لهم هو مسجون وقد خرج توأ من سجنهم فيثير شبهة عليه وفي نفوسهم رعباً، وقد يعتقلونه مجدداً ويقضي أياماً أخرى في السجن؟ أم يقول لهم أن الحنين داهمه وأضرمت نار الذكرى في فؤاده؟ ولكن أنى لهم أن يفقهوا لغة الحنين ونارها، ولكن أليسوا بشراً مثلنا يحنون كما نحن ويشتاقون كما نشتاق ومعظمهم جاء من بلاد بعيد تاركين خلفهم أهلاً كما حكى لهم طلحة؟ ولم يقطع تلك التساؤلات وينقذه من مرارة المخالفة بخروجه بعد العشاء الا ذلك الصوت التي ألفته أذناه:

-أجود .. أنت هنا!

وتقدم صاحب ذلك الصوت نحوه وقد أزاح لثامه ووضع بندقيته على ظهره وسرعان ما حضن أجود بشوق، فقال أجود ذاهلاً:

-أسامة..!!

-متى خرجت من السجن؟

-فقال بعد بلع ريقه بصعوبة:

-منذ قليل.

فاتجه أسامة نحو المسلحين وقال:

-هذا عِرف، ابن عمي، سأحدث معه وألحقكم.

وما أن ذهبوا حتى قال أجود بانفعال ممزوج بحزن:

-ما هذا يا أسامة؟ أنت معهم! صرت داعشياً؟ لم يا أسامة هل نسيت الوعود التي قطعتها لأبيك أن لا تتظلم إليهم؟ لم أنزلت في هذا الدرب الوعر، ألا تعلم أن هذا الدرب زلق لا مخرج منه إلا الى السجن أو القبر..؟

فأشاح بوجهه عنه، وقال مقراً:

-اعلم أن هذا الدرب لا مرد منه، أما النصر أو السجن والقبر، لكنه طريق الحق.. طريق الله .. هو طويل ولكنه الطريق الوحيد للخلاص المنشود، والحياة التي ارادها الله.

-هذا غير صحيح، لم يكن طريق القتل والسفك طريق الحق والخلاص، ولم تبْنِ أمة كما تفكر أنت.

-بل بنيت، بل كل حضارة لا تبني دون دماء مهددة تسقي الحضارة الجديدة، أي مجد لم يعمر دون الدماء التي تهدر لتحيا البقية الباقية، وهذا ما يفعله التنظيم، ثم هم لم يفعلوا شيئاً أو يبدعوا منكرًا، وكل أرض دخلوها وسكنوها خيروهم بين البقاء تحت حماية الدولة الاسلامية والجهاد معها أو الخروج والنزوح، لم انظم الا بعد أن رأيت عملهم، فوجدتهم يعرفون الدين أكثر منا، عبَادٌ، إذا جن الليل رأيتهم صدعوا

بالقرآن متهجين، لا أن يقضوا ليلهم بين عد المال بالنسبة لكبارنا، أو في محادثة الفتيات بالنسبة لشبابنا، نحن لم يبقَ لنا شيء من الدين إلا الاسم في الهوية. يا أجود أما أن وقت توبتك؟ أما أن لك العودة إلى الله والالتحاق بصفوف المجاهدين. العمر قصير، والموت آتٍ، فمُت على الإيمان مجاهدا لا ناكصاً قاعداً.

فقال أجود هازئاً:

-تريدني أن أموت معكم؟

-يا أجود لا تحرص على الحياة، فكل من غلب حبه للحياة إيمانه أحنى رأسه بذل وأمضى وثيقة الكفر! حُبّ الحياة عار! فقال أجود مدارياً خبيته بسخرية لاذعة:

-كبرت والله يا أسامة وصرت تكفر الناس كما تشاء وتبت بالفتاوى وكأنك أمام مجتهد أتقن الأصول والفروع وسائر العلوم النقلية والعقلية، بارك الله فيك يا شيخ أسامة.

فقال أسامة محتملاً سخريته وعالماً ما بداخله:

-لدينا نصوص الكتاب وما شأننا بالعقل؟!

-ما شأننا بالعقل!

-يا أخي عندنا كتاب الله الخالق، فما لنا بالمخلوق؟ ثب إلى رشدك يا أخي وتب إليه.

فابتسم بفتور:

-أنسيت ما فعلوا بعلي وبني؟

-علي كافر، ألم يقر بكفره وإلحاده؟ وما جزاء المرتد إلا أن

يقتل؟

-تغيرت كثيراً، هل نسيت علياً ابن عمنا وهو يلعب معنا هنا، في هذه الحقول غير عابئين بصرخات جدتنا حمدية؟ وهل نسيت أنه أمانة عمنا سالم الذي خرج الى الفلوجة وقاتل العدو بضراوة ولم يبال بروحه لأنه كان يظن أنه ترك زوجته وولده عند أمناء سيرعونهما .. واسفا عليك .. واسفا، لم أظنك جاهلاً الى هذا الحد.

إنه الإسلام يا أجود .. الإسلام.

قال كلمته هذا وترك أجود وراح يتهدى نحو صحبه، أما أجود فشعر في تلك اللحظة تفاهة الحياة، وأدرك تماماً صحة ما كان يقوله له علي في السجن: (علينا أن نحارب داعش فكرياً طالما عجزنا عن محاربتهم بالسلاح، لا سلاح لدينا ولكن لدينا عقل، على الأهالي أن يرفضوا داعشا .. يقتلعوهم من عقولهم، فإذا اقتلعوهم سهل التحرير عندما يأتي الجيش).

تلك الكلمات صارت تطوف في اذنه، يتردد صداها فيه، يلمحها وهو يجتاز الحقل صاعداً التلة، بل يراها مجسدة في أعلى التلة، مكان عباس وهو ينتظر ولده أن يعود من الحرب، يرفع راسه الى النخلات المتعانقات ويلمح النجوم المضاءة في صفحة السماء وتزول كل سكرة وتبقى الفكرة، وخسرت القرية أسامة، الفتى الذي كفرت به القرية من قبل فعاد ليكفرهم، ليصب عليهم غضبه وسخطه المتراكم والجاثم على صدره.

(الإنسان إذا تخطى الخوف فقد تخطى الخطر.) استحضّر

أجود كلمة محمد أسد هذه التي قرأها في (الطريق الى مكة) وهو يركب سيارة الحمل مع العم محجوب ذاهبين الى تكريت لبيع تلك الثمار، والحق أن أجود تحجج في بيع الثمر حجة ليذهب الى تكريت، أما الغاية فكانت لغير ذلك، رحلته هي محاولة لصنع شيء من التغيير ولو قليلا لما آلت إليه القرية من حالة كسيفة. القرية التي كانت مآل الأغنياء والأثرياء قد غدت الآن أرض الخوف والفرع، كيف لا وأمير تكريت والذراع الأيمن للخليفة يقطن فيها؟ كانت القرية قبل عقدين أشبه ما تكون بأرض كنز لكثرة ما نسجت حولها من حكايات، فمن تلك الأمور التي كانوا يتداولونها: من يدخل القرية يطول عمره! من يعيش فيها لا يموت قبل السبعين! أصبحت القرية ملاذ الباحثين عن الخلود، الكارهين للموت، فهذا الحاج سعود الطامع الجشع لم يدفع لسعيد مئتي مليون لأجل تلك الأرض ولأجل أن يضع فلاحا ويبنى بيتا، لا، بل لأنها تدفع الموت عنه، ذلك الاعتقاد السائد جعل الكثير من المتدينين يقولون أنها أرض الشياطين ومأوى الجن ومقام السحرة، مما دفع الكثير من المتطفلين لزيارتها، ولكن سعيدا كان حصيفا بما يكفي ليرد أولئك المتطفلين فكان يطلب مبالغ باهظة لأراضيه مهما صغرت وهذا أحد موارد ثروته العظيمة، كانت السكن بها حلما لا يلقاه الا ذو المال العظيم، بعضهم من غالى وعلل سبب هذه الهالة للقرية بأن عباس جدهم طفل مبارك، جاء به الخضر — عليه السلام — الى علي الهادي في ليلة مباركة قيل إنها ليلة القدر وقيل إنها ليلة الاسراء والمعراج، وقيل أن الحاج صبحي دعا ربه بمعجزة تعوضه فقد ولده الشهيد، فكان عباس، سليل التقوى والأولياء، بل منهم من قال أنه سليل آل البيت الأطهار، ونتيجة هذا كله أحاطت

بالقرية قدسية وهالة وصارت «أرض العجائب» وهذا الذي جعل الناس بعد التحرير عام ٦١٠٢ يقذفون التنظيم باتهامات منها أن التنظيم أراد التخلص منها لأن روح عباس بقيت تحوم حولهم وتلعنهم .. ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل عقد الناس صلة بين قدسية القرية وعجائبها الواردة في الحكايات وبين مسكن أبي عبد الله النجدي القابع فيها .

-من أين أتيت والى أين تذهب؟ (سأل المثلث على باب تكريت) .

فأجاب العم محجوب:

-من قرية لوعة عباس، أنا سائق أجرة أحمل ثمر هذا الرجل (وأشار الى أجود) الذي يريد بيعه في الداخل .

ونظر الى الثمر وقلب فيه، ثم نظر الى أجود بارتياح وعدم ارتياح، فطلب منه هويته، أخذها وذهب يدققها على الحاسوب، ولتدقيقهم غاية، فهذه الحواسيب هي تابعة لسيطرات الجيش العراقي استولى عليها التنظيم، وعندما يدققون يعني انهم يبحثون في أسماء رجال الجيش والشرطة وكافة الموظفين، فإن كان عسكرياً فهو الكافر أو المرتد الذي يجب قتله، قد يعدموه فوراً واحيانا ينتظرون أمر الأمير، وإن كان موظفاً فحسب الوظيفة يكون حسابه، فإن كانت الوظيفة عادية كأن يكون معلماً أو كاتباً حذروه وطلبوا منه الانفكاك من وظيفته، وإن كان موظفاً وظيفه مرموقة كأن يكون مدير عام اعتقلوه وشددوا عليه التعليمات وقد يسجنونه أياماً قللاً أو كثيرة حسب نظرة القاضي والأمير وقد يكون الخليفة نفسه . عاد المثلث وقال: ستبقى الهوية عندنا، عندما تعود تأخذها، ويجب أن تخرج قبل الغروب من تكريت! انطلقت سيارتهم

داخل تكريت وقد استشاط أجود والعم محجوب غضباً، العم محجوب هو الأخير قد لاقى ما لاقى من التنظيم، ولده الوحيد عسكري، قُتل قبل أربعة أشهر أول ما دخلوا تكريت، أوقفوه مع صحبه الذين يزيدون على عشرة على حافة النهر مقيدين، كبروا وامطروهم بالرصاص وسقطوا في النهر، وجدوهم بعد عشرة أيام طائفين في منطقة بعيدة، اضطر العم محجوب أن يقوم من كبوته، ويعود لعمله في السيارة، فمعيه الوحيد قد رحل، عليه أن يعمل ليطلعم بناته، يحمل حقدًا دفينا على التنظيم، لما أعلمه أجود بغايته التي يسعى إليها — وكانت مخاطرة كبيرة منه — صفق طرياً، وقال: الحمد لله أن هناك من يكفر بهم. الاتفاق أن ينزله في الحي الذي ينوي التوجه إليه، ويغطي هو مكانه بالذهاب الى السوق وبيع المحصول. نزل أجود في شارع يفضي الى فروع تضيق تارة وتتسع، دخل احد فروعه الضيقة ثم مشى الى آخره الى وصل الى بيت صغير عتيق، كان السكون يلف المكان، الشوارع والأزقة شبه خالية، كثير من أهلها نزحوا الى الشمال أو الى تركيا، وقلة منهم من ركب مراكب الموت ليصل الى أوروبا، وقد يموت أو يصل بعد تلك الرحلة الشاقة، لكن غالبية الذين نزحوا الى كردستان أو تركيا كانوا من ميسوري الحال، أما فقراؤهم فقد بقوا على ما هم عليه، وهؤلاء القلة الذي يمشون في الشارع هم من رجال التنظيم أو الذين انضموا من الأهالي لهم، أما الذين بقوا محافظين على فكرهم من خطر التنظيم فيظلون قابعين في بيوتاتهم ينتظرون فرج الله.

فتح الباب شيخ ملتج يكسوه وقار مبكر، فعلى الرغم إنه لم يتخط الرابعة والأربعين إلا أن الشيب تمكن منه واستوطن.

-كبرت يا شيخ خليل سريعاً.

ففتتر ثغره عن بسمة ساحرة زادته ألقاً وحسناً:

-الهموم التي نحملها يا أجود تجعل ولدان شيباً.

ثم حضنه وهو يقول:

-السلام عليكم يا شيخخي الحبيب.

-وعليك السلام يا ولدي الحبيب.

وأخذه الى الغرفة وهو يمطره بكلمات الترحاب، بدت الغرفة عتيقة فلما فتحها إذا بها غرفة من الكتب، لا يبان منها جدار أو طلاء، فقط فرش بسيطة ولكنها مصفوفة بعناية فائقة للجلوس على بساطتها.

-خمسـة أشهر لم أرك فكأنها خمس سنين، كبرت سريعاً يا شيخخي.

-الهموم أثقل ما حملته النفس، تجعل الجبابرة يخرون ويضعفون، فما بالك برجل واهن القوى مثلي.

-ما زلت شاباً.

فقال الشيخ جاداً:

-ما أخباركم؟

-لسنا على ما يرام، أخي جواد فُقد، ولم اعد اعرف عنه شيئاً، في سبايكر مع الذين فقدوا، عثروا قبل فترة على مقبرة جماعية قيل لرجال من سبايكر لكن لم يكن منهم، وابن عمي أسامة صار مع داعش!

فقال باسمًا:

-توقعت هذا الشيء.

-وابن عمي علي في سجنهم، سيحاكمونه على أنه مرتد
كافر!

-....!!

-يا شيخ، نحن أمام عدو متمرس، شرٌ متدفق كالسيل العرم،
لا يرى إلا إياه، قد ساء الحال، واضطربت معيشتنا، وقربتنا
مهدة بطيران التحالف أو جيش التحرير.

-وأنت ما أخبارك؟ ألم تخرج؟

-أنا باق هنا، قلت أزمة قصيرة وتمضي، لكن العدو جثم
على صدورنا، وصار يحسب علينا الهواء، انقطع الراتب
الذي أعيش عليه، عندي ما ادخرته وأصرف منه، ولكن لم
أخرج، كثير من المشايخ والأخوة قد استقروا في اربيل وتركيا،
خرجوا من هذا القاع، المشكلة أن التنظيم يرانا شيوخ سلطان
وزور وبهتان، وغداً سترانا الدولة شيوخ التنظيم، لن نرتاح.

-لماذا لا تخرج؟

-إذا خرجت فمن سيبقى هنا؟ هؤلاء يغزون عقول شبابنا،
يمالئون رؤوسهم بأفكارهم المعتوهة، وبفهمهم المبتور للنصوص،
وغدا إذا تحررت الأرض من يعيد التوازن، أنا هنا كي أحد
من موجة التطرف التي تغزو شبابنا، صدقني هم مفرر بهم،
بكلمة يقتنعون وبكلمة أخرى يكفرون.

-وهذا الذي أتى بي إليك. يا شيخ متى تقاومون داعش؟

-كيف نقاومهم؟

بدت له هذه الكلمة غريبة غير مألوقة، لم تفق الناس بعد
من الصدمة الأولى، إن هي إلا أشهر معدودات ولما يستقر

بعد الوضع، وكانت الناس أجمع تنتظر الدولة والتحالف أن يحرروهم لتعود الحياة هادئة هانئة ثم يفكروا في بناء ما تهدم.

-مقاومة أفكارهم يا شيخ، أنت تريد ذلك ولكنك لم تخطُ خطوة البدء، لنبدأ، نوزع منشورات، نشيع بين الذين نعرفهم، نبين لهم حكم اتباعهم، نبين لهم أنهم عاصفة هوجاء ستزول.
-أنا معك في كل الذي قلته.

-لنبدأ العمل.

-من أين نبدأ؟

-تكتب أنت لنا مقالات وعظات، نطبعها ونوزعها سرًا، نفتح أعين الناس عندما حاولت الدولة الاسلامية أن تحجب ذلك الوجه الأسود عنهم... الموصل بدأت تتحرك، علمت أن كاتبًا نشر كتابا وزعه كتيبٌ شجاع مئة نسخة وأعتقله التنظيم ولم يعرف مصيره بعد، الكتاب عنوانه (عائدون يا عتيق).. الموصل تحركت ونحن قاعدون؟

-عندك لابتوب؟

-أجل.

-جهاز استنساخ وورق؟

-لا.

-عندي ورق وجهاز استنساخ، وعندي صديق يمتلك مطبعة اعلانات قد يساعدنا.

ثم قام وأخرج من بين الكتب المتراكمة ورقة بدت سوداء ولكن بعد أن أمعن النظر بدت مملوءة ومخبئة بين الورق خوفاً من

عمليات التفتيش المبالغية، ثم أحضر جهازَ استنساخ صغير.
فقال له:

-اطبع ووزع.

-تمام.

-وتعال كل ما طبعت ووزعت لتأخذ ورقة أخرى.



كان العم محجوب في السوق يذرعه جيئةً وذهاباً بعد أن باع الثمر بثمن بخس، كان السوق رائجاً، اللحي الكثيفة للأهالي بدت منظرًا مألوفًا ومعتادًا، وكذلك رجال التنظيم وهم مسلحون مستعدون للعراك في كل لحظة، كل شيء هادئ ولم يستفز العم محجوب الذي كان سريع الغضب، وقف جنب بائع البرتقال، وإذا برجل عجوز بان أنه خليع وضع صعلوك، ولكنه تاب على يد التنظيم، بل قل الخوف هو من جعله يتوب، وقف يشكر أحد رجال التنظيم ويصف له كيف فض بكارة أربع سبايا في ليلة واحدة والآخر يضحك: بدأً يتصايحن .. وبعضهن يضحكن .. وإذا بأربعتهن ما زلن عذارى، فمسكت الأولى ..

واستشاط غضب العم محجوب، وفكر أن يمسك هذا العجوز ويهشم راسه ويفقأ عينه، وبينما تلك الفكرة قد سيطرت عليه وهم بفعلها وهو يكاد ينفجر .. إذا بيد حانية توضع على كتفه: عم محجوب هيا . كان أجود وقد رأى هذا الموقف وتداركه .

وخرجا من تكريت قبيل الغروب، كان أجود يرمق الحقول في تلك اللحظة وهو غارق في أفكاره، ما فعله هو ما يتوجب على

كل واحد منهم، هو يقظة مبكرة من سبات الخنوع والخضوع لسوط الطفافة والغزاة. وصل الى القرية، رأى تحسين يجلس على باب الدكان ويعلوه كرب، كأن وجهه قد قُذ من الشجن!

-٢٢-

كان أجود منهكاً في طبع الورقة التي أخذها من شيخ خليل، يعمل دائماً كأن لا هم له سواها، ذلك الهدوء الرتيب الذي ساد القرية في ظل الخلافة المزعومة لدرجة أن دفع أجود وأترابه للتفكير في محاربة التنظيم. لم يكن يعلم أن عاصفة هوجاء قد لاحت في الأفق، كان يظن أن الحد سيقف عند اعتقاله أو اقصائه، لم يكن يعلم أن للتنظيم دهاليز وممرات يدخل لهم فيها، كان أسيفاً حد الاطمئنان لعدوه. عندما هم بقراءة الورقة راعه أول نص بعد حمد الله:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إذا رأيت الرايات السود فالزموا الأرض، فلا تحركوا أيديكم ولا أرجلكم، ثم يظهر قوم ضعفاء لا يؤبه لهم، قلوبهم كزبر الحديد، هم أصحاب الدولة، لا يفون بعهد ولا ميثاق، يدعون الى الحق وليسوا من أهله، أسماؤهم الكنى، ونسبتهم القرى، وشعورهم مرخاة كشعور النساء، حتى يختلفوا فيما بينهم ثم يؤتي الله الحق من يشاء). هاله ما قرأ، أيعقل أن الشيخ خليل وصل به الحد الى أن يجترأ أن يكتب هذه الأحاديث؟ لم لا أليس هو وأخوته كانوا أول من حمل السلاح ضد تنظيم القاعدة؟ كان هذا جل تفكير أجود وهمه.



وصل ابو قتادة هو ورهطه الى بيت سعيد، دق الباب، فخرج سعيد وإذا به شاحب الوجه كثيف اللحية، قد زادت لحيته من بؤسه وحاله المهزول، أين سعيد ذلك الجبار الذي يمتلك الملايين التي لا تحصى والأراضي التي لا تكاد تعرف؟ أين معرض سياراته الفارهة؟ معرضه قد ضربته الطائرة الأمريكية لأن جنود التنظيم كانت مسيطرة عليه ففدا رَمَادًا تذرّه الريح، وكل الذين يطلبهم قد هربوا أو أفلسوا، والقرية صارت أرض الخوف والفرع، وذكر اسمها فحسب يثير الرعب والهلع، فمنها تصدر قرارات مصيرية لهذه الأراضي الشاسعة، وزاد من بؤس سعيد أسامة الذي انخرط في صفوفهم، وكم عانى منه وحاول أن يقنعه بأن يحيد عن هذا القرار لكن عبثًا، جاءه في صباح ذلك اليوم الخريفى حيث الأوراق تساقطت من شجرها كتساقط المدن من الحكومة العراقية، فقال أسامة مباشرة:

-سأنضم الى الدولة الاسلامية، وسأكون جنديًا من جنودها!

فقام سعيد فرعًا:

-أين تنضم؟

-الى الدولة الإسلامية، الجهاد يا أبتاه!

في تلك اللحظة شعر سعيد أن الأرض تدور به، لم يعد يعي شيء، هل يعقل؟ ألم يعده ان لا ينظم إليهم؟ ألم يعده أن يكون مطيعًا ويهاجر معه عندما تحصل فرصة للخروج، كيف خان العهد؟ فقال سعيد مداريًا خيبته وحسرتة:

-ألم تعدني ألا تنضم؟

-الحق يا أبت، جاء الحق وزهق الباطل، فلم التراخي والتكاسل في نصره الحق؟! وأنت يا أبت انصحك أن تدعم

الدولة الإسلامية وأن تنفق ما تقدر عليه من مال وسلاح،
وخيرك كثير!

فقال سعيد بيأس:

-تريد أن تذهب وأنت فلذة كبدي وتأخذ مالي! المال والولد
معاً!

-لا تفكر بالدنيا ومتاعها، فإنه زائل، «الدنيا كلها قليل، والذي
بقي منها في جنب الماضي قليل، والذي لك من الباقي قليل،
ولم يبقَ من قليلك إلا القليل».

فقال سعيد باستسلام:

-اطع أباك ولا تكابر، أليست طاعتي فرض؟!

-﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

-لم أقل لك اشرك، فلا تلوِ النصوص!

-لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

عند ذلك شعر سعيد بدوخة، وأن المكان ضاق عليه بما
رحب، فسقط مغشياً عليه.

-أبا اسامة!

عاد الى وعيه على صوت أبي قتادة الذي انتشله من الذكريات
الموجعة، فقال له:

-نعم؟!

-الأمير أبو عبد الله النجدي يريد رؤيتك اليوم في بيته بعد
صلاة العشاء.

-يريدني؟ وماذا يريد؟

-لو أراد أن يقول لي وأنا أقول لك فلم يرسل إليك؟!

تُرى ماذا يريد هذا الآخر؟ فوق ما بنا من مصائب؟ (هكذا حدث سعيد نفسه).

دخل فناء قصر أبي عبد الله أو أبي سليمان من قبل، كانت الأضواء ساطعة، فجلس في الحديقة على نمارق وثيرة، وكان جنود التنظيم يحفون المكان، منتشرون ذات اليمين وذات الشمال بكثافة، وبينما يتابع سعيد النجوم في السماء ويفكر بحاله البائس التي آل إليه دخل أبو عبد الله قائلاً: السلام عليكم. وبعد الترحاب وتقديم القهوة المرة، قال أبو عبد الله:

-كيف حالك يا سعيد، أما زلت غضباناً على ابنك لأنه ألتحق بالمجاهدين؟

فقال بتوتر:

-لا، كانت مفاجأة فحسب، وماذا يريد المرء خير من الجهاد في سبيل الله؟

-فما لك شاحب الوجه متغير اللون؟ هل الخسائر الفادحة في العمل هي السبب؟

كانت لهجته رقيقة، وأنّى لأبي عبد الله هذه اللهجة الهادئة؟ ألم يطرده قبل شهر عندما زاره في تكريت متوسطاً لعلّي وأجود فما الذي قلب حاله؟ ثم أن أبا عبد الله ليس محتاجاً لشيء عنده، فلا مال بقي، والولد أخذه، ولكن لا بد أنه يريد شيئاً، مصلحة ما.

-خسائر ليست بالقليلة، يعني خمسين سيارة لا يقل ثمن

الواحدة عن خمسة عشر ألف دولار غير هينة.

-قاتل الله الكفرة، ولكن لا تقلق سأعوضك عن كل هذه الخسائر!

-لم العجب يا أبا اسامة؟ الدولة الاسلامية آتية لخدمتكم، هي الدولة المؤمنة والمنقذة من دولة الكفر التي ستزول، نحن سنزرع بدل كل شوكة وردة!!

أراد أن يهتف به، أو يصرخ قائلاً: أي ورد وأنتم تزرعون بدل الشوك قتابل، تدمرون الشوارع بحجة عرقلة سير الأعداء، أي ورد وأنتم تريدون قتل كل من خالف. ولكنه أثر السلامة. وعاد لكرم أبي عبد الله الفياض والذي انهمر فجأة كأنهمار سحابة الصيف المطيرة.. تعويض عن الخسائر.. انقاذ.. ما الأمر؟ لا يكاد يستوعب.

فقال أبو عبد الله متابعاً:

-لا يخفى عليك أن الدولة الاسلامية تدخل عهد ازدهارها، عملية البناء وتوطيد الأركان، سيبدأ العهد الجديد للدولة، الحضارة المنشودة، سنقضي على الخصوم ونفتح البلدان عنوةً أو صلحاً وهذا شأن المجاهدين المقاتلين وقد تشرفت بأن انضم ولذلك..

وشعر سعيد أن ابا عبد الله يضغط على جرح لم يندمل، يريد أن يوصل رسائله، يقول له: لست أعظم من الدولة، لست الا جرم صغير، لست الا سمكة صغيرة في ساجية تسبح فصارَت سيده، فلما صارَت في البحر ظننته ساجية وظننت نفسها سيده! يتابع بزهو:

-أما مهمة السادة الاشراف والشيوخ وعلية القوم فهي ترسيخ

الدولة في أذهان الناس، والسير معها قدمًا نحو دولة قوية..
ابناؤها هم ابناؤكم، ورجالها هم أنتم الخُلاء..!

فقال سعيد بارتباك وقد بدا كقط أليف لا ذاك الجبار الذي
كان يصرخ في وجه مهدية:

-والآن ماذا عليّ أن افعل؟

-الآن كخطوة أولى أريد القرب منك أنت تحديدًا!

-أنا..!!

-أجل!

-وكيف هذا؟!

-ولدي طلحة، كما تعلم التقيت به بعد أمد طويل، فلما
جمعتني الله به بعد لم أتفرغ له، بل بقينا في الجهاد والقتال،
وهو شجاع كأبيه، مغوار لا يخشى شيء، إذا بدأ القتال رأيته
في المقدمة!!

فتقاطر وجه سعيد عرقًا كالندى.. وتابع أبو عبد الله:

-وأزف وقت زواجه.. فقد تخطى العشرين!

-أبو أسامة، أطلب يد ابنتك رحمة لولدي طلحة على سنة
الله ورسوله وعلى صداق أنت تختاره.

ففغر سعيد فاه مدهوشًا مبغوثًا، واعتلاه صمت رهيب يشبه
صمت الأموات، وقال بصوت خفيض مشبوب بفرع هائل:

-الحقيقة يا أيها الأمير لا أعلم ماذا أقول.

-وهل هناك قولٌ غير الموافقة؟ أم أنت رافض لقربي؟

كان يتوقع أي شيء الا هذا، يصاهر أبا عبد الله؟ أي وحلٍ

هذا الذي سيغرق فيه وأي قاعٍ هذا الذي سينزل فيه؟

-حاشا، ولكن تفاجأت قليلا..

وأشار أبو عبد الله لأبي قتادة الذي كان يقف على مقربة من مجلسهما، فغاب دقيقة وعاد يحمل حقيبة كبيرة من حقائب السفر، ووضعها أمامهما، وفتحها .. فلم تكد عينا سعيد تصدقان ما تريا، حقيبة مليئة كلها بالدولارات..!

فقال أبو عبد الله باسمًا من منظر سعيد وهو يحدق بالحقيبة بتلك الدهشة:

-اعتبر هذا تعويضا بسيطا من الدولة الاسلامية لما أصابك أنت وعائلتك من ضرر بالغ جراء العمليات العسكرية، اعلم أن خسائرك فادحة، فمعرض السيارات انتهى، ولم تستلم الى الآن شيئا من أموال الحنطة التي بعثها في العام المنصرم..!

داهية هو أبو عبد الله يعرف من أين تؤكل الكتف، وكيف يشتري قلوب الرجال. فقال سعيد وهو يداري فرحته:

-شكراً لك وللدولة الاسلامية، تعويض عاجل وسريع.

-متى يكون العرس!

-أيُّ عرسٍ؟

فقال أبو عبد الله ضاحكاً:

-المال أنساك! زواج طلحة ورحمة.

-حدد الموعد.

-الخميس القادم، يعني بعد خمسة أيام.

-على بركة الله.

-صحيح، لدي لك خبر قد لا يُسرك...

-علي، سيحاكم يوم الأربعاء القادم وعلى الملاء أمام الناس!

فطفرت دمعة من عينه نغصت تقاسيم وجهه الممتلئ سرورًا
وحبورًا، ولم يستطع أن يتكلم وكأن مداد الكلمات انقطع..

-ما لك يا أبا أسامة؟ هذا كافر وإن كان ابن أخيك! واللّه قال
لنوح عندما أراد إنقاذ ابنه: (إنه ليس من اهلك).. فلا قربة
مع الكافرين.

-وهل سيعدم؟

-إلا إذا تراجع عن غيه وكفره.

-ومتى ينفذ الاعدام إن ثبت؟

-فورًا!

-طيب.. لماذا لا نؤجل العرس؟ فلا يعقل يموت ابن عمها وفي
التالي تتزوج.

فقال غاضبًا:

-أما زالت هذه البدع عندك؟ هذا كافر وليس ابن عمها، ولا
يجوز أن يُحزن عليه، بل علينا أن نفرح بما أفاء الله علينا من
نصر بقتل هذا الملحد.

حمل سعيد الحقيبة واستعد للخروج، فامر ابو عبد الله أبا
قتادة أن يوصله بالسيارة.

- ٢٣ -

نزل سعيد من السيارة يجر حقيبة المال وبرفقتها خييته، خيبة
مليئة بالخيانة والعار والخوف، كيف تقدم النفس على الخيانة

بهذه البساطة دون خوف؟ كيف تنتزع المبادئ من النفوس وترفع رفع العلم بموت علمائه؟ وهو يقف ويرى بيته وجنبه بيت أخيه ذي الأضواء الباهتة وبين الدارين درب يفضي الى التلة.. تلة عباس المشرفة على الحقول الخاوية، لما تأمل هذا المنظر تدفقت عليه كتدفق الشلال موجات من التساؤلات الذابحة الهادرة هدير الموج العاتي الجبار الذي يريد تدمير كل شيء.. سالم .. أمانته ستضيع وأنا صافحت قاتليه! سالم وهو يقاتل الجيش الأمريكي كان مطمئنا على ولده، ولكن ها أنا أخون، أخون وأنا هادئ، أجود الذي يعشق رحمة ويتملق لي لأجلها.. كيف أردته وأقنعه أن رحمة صارت لمن يراهم قاتلي أخيه؟ بل رحمة نفسها كيف ستقبل؟ ألم اطرده أسامة وألغته لأنه انضم لهم فكيف سأكون أنا معهم؟ كيف أجرح كل هؤلاء وأبيع مبادئ وضميري في آن؟ دخل البيت بخطوات فاترة، استقبلته زوجه ورحمة وعلامات الدهشة بدت عليهما، ترك الحقيبة ودخل الى الديوان وأشعل سكارته وصار يدخن بشراهة وتوتر، فتحت زوجه الحقيبة وهالها ما رأت.

-سعيد، لماذا أعطاك الأمير هذا المال؟

لم يجب، بل بقي غارقاً في تساؤلاته وبدا صوتها نشاز قطع عليه خلوته..

-ما الذي أعطيته له .. ماذا بعته؟ الأرض .. أم القرية كلها؟

من الذي ألهمها وقال لها أنه باع؟ ليت البيع كان كما تقولين، بل أعطاه بضاعة أكبر من القرية.. قرية العجائب والحكايات الأسطورية، ليت كان ما قلت يا أم أسامة .. رفع بصره نحوهما، ونظر بإمعان الى رحمة فرأها تطفح بالبراءة، وداعة تشبه زهرة في الربيع، هذه السمراء الجميلة كانت

الثلث، هذه الحسنة ستؤول لهم، (ألم يكفك يا سعيد ولدك الوحيد لتضحى بابنتك الوحيدة أيضا) قال سعيد لنفسه ، فأشار الى رحمة ولم ينطق بل أشاح بوجهه الى النافذة.

فلطمت أم أسامة خديها، وشهقت، ثم قالت:

-بعت ابنتك يا أبا سعيد؟!

لم يجب..

-كيف سولت نفسك ذلك؟ كيف انزلت وطمعت في المال؟
(ثم بصوت عالٍ): كيف؟
فقال ببطء:

-لم أبعها، إنما زواج على سنة الله ورسوله.

-وبمن ستتزوج؟

-طلحة بن أبي عبد الله النجدي.

بدأت رحمة تبكي، أمها هي الأخرى بدأت تبكي وتتكلم معه صارخة.. سمعت أم جواد صياحهم فقلقت، بل زاد الأمر وتحول الى عراق، كان سعيد قد بدأ يضرب زوجه وهي تصرخ به. أجود منهمك في الكتابة والاستساخ، فلما سمع الصوت قام يصيح السمع، لبست أمه عباءتها وخرجت، لحقها، فقالت له: سواف نسوان عد.

لما دخلت رأت منظرًا مريعًا، سعيد يمسك زوجه من رقبتها بيد وهي مبطوحة كالخراف أوان الذبح وبالييد الأخرى يضربها بلا هوادة، ورحمة كالضائع تدفع به فلا يتزحزح، فهرعت نحوه ودفعته بقوة فاندفع عنها، وأقامتها وسقتها ماءً وغسلت وجهها.

مرت ساعة وأجود وأخته وأخوه الآخر ينتظرون، هجعت الأصوات ولم يعد يسمع من بيت عمه ولو همساً، قال لأخته: يبدو أن أُمي هدتهم.

عادت أمه وهي منقلبة الوجه، سيئة المزاج، غضبى، فقالوا لها:

-ماذا هنا؟

-مصيبة ووقعت على رأسنا.. مصيبة.

-ماذا هنا؟

-رحمة!

فلما نطقت بذلك الاسم شحب وجه أجود وبدا كالمسوع لا يولي على شيء:

-ما بها قولي..!

-ستتزوج ابن الأمير...

في تلك اللحظة أظلمت الدنيا في وجهه وبدت كالسراب.. لا صدق فيها، وإذا به يقف مصدوماً لا يعرف ماذا يفعل، هل يعقل؟ رحمة تذهب لذاك الداعشي؟ هل جن سعيد..!

فانطلق الى داخل الغرفة وأخرج البندقية متجها الى بيت عمه.. مسكت أمه وأخوه وأخته به، وهو كالبحر المائج.. بل كالثور الهائج..

-قف الله يرضى عليك لا نريد مصيبة..(قالت أمه)

فاستدار نحوها:

-ياخذ حبيبتي مني وتقولين: قف!

-ابنته وهو حر بها يزوجها لمن شاء.

-لا، بل هي لي، واليوم سيكون آخر يوم في عمره إن اصر على جنونه، ما به عمي هذا ..هه؟ قد جن وراء أمواله الضائعة.

وخرج فائراً ثائراً، وقف أمام باب بيته وأمه من خلفه تصرخ وتتادي: الله أكبر الحقونا يا ناس..

فسحب بندقيته وصاح: لك اطلع.. تبيع ابنتك؟ أنت لست رجلاً. وبدأ يضرب بالهواء. فلما سمع سعيد أخرج مسدساً وصرخ: أنا آت يا ابن ال..

فخرج سعيد وهو يحمل مسدسه فلما رآه أجود قال له: سلمت ولدك لهم قلنا ولده وهو حر، لم تسأل عن ابن أخيك الذي أمنك على أهله وماله فضيعت الولد وسطوت على المال قلت قدر وهم أقوى منه، ولكن أن تبيع من هي من نصيبي فلا، لن أسمح لك ببيع حبيبتي بالمال وإن كانت ابنتك.

فقال سعيد والغضب يتطاير منه:

- اغرب من هنا أيها الوضيع وإلا جعلتهم يعدمونك مع ابن عمك.

فقال أجود:

-تفعلها وأنت النذل الخسيس.

-لا أحد خسيس سواك يا ابن ال..

-تشتم أبي فوق سرقتك لمالنا وحلالنا! لم أر ناقصاً مثلك.

-تأكل من خيري وتهجم علي...!

وسحب أجود بندقيته ثانية الموجهة على عمه ووضع سعيد يده على الزناد ويلمح البصر دفعت أم جواد بندقية ولدها لتتطلق رصاصاتها على الأرض وعمه في نفس التوقيت أطلق النار لتصيب كتف أم جواد!!

كأن الحياة توقفت في عين أجود لا يعلم ماذا يفعل وبينما استعاد وعيه ورأى يد أمه تشخب دما وهي تتأوه وتتلوى متألّمة أراد أن يرمي عمه ثانية فمن يجيرمه؟ وقبل أن يرفع بندقيته كان جنود التنظيم بقيادة أبي قتادة قد قدمت هائجة مرتاعة، ونادوا: أجود ارم سلاحك..

ولم يرههم حتى كانوا قد حاصروه، ثم انتزعوا منه السلاح وكبلوه، فقال بصوت باكٍ:
-أمي.. أمي .. انقذوها.

-لا عليك سنتكفل بها . خذوه . (قال ابو قتادة).
ليعود مرة ثالثة الى ظلمات السجن.

-٢٤-

-لا يا سعيد لا، لم أعلم أن أجود ابن أخيك يحب رحمة، هذا مجنون، لعل شيئاً خاصاً بينهم.
قال ذلك ابو عبد الله في صباح اليوم التالي وبغضب.
فقال سعيد:

-حاشا .. شاب طائش ومجنون.

-اذن يبقى في السجن الى حين.

-لا، اقترح أن تطلقونه...

فقاطعه بغضب:

-نطلقه؟! هذا مجنون..

-لا أن تطلقونه حرّاً هنا، تخرجوه من السجن فينزع هو وعائلته الى سامراء مباشرة، لن يبقى هنا ويسبب مشاكل لنا وأمامنا عرس.

ففكر أبو عبد الله قليلاً، ثم قال:

-اذن جهز سيارة من سيارتك، وضع اغراضهم ويوم الخميس
نطلقه بهذا الشرط.

-والعرس؟

-في الموعد.



اليوم هو الأربعاء، اليوم سيحاكم علي بتهمة الردة، كان الجو
صحواً، مشبواً بغيوم تغزو صفحة السماء أول الشتاء،
وضعت في حديقة المسجد الكبير في تكريت طاولة، وخلفها
جلس رجل كهل قيل أنه قاض، وعند الساعة العاشرة تجمهر
الناس حوله، وكان رجال القرية كلهم قد وقفوا ينظرون،
تحسين يعلوه حزن كئيب، أبو حازم، سعيد وهو مذلول خائف،
الشيخ عمر وهو يحوقل ويدعو الله ولا يعلم أحد لمن يدعو،
أسامة شاك سلاحه لأي طارئ ويبدو أن عطفاً لاح في وجهه
فجأة.

وجيء بعلي مكبلاً مصفداً، وشكله كأنه جاء من أهل القبور،
شحوب مرعب، جسده ضئيل هزل كأنه لم يذق طعاماً منذ
دهور، وشعره كثيف وعال ولحيته طويلة قذرة كأنه لم يمس
الماء منذ أودع السجن. وضعه الجندي أمام القاضي. حتى أن
أحد الناس تهامس مع الذي جنبه قائلاً: سبحان الله، من
كفره انظر كيف نسخته الله!

فقال القاضي الكهل:

-أنت هو (علي سالم عباس)؟

فجاء صوته متعباً منهكاً بعيداً:

-أجل.

-هل أنت حقاً صاحب هذه الأقوال والآراء الشاذة الكافرة؟

فقال ببطء:

-عندك آراء كافرة، وعندي مؤمنة أشد ما يكون الايمان!

-هل تؤمن بالله الواحد القهار؟

-أؤمن بالله لم تعرفوه ولم تعبدوه، اله الرحمة لا القتل، وكفرت
بالحكم الذي تعبدونه، الذي تقتلون باسمه وتغتصبون، تحلون
وتحرمون، وكله باسمه.

-هذا كفر صريح!

-سمه ما شئت، فلن يختلف المعنى! الأديان التي أتيت بها ..

فقاطعه القاضي:

-لم نأت بها، بل هي من عند الله، أنزلها على أنبيائه ورسله
وبعثهم لإنقاذ البشرية من ظلامها وظلماتها.

-الدين يعطل الفكر، بل إن الأديان تجرد الانسان من قدرته
على طرح السؤال، ما أدى الى زيادة الشعوب الجائعة المريضة
الجاهلة في المجتمعات الاسلامية، دون أن تحاول التغيير،
لأنها تقدس التعاليم والمفاهيم والتقارير التي أدت الى ذلك
الوضع المزري..

فهاج الحضور ورماء بعضهم بقاذورات، فصاح القاضي:

-سكوت .. يا حرس امنع المشاغبين .. أكمل.

-لم يستطع العالم الغربي أن يتجاوز حدود برمجته الا عندما

أمتلك القدرة على أن يطرح أسئلة، وكذلك بعد عزل الدين عن الدولة، الدين لله، انظر اليهم عندما تركوا الكنيسة، انظر الى روسيا الكافرة وامريكا وبريطانيا.. وانظر الى البلاد التي تحكمونها أو حكمتوها: أفغانستان سوريا وجزء من العراق وليبيا، سادها الجوع والخوف والجشع والجهل، وفك بهم المرض.

فقال القاضي بعد أن سمعه وأطال التروي والانصات قال:

-المتهم (علي سالم عباس) بعد أن ثبتت ردتك، وأعلنت كفرك على رؤوس الأشهاد ادعوك للتوبة والتراجع، وأن تشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله، وتؤمن بما انزل على محمد وعيسى والنبيين من قبلهم وتؤمن بالقران. ماذا تقول؟

-كفرت بربّ أنتم خلفاؤه!!

فقال القاضي:

-الحكم النهائي: قررنا نحن قاضي المحكمة الشرعية في تكريت في الدولة الاسلامية الحكم على المتهم (علي سالم عباس) بالإعدام لردته وكفره بالله، وينفذ الحكم فوراً أمام الناس!

وعلت التكبيرات والهتافات، أما سعيد فبكى، وكفف أسامة دموعه. وقادوه أمام الجامع واجتمع خلق كثير. فأعطى أبو قتادة أمره بإعدامه!

واحنى رأسه يائساً مستسلماً للقدر الذي كتبه بنفسه كما يظن، وتقدم ملثم واستل سيفاً صقيلاً لامعاً، فتقدم نحو ابو قتادة فقال له بصوت خفيض:

-لو آمنت بالله.

-آمنت الآن بربي لا بربكم.

-ماذا تشعر الآن بايمانك هذا؟

-الحب!!

فضحك أبو قتادة لسذاجته وسمعه وهو ذاهب ليفسح مكان
للجلاد ينشد بيت الحلاج:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا

وتقدم الجلاد بسيفه ورفعته ثم أهوى على رأسه فراح رأسه
يتدحرج وجسده يرش دمًا ويرفس. وسرعان ما لبدت السماء
بالغيوم وانهمرت بسخاء غير معتاد!

-٢٥-

كانت أم جواد تجلس على الأريكة ويدها مشدودة لا تستطيع
حراكها، لم تتعاف بعد بشكل تام، ولكن سعيداً أمهلهم أن
هذا اليوم هو الأخير تشير الى ابنتها: احلمي الشيء المهم
والخفيف. تنظر في أرجاء البيت في كل شق وكل شبر
ذكرى، هنا كان صخبهم وضجيجهم، هنا الأصوات المتعالية
والضحكات المجلجلة، والقهقهات والنكات والسخرية اللاذعة،
هناك كان علي يسمع أوامرها وينصت لها ويطيعها، وهناك
كأن يأتي سعيد ويتصايح معها فتأتي عمتها حمدية وتفض
النزاع وتتنصر لولدها، هنا كانت طلة الغائبين: جواد وأجود.

خرجت تحمل الأغراض الى السيارة، أخبرهم أسامة أن
السائق سيأخذكم الى الشارع العام وستجدون أجود هناك،
وقبل أن تركب رأت سعيداً يداعب مسبحته ويقف شامخاً
وقفه لم يقفها كسرى أو قيصر، ثم نظرت الى التلة، فقالت:
أين أنت يا عباس، ليت تأتي وترى ذريتك ماذا حل بها،

ليتك تعود وتري ابنك المدلل كيف فعل بنا . ثم قالت بصوت عال: حسبي الله ونعم الوكيل على كل ظالم .. حسبي الله . ركبْتُ سيارتها وذهب وإذا بسيارة أبي عبد الله ورهطه قادمين للخطبة، فرحب بهم ودخلوا .

قضت الطريق بين البيت والشارع العام وهي تنشج وتبكي، الى أن وصلت الشارع وكانت صلاة العصر قد انقضت واقتربت ساعة الغروب وإذا بأجود واقف . وقفت السيارة، لم يركب بل ركض الى أمه قبل يدها :

-كيف حالك يمة ؟ لم البكاء؟

-بخير ، اصعد معي .. اصعد ..

-لا، لن أصعد، عندي حساب ويجب أن أصفيه!

-حساب؟

-اي .

-لك ابني لا تورطني، اصعد لا أريد خسرانك .

-لن أذهب قبل أن ارى رحمة!

-رحمة راحت .

-سأموت كمداً وحسرة إن لم أرها وأقول لها أحبك لا تستسلمي له .

-لا، اصعد .

-انتظريني .. ساعة وأعود .

-طعني ولو لمرة واصعد .

-سأعود لأن ان لم أذهب قد انتحر .

فصرخت باكية:

-لا .. لم تعذبني.

-ادعي لي.

-أجود!

ثم انطلق الى الحقول مسرعاً نحو بيت سعيد.

كان سعيد قد قدم ضيافة وبدأوا باجراءات العقد وتفاصيله،
رحمة في غرفتها تلبس الفستان الأبيض وتبكي. وصل أجود
الى تلة عباس من جهة الحقول وصعد الى خلفية بيت عمه،
كانت غرفة رحمة في الطابق العلوي ولها نافذة على الحقول
والتلة، تسلق الحائط فصار وجهه أمام شباكها، دقه وإذا
برحمة متزينة بالفستان الأبيض، فقال:

-رحمة.. لا تتزوجيه، أحبك رحمة..!

-وأنا أيضا أحبك.. (قالت وهي مرعوبة من هول المفاجأة).

وبلحظة مجنونة منه قفز وإذا هو بغرفتها! فبدأ يبكي معها
ويقول:

-أحبك ولن أسمح لهم بأخذك!

-وأنا ايضا..

والتصق بها وهو يبكي وعلا صوتهم، وإذا بأما تأتي وتسترق
السمع وبدأت تدق الباب دقا عنيفا ولكنهم كانوا غارقين في
البكاء وعاطفة جياشة.

فهرعت الى الديوان وقالت: أجود فوق عند رحمة.. أنجدونا!

وقام الرجال كلهم اسامة وسعيد وابو عبد الله وابو قتادة

وطلحة وسائر المسلحين من رجالهم، وبينما تنأهى لسمعهم
وقع الأقدام الهائجة صرخت به:

-اهرب سيقتلونك!

-لنهرب معاً.

-لن اقدر على الهرب والركض.

-السيارة تنتظرنا.

-لن أقدر.

كانوا قد صعدوا الدرجة وهم هائجون، فصرخت به:

-اهرب.

-لكن سأعود.

وصلوا الباب فقفز أجود من الشباك الى الحائط وخرج،
فضرب سعيد الباب بسلاحه ففتح على مصراعيه، وكانت
وحدها مرعوبة، فركضوا كلهم الى الشباك لكن الغروب قد
ألقى بظلاله، وهرب أجود، اطلقوا النار من الشباك في
الظلام المرخي سدله وبخفة ساعة الغروب الأولى.

القسم الثاني

١

الطرق المعتمدة

مات الفضاء سوى بقايا من مصابيح الطريق
مبهورة الاضواء تنصب في جداول من بريق
صفراء تخنقها الظلال على فم الليل العميق
السياب

-٢٦-

كان أجود يتابع انهمار المطر من غرفته ويرى ما يفعله الهطول الكثيف في مسكنهم الطيني، لم تكن نافذة يتابع منها، إنما شق في الحائط وضعوا عليه زجاجة لتقي قيظ الحرّ ولساعات القرّ، كالعادة سيطنع البيت، وتتعكس الرطوبة عليهم، بل سيتسلل الماء الى مسكنهم. السماء ما زالت تزمجر غضباً، والمطر لم يتوقف منذ ساعات الصباح الأولى وإن لم يدفع الماء عن مسكنهم قبل الليل فسيسبب مشكلة، قد يسقط البيت عليهم. (لم تهدم طائرات التحالف بيتنا، ولكن سيهدمه المطر) هكذا هتف أجود في نفسه.

-يَمَّةٌ سنغرق، اخرج مع أخيك وادفعوا الماء عنا.

خرجا الى فناء البيت الذي انقلب الى وحل وطين، إذ مسكنهم أسفل من الشارع، فكلما فاض الزقاق اندفع الماء الى بيتهم، البيت لم يكن مبنياً على أساس عال وممتين، بل صاحبه كان صعلوكاً معدماً لا يملك سوى الأرض وكان يسكن في ارض غير أصلوية، فأئت البلدية وطردتهم من ذلك المكان، فبنى بيته من الطين، ولكن بعد سقوط الموصل وتكريت بدأت حملة اعتقالات طالّت كل المسجونين سابقاً بتهم ارهابية، وكان هذا الرجل من أصحاب السوابق، فأجر البيت لهم وفرّ قبل أن يلقوا القبض عليه، غاب شهرين ولم يأت الى الآن ليستلم

الإيجار علمًا أنه بخيل، قد يكون مسجونًا، لا يعلمون، المهم هم يجلسون في البيت ولم يطالبهم أحد بالخروج أو ترك البيت أو طلب الإيجار حتى. وصاروا يقذفان بالماء الى الشارع بالطشت. كان البيت عبارة عن غرفة واحدة متأكلة ورائحة الرطوبة تزكم المكان ولكن لا يملكون مالًا ليعيدوا تأهيلها، وهذه الغرفة الداخلية هي في غرفة كبيرة، تلك الغرفة الكبيرة هي مطبخ ومكان الجلوس، وكذلك ينام فيها أجود وأخوه، كانت أمه جالسة تحتسي شاي العصر مع بتول، مدفونة بالسواد، وجهها لم يبارحه الحزن، والمرض الذي آزر ذلك الحزن وشدَّ أزره هو الآخر ضيف ثقيل عليها ولم يرض أن يبارحها. كيف لا تكون فريسة للأحزان وكل شيء ضاع؟ منذ دخلت سامراء ويعيشون عيشة الكفاف على الصدقات والمنظمات الإغاثية، حتى صاحب المولد، زودهم بالكهرباء مجانًا، لكن ما يحز في النفس هو ذاك الضياع والتشظي لعائلتها، خرجت تلك العائلة صفر اليدين، لا مال تستقوي به على الغربة، ولا قريب تركن إليه وتتقوى به إلا خالها حسين وهو الآخر يعاني ما تعاني ولكنه يمتلك على الأقل سيارة يعمل فيها تكسي، جواد لا خبر عنه، بل كأن العائلة كلها اقتنعت بغيابه وخلعت ثوب الحزن والحداد إلا هي، تذكره كلما جلست على المائدة وكلما وضعت رأسها على الوسادة فتتمضي في بكائها المكتوم محاولة أن لا تحزن الباقيين، ولكن شهقاتها دائمًا تقضحها، فما أن تستدير حتى تجد بتول ماضية هي الأخرى في ذلك البكاء المكتوم. لما نزلوا سامراء وجلسوا في هذا البيت تجلى ذلك السؤال كتكملة للوحة البؤس التي كان القدر قد رسمها لهم ولتطوقه الحناجر المتحشجة بصوت أسيف: كيف سنعيش؟! ذلك السؤال بقي مسيطرًا على العائلة يطوفون حول جوابه في

فلك تلك المدينة البائسة، تلك المدينة كانت تعاني من الإهمال وتردي الخدمات، ولكن لها قدسية في نفسية مهدية لسبب بسيط، وهو وجود آل البيت هناك، وكم كانت تحبهم وتحلمهم وتراهم بركة تنير عتمة بؤسهم، ولن تنسى تلك السكينة التي حففتها عندما دخلته أول ما نزلت المدينة قبل شهرين، كان الطريق طويلاً، محفوفاً بالمخاطر، فالتأثرات تحلق فوقهم وتتصيد رجال التنظيم، الجيش يراهم مطلوبين بل أعداء يتوجس منهم خوفاً، والتنظيم كذلك يخاف منهم فأين المفر؟ لما وصلت سيطرة سامراء قرب صلاة العشاء في ذلك اليوم الخريفي وهم يحملون ذلك الكم من القهر والعوز والألم تفاجأوا أنّ الدخول ممنوع في ذلك الوقت، ويا ويلها من ساعة، كانوا يظنون نهاية العذاب وإذا به أوله، كانوا يظنون أن طريق النجاة قد لاح وعهد الأمان قد بسق وإنهم سيتظللون بظلاله ولكن كل ذلك لم يكن، وجدوا مئات العوائل واقفة، موغلين في ذلك العوز والألم، تلك التي فقدت ولدها فتذكرته فجاءت نادية باكية، وتلك التي قُتل زوجها فأقامت في طابور الانتظار ذاك مائماً وعويلاً، وذلك الذي خسر ثروته فجاء حافياً إلا بروحه التي عزَّ عليها اللحاق بثروته، وهناك أطفال يلعبون ويزعقون غير عابئين أو مكترئين بما حولهم، ولكن الشعور الذي ساد المكان وسيطر عليهم أجمعين هو الخوف؛ الخوف من أن لا يدخلوا سامراء في هذه العشية التي بانَتْ أنها لم تسفر عن خير، والفرع الأكبر الذي كان يرعبهم أن يطردوا فلا يسمح لهم بالدخول أبداً، فأين يذهبون وهم الفارون من الموت؟ أين يذهبون بعد أن ضاقت بهم السُّبُل ولم يبق إلا هذه المنفذ؟ الشيء الذي كان يحز في النفوس أنهم فقراء لا يملكون ما لا يوصلهم لكردستان أو تركيا أو أي

بلد آخر، وإن لم يدخلوا سامراء فكل شيء هو موت، من لم يموت على يد التنظيم فسيموت على يد الجيش، وإن نجى من الاثنين فسيموت بصاروخ من صواريخ التحالف، وإن نجا من هؤلاء فلسوف يموت في الغربية، في مخيمات الذل وهو يستجدي لقمته. (مؤسف يا بلدي فقد كنا نظنك وطننا وإذا بك غربة قاتلة) هكذا هتف أجود في نفسه وهو يرى الجيش يقف على أبواب سامراء مانعاً النازحين من الدخول. مهدية كانت في السيارة تدعو وتبتهل الى الله أن تدخلها هي وهؤلاء الناس آمنين مطمئنين، كانت تلمح قبة الإمامين مضيئة من بعيد، فهتفت: يا علي، قف لنا، يا علي، نحن ضيوفك وليس من شيمك أن تطرد ضيوفك!

أجود كان يقف صامتاً وهو يسدد نظره الى قبة الامامين، تذكر تلك الليلة التي سمعها في الحكايات التي تروى في قريته، عندما دخل الحاج صبحي مرقد الامام لصلاة الفجر، ووجد طفلاً رضيعاً على بابه، فحمله، يقال أن ذاك الطفل هو عباس جدهم، ويقال أن ولياً وضعه هناك، وقيل لما أخذه الحاج صبحي فاضت أمواله فيضاً ورزق بمال طائل وكل تلك الأعوام التي بقي فيها عباس عنده ومال الحاج صبحي في تزايد حتى نما نمواً عظيماً. فقال أجود لنفسه: ترى هل حقاً كان عباس مباركاً وابن ولي؟ ولكن اخاله ابن سفاح وخطيئة وضع هناك ليلتقطه بعض السيارة. ثم نظر الى دجلة المائل أمامه والذي بدا هادئاً راكداً وسرعان ما استحضرت صورة من حكايات جده عباس .. عندما أراد الانتحار في هذا النهر، فقال بيأس وهو يراقب مجراه: لو انتحرت يا جدي هنا ولم تأت وتبني قرية عجيبة وتترك ذريتك في صراع وعراك أليس أفضل؟ ولكن لماذا سنعود إليها وأنت الذي هربت لا تلوي

على شيء الا الفرار منتحراً؟ أخشى إن دخلنا الى المدينة
هذه تصبنا اللعنة الأولى، لعنة عباس ونخرج منها فارين
وربما نريد الانتحار! وبينما هو يحاور نفسه ويلتطم بأمواج
الذكريات العاتية جاء جندي مكفهر الوجه، فقال قولاً فصلاً:

-لن يدخل أحد الى سامراء!!

فقالت الجموع متوسلة بذلك:

-ليش؟ وين نروح؟

فقال:

-هذه ليست مشكلتنا، المهم أن تذهبوا الان من هنا!

فقالت عجوز:

-بني، هذا الليل قد اظلم وهذا حالنا، نساء وأطفال، وخرجنا
من الموت، فلم يبقَ لنا مكان نأوي إليه فأين نذهب؟

-قلت لك تذهبون، وإلا حسبناكم دواعش!!

-دواعش!!

-احترموا انفسكم واذهبوا!

فعاد السؤال الأسيف:

-الى أين؟

فقال الجندي ضجراً:

-الى الجحيم!

-نحن أهلك.

-اذهبوا الى المخيمات!

قال كلمته هذه وذهب الى مكانه، المخيمات!! فاجتمع الرجال في زاوية ليتناقشوا، كان أجود يستمع دون أن يشاركهم في الكلام:

-اين ستذهب في هذا الليل؟

-لا مفر من الموت!

-المخيمات.

-أي مخيمات؟ تلك المخيمات بعيدة قرب الاسحاقي، وأي أمان هناك؟ أما والله ليأتوا إلينا ويقتلونا ويأخذون النساء!

-النساء!!

-كل شيء الا العرض.

-سنكون قد متنا!

-الأفضل أن نعود من حيث أتينا.

-هذا أحسن شيء. الموت بذلة.

لما كان الرجال قد توافقوا على ذلك رفع رأسه ليرى وميض الطائرة وهي تقصف، هناك في المكان البعيد، لعلها عند القرية، عند (لوعة عباس).. ونحن.. نحن الهاربون من الموت الذين لم يبقَ لهم وطن يلوذون به، نحن الذين نركب مراكب الموت فتكسرت عند هذه الصخرة .. غدونا وحيدين وسط بحر متلاطمة أمواجه، لا مركب ولا وطن .. نحن المنفيون المغتربون الذين لفظهم كل شيء .. الأرض ، المساكن، مراتع الصبا، كلها لفظتهم وطردهم، نحن الذين بدأنا نحلم بموتٍ رخيٍّ بلا ضوضاء أو قل: موتًا بكرامة.. ربما يشبه موتَ عباس بلا صخب.. نحن الذين شُيعت أماننا الرحمة.. مؤسف يا وطني

أَن غَدوت في لحظة غربة.. موجعة.. موحشة.. قاتلة.. تشبه
غربة عباس لما فُجِعَ بالحقيقة.. نحن الذين نرى احلى المرين
هو الموت بهدوء.

فقامت سيدة وسط الجموع صارخة متوسلة: اين أهل الغيرة
والنخوة؟ هل ماتت فيكم؟ يا أيها الجند أنتم معنا أم علينا؟
نحن أهلکم هل نسيتم؟

ولكن لا مجيب!!

كانت الساعة تشير الى العاشرة مساءً، ولا فرج يلوح، مهدية
تدعو الأولياء الذين لم يستجيبوا بعد، والناس منتشرون ولكل
واحد منهم حكاية وفجیعة، هنا يقتصدون بالحزن، ويثرون
بالتفجع، فمن خسر ماله فحسب لا يُعتد بحزنه، الفجیعة
أكبر من ذلك ولا يوجد حزن يكفيهم.

وفجأة أطل رجل عليه سمات الشيخ، فقال لهم: استريحوا
عندي.

كان بيته قريباً من السيطرة التي يقفون عندها، فأخذ كل من
يقف من النازحين الى بيته، كان له ديوان كبير فاستراحوا
واصابوا شيئاً من الطعام.

- ٢٧ -

أَن تترك أرضك وتخرج بروحك يشبه سمكة سقطت في
فخ الصياد وخرجت من الماء؛ في تلك اللحظة كل شيء فيها
يحن ويئن شوقاً للماء، الروح والجسد يتحدان ويجمعهما:
حب الحياة. الروح والجسد يحنان الى (لوعة عباس)، الى
الأماكن.. الى الطرقات.. الى التلة الشامخة وهي تستقبل

الحقول وكأنها عابد صوفي في خلوة تأمل والقرية خلفه تمثل الدنيا الصاخبة.. الى صياح الديكة وهي تزف بشرى الصباح، الى الذين أحبيناهم، حبك يا أرض فطرة، والبعد عنك عذابٌ، هناك كل شيء جميل، هناك كل شيء مناسب لنا، فإن لم نعش حياة كريمة آمنة فسنموت بعزة وكرامة، نموت أبطالاً صمدوا وما استسلموا، أما هنا فكل شيء غير مستقر.

في اليوم التالي صلوا الفجر ثم انطلقوا ثانية الى أبواب سامراء عل الليل حمل نسائم الرحمة على قلوبهم فحنت وعطفت، وعمل المنظمات الحقوقية والاغاثة سعت وأفلحت. كان آخر شيء يفكر به الناس في ذلك الوقت هو أن يتصلوا بمسؤول أو برلماني أو وزير فيطلبوا منه العون، لأن الدولة ضائعة تائهة في فلاة الحرب، كل شيء بيد العسكر، ومما زاد البلاء هم المتطوعون الذين لا خبرة لهم في العسكرية، تطوعوا لما أعلنت الدولة الحاجة الى ذلك، أولئك كانوا يرون النازحين (دواعش)، ينظرون إليهم بازدراء، بل كثير منهم بحقد.. هذا الذي وقف شاهراً بندقيته وصرخ بهم على إنهم (دواعش)!! لما مضى ينعتهم بأنهم ارهابيون صمت الكل خائعين، ولم يجروا أحد على رده، حتى انبرت أم جواد وتقدمت نحوه بكل بسالة غير عابئة إن كانت ستذهب بتهمة بل برصاصة على انها (داعشية) ومن سيسأل؟ بل أين هو الذي يسأل والدولة في عزاءٍ وبلاء؟

-لم تتهمنا هكذا اتهام؟ لم

كانت العيون اتجهت نحوها من عناصر الأمن والنازحين، وأجود كان وراؤها محاولاً تلافي الموقف.

فقال لها :

-أنتم الذين أدخلتم داعش علينا، أنتم الذين نصرتهم
ووطدتم لهم!!

فقالت :

-بل عانينا أكثر منكم بكثير منهم! قل لي ماذا خسرت
بسببهم؟ قل!

-هذا حالنا، نحمل أسلحتنا لنستعيد أرضاً أنتم أصحابها،
لنستعيد ما فرطتم به، قل لي ماذا ربحنا؟ أنا؟ حاملاً هذا
السلاح لأجل أن لا يصل العدو لنا.

فقالت وعيناها اغرورقت بالدمع :

-هل تعرف أنا ماذا خسرت؟ خسرت ولدي الكبير، جواد،
كان جندياً، مثل عمرك يخدم في تكريت، ولكنه فقد في
سبايكر، ولم أعد أسمع عنه شيئاً، هل تعلم ذلك؟ هل تعلم
أني في عزاء دائم لا ينتهي ألماً وحسرة عليه؟ وأنا انظر الى
يدي، انظر اليها كيف هي، قد ضربت برصاصة داعشي وأنا
امرأة!! وانظر الى هذا ولدي (وأشارت الى أجود) ثلاث
مرات سجنه التنظيم الى أن طردونا..

ثم مسكت أجود من قميصه وشقته ليظهر جسده وعليه أثر
السوط..

-انظر إليه.. عذبه التنظيم، وخرجنا لا نلوي على شيء
الا الفرار بهذه الروح وتقول لنا بعد هذا دواعش؟! هؤلاء
كلهم .. كل الواقفين خسروا مساكنهم .. أرضهم .. مالهم..
بل والكثير منهم من خسر عياله ومنهم من تركهم مدفونين
تحت الانقاض أو معدومين، نحن الذين لم نرض بهم، نحن
لم نصل خلف داعشي لنأمن على أراوحنا، نحن تركنا المال

والعيش الرغيد وعبرنا طريقاً متناً به مراراً الى أن وصلنا الى هنا، وأنت تقول لنا: دواعش؟! ما كان هذا أملنا فيكم.. نحن عائدون الى أرضنا، الى قريتنا، لنموت بكرامة، سأعود الى ذلك المجرم الذي ضربني في يدي ليجهز عليّ، وسيعود ولدي في سجن داعش بكرامة خيراً له!

ثم اتجهت الى أجود وقالت له: هيّا يا بني لنعد من حيث أتينا..

قررت أن تعود الى القرية.. الى سعيد.. فقال أجود بيأس: هيّا. وكان قد آمن في قرارة نفسه في المصير المنتظر، ليمت فداءً لرحمة، ليذهب ويقف أمام أبي عبد الله وطلحة عاري الصدر ويقول له: أنا الذي تسلق الى حجرة رحمة، خذوني ودعوها. عندها سيطمأن.. وسيخلص من عذاب الضمير الذي أطبق على روحه منذ أمس الى الآن، رحمة لا تستحق ما سيجري لها. منذ هروبه أمس والى الآن يفكر في رحمة، وأساء ما حصل هو في الليل عندما مضى نصفه، فكر أنهم عقدوا القران فوراً، وأخذوها وهي دامعة العينين الى بيتها، سعيد عمه رماها رمياً وهو يسب ويشتم، وهذا طلحة أخذها الى بيته وربما ضربها وبعدها فض بكارتها وأستلذ بذاك الدم المشخوب، كيف كان شعورها في تلك اللحظة؟ عندما سفح دمه.. عندما ضاجعها.. لا بدّ أنها استحضرتة، ولا بدّ أنها بكّت من ذلك الداعشي اللعين.. كل تلك الأفكار كانت تسيطر عليه في تلك الليلة الطويلة كبؤسنا، التعيسة كوطننا، الظالمة كغربتنا المبكرة.. الغادرة كأرضنا التي تنكرت لنا ونفتنا في لحظة الامتحان الحقيقية! (يا رحمة ماذا حصل لك؟) ذلك السؤال الذي بقي عالقاً في ذهنه من تلك الليلة، كيف واجهت وحشيتهم؟ أه على وحشة هذا السؤال الذابحة!

-خالتي تعالي، ستدخلين!

جاء صوت الجنديّ صداً في أذنيها، كبشرى طال انتظارها.. كسقية ماء عذب لضامئ في يوم قائنظ، هو الإنقاذ من الموت، هو الانتشال والخروج من القبور الى الحياة، من الجحيم الى النعيم، من قلق وهاجس الموت والحياة مع رعب وارهاب التنظيم الى حياة هادئة نسبياً، بل مرفهة قياساً بالقرية في هذه الأيام، كان نداء ذلك الجندي أشبه بضوء الصبح إذا فجع الليالي المعتمة، بل هو النور الذي يتجلى في آخر النفق المعتم؛ إذ يخرج من طبيعته كضوء ليكون في ذلك الوقت حياة أخرى.

فتقدمت سيارتهم قاطعاً تلك الجموع الفقيرة القابعة تحت وهج الشمس والذي بدا يوماً حاراً، كانت الناس تنتظر إليهم متعجبة حاسدة لهم على هذه النعماء، فلما بلغا مدخل السيطرة سألهم الجندي:

-حاجة من أين أنتم قادمون؟

-من أطراف تكريت.

-أعلم، من أي مكان تحديداً؟

-من قرية «لوعة عباس».

ذهب الجندي وغاب برهة، فعاد مكفهر الوجه.. فقال أجدو قبل أن يأتي الجندي:

-لم قلت لهم من لوعة عباس؟

-لم؟

-ألا تعلمين أن القرية مأوى قيادات داعش!..

-....!

-قولي من تكريت.. الزلاية.. العباسية.. لوعة عباس لا.

-وما يدريني.

-سنبدي قيل وقال وقصة طويلة.

وصل الجندي، فقال:

-الكل ينزل للتفتيش.

فنزلوا وبدأوا يفتشون السيارة تفتشاً دقيقاً، وأتوا بكلب يشم السيارة. ثم أشار الجندي الى أجود: تفضل معنا الى التحقيق!

(تحقيق!!) هكذا هتفت مهدية مذعورة. ودخل معهم الى غرفة في السيطرة، وبقيت باقي العائلة تنتظر. وطال الانتظار وبدأ الناس بالدخول تباعاً بعد أن بذلت المنظمات الحقوقية وعانت ما عانت وتوسلت حتى سمح لهم، لقد شاهدت مهدية وهي تجلس في السيطرة أشياء يشيب لها الولدان، ذلة لم ترها، وكأن الجند كانوا يرون أولئك الداخلين مواطنين من الدرجة الثانية، كان أولئك الجند يعاملونهم على انهم المسؤول الأول عن دخول التنظيم الى البلاد وجر البلاد الى حرب طاحنة لا أوار لها، سيل من الشتائم لكل من مرّ، تهديد بالسجن أو الاعدام إن بدر منهم أي ريبة، كل ذلك مع الشتائم المقذعة الخادشة للحياء بل منها الطائفية أيضاً عابرين كل الخطوط الحمر. وبقوا منتظرين الى أن خافوا، لعلهم سجنوه، لعل سينطق بما عنده عن القرية فيتشبهوا به، وقامت مهدية تتهاذى نحو دجلة فرأته في ذلك المساء هادراً عنيفاً، ورأت الامامين شامخين يتحديان الزمان ورأت علامات الحزن تكتسي على ملامح

المدينة، فلا عمران يسحر الالباب ولا طبيعة تريح وتشرح النفس، لكن فيها أمانا افتقدته باقي القرى.

كانت الساعة قد تخطت التاسعة والسيطرة أغلقت أبوابها وأجود لم يخرج والجند ما زالوا متعاطفين معها وقضيتها، وقد عرضوا عليها أن تدخل وحدها وتذهب الى المستشفى وتعالج جرحها لكنها أبت كما ستأبى كل أم غيور مكانها. في تلك الساعة خرج أجود مع ضابط برتبة عقيد، كانت ملامح ذلك الضابط فارع الطول تتم عن طيبة، فوجهه بسام، وشاربه الخفيف المحفوف بشيب طفيف زاده رصانة ولكنها أقرب الى الطيبة منها الى الصرامة. فقال:

-حاجة، متأسفون جداً للازعاج، مسائل ضرورية.

-عادي سيدي، المهم عاد ولدي.

فاحتضنته بشغف والدته. فقال الضابط:

-أعاد الله لك جواد سالماً وأقر عينك به.

فقال ذاهلة:

-تعرفه؟

- أنا العقيد محمد السامرائي، كنت المسؤول عنه، وكان جندياً مخلصاً، نعم التربية والأخلاق.

فقالت مهدية بعيون دامعة:

-ولدي... جواد، متى يعود؟!

-لم نعرف عنهم شيئاً الى الآن..

قد كذب العقيد هنا، فقد وجدوا جثثاً في دجلة للمفقودين،

ووجدوا أكثر من مقبرة جماعية ولكن لم يجدوا رفاة جواد الى الآن، لم يرد العقيد جرحها وشغل بالها.

-البركة في أجود وأخيه..

-إن شاء الله.

-يؤسفني أن أقول لكم أن سيارتكم لن تدخل سامراء! ممنوعة!

-ولم؟

-لأن تلك المنطقة تسبب قلقا كثيرا كما تعلمين، وبعد جهد بذلته منذ العصر لم أحصل على موافقة دخول السيارة ولكن عبثاً ولكن خرج أجود وهذا المهم، وكذلك ستدخلون سامراء آمنين مطمئنين، وهذا كرّتي فيه رقم هاتفي وعنواني، عندما تحتاجونني اتصلوا عليّ، أو ابعثي أجود، سأكون في الخدمة.

-شكراً سيادة العقيد، لا أعلم كيف أرد جميلك.

-ترديه بشيء واحد.

-...؟

-أن لا تثيروا القلاقل هنا، الحديث للولدين، لأن العيون مفتوحة على النازحين، فكيف بكم وأنت آتون من أكثر المناطق سخونة؟ ولكن على العموم فعلتم خيراً عندما أتيتم هنا، لأن قريتكم ستكون أرض قتال وصراع دام.

-والآن انزل الأغراض يا أجود من السيارة ولنذهب.

-لا يوجد سيارات تذهب من هنا، ولكن في الصناعي ستجدون تاكسي، صحيح أين ستذهبون؟

فقالته مهدية:

-خالي هنا وسنقيم عنده.

-خيرًا إن شاء الله.. استودعكم الله.

وحملوا اغراضهم والتي كانت عبارة عن حقائب ملابسهم فحسب، أجود وجودت وبتول وأمهم المتعبة، ثم مشوا على الجسر ذي الأضواء الخافتة ودجلة تحتهم متلاطم أمواجه غاضب هادر، وأمامهم المدينة الكثيبة التي بدت هادئة حزينة لائقة بالمشردين أمثالهم، الفارين بأنفسهم، الذي لا يملكون مالا أو جاهًا، بل همومًا لو حملتها الجبال الراسخات لوهنت وشكت من ثقلها بل عليها تأبى حملها كما أبت حمل الأمانة من قبل، ويحتضر أجود كلمات السياب التي نزلت نزول الغيث العذب على الأرض الصالحة.. نزلت نزولًا لائقًا ببؤسهم:

مات الفضاء سوى بقايا من مصابيح الطريق

مبهورة الاضواء تنصب في جداول من بريق

صفراء تخنفها الظلال على فم الليل العميق

-٢٨-

خال مهدية السيد حسين كان فيه مسٌّ من الجنون والحكمة معًا، شيء من اللامبالاة، وكل ما غضب — أو خيل إليهم أنه غاضب — قال كلمته التي كانت جزء من شخصيته: طز! يرتدي الدشداشة والشماع الملفوف على رأسه بطريقة رديئة وغير مرتبة، يدخن بشراهة، يسكن خارج سامراء على الطريق العام، كان يمتلك مطعمًا ممتازًا على طريق الفلوجة، للمسافرين والداخلين لسامراء للتجارة، ولكن داعش أرسلت سيارة مفخخة على المطعم فوئد المطعم وغدا رَمَادًا تلعب

به الريح، وكم بكى وندب وتحسر عندما شاهد مطعمه وهو يتفجر في مقطع نشره التنظيم على اليوتيوب على إنها عملية جهادية؟ بعد ذلك لم يعد يبالي بالدنيا كيفما دارت، يمتلك مالا كان قد كنزه من مطعمه، فهاجر الى سامراء واشترى بيتاً متواضعاً وسكن فيه وعمل سيارته تكسيا ولم يستسلم للحسرة بل اتبع اللامبالاة، عمره في السادسة والخمسين ومع ذلك له عبثية أبناء العشرين في كثير من الأحيان وحكم العلماء الراسخين أحياناً أخرى. الخال حسين لم يرزق الله الا بولد واحد وهو مصطفى الذي هاجر الى السويد بعد سقوط العراق عام ٢٠٠٣م، ولكن الخال حسين لا يحب السفر، فلم يرَ ولده منذ أحد عشر عاماً الا مرة واحدة قبل اربع سنين، وندم أشد ما يكون الندم على تلك الرحلة، إذ ركب الطائرة، ويا هول ما رأى وما شعر من رعب وخوف، وحلف إن نجاه الله من هذا البلاء فلن يركب الطائرة مرة أخرى، وهو ماض في بر يمينه، فعندما حصلت الكارثة المهولة في حياته بتفجير المطعم قبل بضعة شهور اتصل به مصطفى ودعا أن يأتي الى السويد عنده ويعيش معه، وأخبره أن المال الذي يملكه كفيلاً بأن يؤمن له عيشة رخية، لكن الخال رفض أشد ما يكون الرفض، بعد أن هاجر مصطفى بقليل توفيت زوجته فبقي وحيداً، وشرع في البحث عن زوجة صالحة، وكلف مهدياً في ذلك ولكنه وضع شروطاً قاسية للزوجة القادمة، فطلب أن تكون في الثامنة عشرة من عمرها وهو قد تجاوز الأربعين آنذاك، فلم يعثر عليها، ومضى العمر سريعاً به ولم يتدارك نفسه الا بعد بلوغ الثالثة والخمسين عندما تنازل عن الشروط كلها تقريباً وتزوج بشري ذات الواحد والأربعين عاماً، بقي ينتظر الولد ولكنه لم يرزق الى الآن به، الخال

حسين كثيرًا ما بكى بكاءً مرًّا في الهاتف عندما يتحدث مع مصطفى، يقول له: عد، أريد أن أرى ذريتك، لكن مصطفى يرفض ذلك، ولما حدثت نكبته وتفجر المطعم وجاء سامراء تبني كلمة تعبر عن حاله: طز.

-يا أم جواد هذه الحياة، انظري الى حالي، لا ولد ولا تلد ولا مال لدي... طز بالحياة التي نعيشها، ليتني كنتُ في المطعم ومتّ فيه!

فقاطعه أجود قائلاً:

-لمَ يا خال لا مال؟ أين ذهبت الفلوس التي كنت تجمع بها من المطعم؟

-لم يبقَ أي فلوس، كلها راحت على البيت هذا والزواج والسفرة قبل سنين الى السويد، ومصطفى هذا الذي أبعث له كل شهر..

-ألا يعمل؟

-يعمل ولكن أي عمل؟ يعمل محرراً في جريدة يومية محلية، يعني موظف بسيط وراتبه بسيط، ومعه زوجة وأولاد ماذا تكفي؟ الحياة يا خالي هناك مكلفة قد لا تعرف.. ما المنة والمتنا دولار؟ لا شيء!

كانوا قد وصلوا الى بيته في تلك الليلة الشاقة، ففتح الباب وأدخلهم في الصالون، ودخل الى الداخل، وصار أجود واخوته يلتفتون في أنحاء الصالون، كان بسيطاً لم يدخله أحد منذ مدة، وفجأة ترامت الى أسماعهم أصوات خفيضة، فوثب في ذهنهم ذلك الخاطر الذي حاولوا ابعاده، وأصاخوا السمع الى تلك الأصوات التي علت فجعلوا؛ كانت أصوات الخال

حسين مع زوجته التي غضبت لأنه أتى بهم الى هنا، وتعالَت الأصوات فاعتلجت نفس مهدية بالقهر الذي أبى أن يبارحها .. ولكن إن طردهم خالها أين يذهبون في هذا الليل؟ الساعة العاشرة والنصف ..

-يعني سيبقون عندنا الى متى؟

-أقول لك بنت أختي مهجرة هي وعيالها ووصلت تَوًّا وتقولين متى يذهبون؟

فقالَت بغضب:

-لا استعداد عندي لأخدم أربعة أنفار لا أعرفهم، فليؤجروا بيتًا، البيوت كثيرة، ادفع لهم أنت الأجرة.

-قبحك الله من امرأة رعاء، اذهبي الآن واطبخي طعامًا وإلا لن تبقي اليوم هنا هيَّا.

ثم جاء الخال مرتبكًا، فقال:

-بشرى طيبة لكن فيها عرج جنون، هي لا تعرف قدر الناس، وقصتها قصة لم أعرف قصتها الا بعد أن تزوجتها، يعني فوق الأربعين ولم تتزوج، أنا — وهذا من غبائي — لم استفسر أو أسأل لماذا لم تتزوج الى هذا العمر، تعرفين يا أم جواد ما كنت فيه من حالة كئيبة، كنت أحتاج لامرأة تداريني وتحمل عني هموم هذه الحياة، بعد أن تزوجتها تبين أن فيها حالة نفسية وانطوائية لم تلتق برجل لسنين طوال، وكانت ترفض أن تتزوج، الى أن كبرت وولّى شبابها حتى تداركت نفسها وقبلت بي، فلما أخذتها أنا عادت لها تلك العادة السيئة والانطواء والغضب من الضيوف أو الغضب من أي بشر كان، حالة عصبية وستزول لا تقلقي ..

كانت مهدية وأولادها يهزون رؤوسهم موافقين وهم يعلمون أن الخال بدأ يكذب أو يدلس الحقيقة ليغطي على ما سببته زوجه من إحراج، يعلمون أنه لا يتورع عن الكذب لينقذ نفسه لكنهم لم يعترضوا أو يجيبوا بغير الدعاء بالشفاء لها، لأنهم إن انتصروا لكرامتهم فوراً يعني يخرجون بلا مأوى في ليل سامراء المخيف بعد أن حان وقت منع التجول! وضعت الطعام، كان بسيطاً، عبارة عن باذنجان وبطاطة وطماطة مقلبات مع الكبة، وكان وجه بشرى عبوساً سلمت عليهم بتكلف. وضعت مهدية رأسها على الوسادة وهي تفكر، في الغد يجب أن تجد بيتاً لتكتريه، فليلة واحدة من الذلة كافية، (زوجته تضع لنا هذا الطعام ونحن الذين كنا نذبح خروفاً كلما أتى، أي يا خالي بعد انتظار أكثر من عقد بعد أم مصطفى رحمها الله أتتك هذه الشمطاء وفوق هذا تدافع عنها.) هذا آخر خاطر قبل أن تستسلم للنوم بعد بذلك اليوم الطويل.

في اليوم التالي ومنذ الصباح الباكر ركبت مهدية مع خالها وأجود معهم باحثين عن بيت مناسب يكترونه، فقال الخال حسين وهو يتجه نحو صديق له صاحب محل عقار:

-مهدية، كم هي قدرتك، يعني كم تدفعين في الشهر؟

-والله يا خال أنت تعلم الحال، مائة ألف هذا ما أستطيع دفعه.

فقال ذاهلاً:

-مائة ألف!!

-ما بها؟!

-قليل جداً، الايجارات هنا صعدت صعوداً فاحشاً، خاصة

بعد دخول هذا الكم من النازحين، لا تحسبي فقط من حوالي سامراء، بل من تكريت .. الموصل .. ديالى .. حزام بغداد .. اضافة الى الكثير من متطوعي الحشد استقرت عوائلهم هنا .. والكثير من أفراد الجيش انتقلت عوائلهم من الجنوب الى هنا، الإيجارات هنا من المائتين وخمسين ألفاً فما فوق، وهذا الحد الأدنى.

-أف! والله كثير يا خالي، يعني مدينة مثل سامراء بائسة لا خدمات لا شوارع مثل باقي المدن وهذه الإيجارات، والله لو ذهبنا الى أربيل أفضل.

-أربيل!! ها ها ها ها، لم تعلمي إذن ما يعاني النازحون العرب هناك، قد استغل الأكراد هذه المحنة، يريدون أن ينعيشوا اقتصادهم من وراء هؤلاء المساكين الفارين بجلودهم، أليس كفرًا أن يؤجر بيت لنزاح في الليلة الواحدة مائة دولار؟ سألت صاحبي ذهب الى هناك قال لي أنه استأجر شقة صغير في أربيل بألف دولار شهريًا، أنسي كاك مسعود يوم ضربهم صدام؟ هاجروا إلينا .. الى سامراء والأنبار فأويناهم والى الآن توجد بقايا أكراد معززين مكرمين وعشنا معهم كإخوة، وهم ماذا فعلوا؟ اذهبي الى سيطرة أربيل وشاهدي الناس، لا يدخلون أربيل الا بإقامة وأمور أخرى. طز بهذا الوقت الذي جعلنا نستجدي الناس.

-أزمة وتمضي إن شاء الله.

-مهدية أنا سأعطيك شهريًا خمسين ألفاً مساعدة مني، وسامحيني لأن وضعي متعب ولا عمل لي الا على التكسي، ذهبت أيام زمان ... أيام المطعم .. كنت أجني الملايين .. الحمد لله على كل حال.

-شكرًا خالي.. أنت معذور.

وصلوا الى محل العقار، فوجدوا رجلاً هيئته تنمُّ على أنه شحاذ، وما أن رآه الخال حسين حتى قال:

-لا حول ولا قوة الا بالله.. من الصباح؟

فقال ذلك الرجل:

-احترم نفسك أيها الشيخ، أنا صاحب مُلكٍ، وعندي عمل مع صاحب المكتب.

فقال الخال هازئًا:

-أنت صاحب ملك؟! اذهب واشتر قميصًا وسروالا كالناس ثم تكلم عن الملك. عمت عين الملك الذي لم يرتبك.

-وكم أنت مرتب، انظر الى وجهك .

-ما به وجهي؟

فأتى صاحب المكتب ورحب به وأدخله، فقال الخال:

-نريد بيتًا للايجار مناسبًا لبنت أختي هي وعيالها، أريده صغيرًا ورخيصًا.

-عند هذا الرجل بيت صغير وسعره ملائم!

فأشار الخال الى الرجل الذي تعارك معه قبل قليل وقال بازدراء:

-هذا؟

-أجل.

كان البيت يتكون من غرفة طينية كبيرة وداخلها غرفة صغيرة

فقط، وحوش كبير ولكنه ما زال تراباً. فهمس الخال في أذن مهدية: هذا مناسب لكم، على الأقل في هذا الوقت، وموقعه ممتاز.

فقال صاحب البيت:

-كنت أريد ايجاره بمئتين وخمسين ألفاً، ولكن بما أن هؤلاء نازحين فسأجعلها مئتين، وأريد أن اكسب بهم أجراً لأخرتي.

فقال صاحب مكتب العقار:

-هذا كثير عليهم، والبيت لا يستحق مئتين. ثم أنك تريد أجراً للأخرة.

-ولا تنس نصيبك من الدنيا.

فقال الخال:

-أيها الجشع لم تترك شيئاً لأخرتك.

-أنت الجشع ..

فقال صاحب المكتب:

-يا حاج حسين كم تدفع؟

-مائة ألف لا غير.

-زد قليلاً.

-لن أزيد درهماً واحداً، والبيوتات كثيرة.

فقال صاحب البيت:

-مئة وخمسون وهذا آخر كلام.

-طرز، لا نريد ايجاره، إنه غالٍ.

فقالته مهديّة:

- أيها الرجل، سنعطيك مئة وعشرين ألفاً، ما قلت؟
- لأجلك فقط يا سيّدة، وبما أنك طيّبة سأوافق.
- شكراً.

وحملوا أغراضهم الى البيت في ذلك اليوم ولم يكن به شيء، فأعطاهم الخال بعض البسط البالية واشترى لهم ما يحتاجونه من طعام كالأرز والطحين والعدس، وكذلك اشترى لهم الخال من المطعم طعام العشاء، وبقي معهم الى الليل فكان ذلك كرماً منه لم تنسه مهديّة فيما بعد، بل بقيت تحبه وتعهزّه دون سائر أقربائها حتى بعد أن بعد عنها .

-٢٩-

الركون الى الماضي عذاب، والذكرى نار قاسية، ولولا النسيان لكانت شيئاً لا يطاق. في اليوم التالي دخلت عليهم الجارة الملاصقة لهم، أم بسام، تعرفت عليهم، وأخبرتهم أنها ستعد طعام العشاء لهم. أم بسام سيّدة طيّبة لكنها تشكو من زوجها دوماً، فهي على الرغم من بلوغها الثامنة والأربعين الا أنه يجبرها على لبس الخمار أينما ذهبت، لم يخرجها يوماً معه، سمته: معقداً. وهذا معها فحسب، أما إذا خرج فتراه مرحاً، بل هو معلم وله صداقات مع المعلمات، ومن يره وهو في المدرسة وكيف يمزح ويمرح معهن يخاله في البيت كذلك، ولكن ما أن يدخل البيت حتى تراه متجهماً عابساً لا يتحدث فضلاً عن أن يمزح. ولما كبرت بنته نوار ودخلت كلية التربية قسم التاريخ لم يجبرها على لبس الخمار أو العباءة أو الجبة

كما اجبر أمها، بل تركها في سفورها تغطي شعرها بشال فضح أكثر مما ستر وأغرى أكثر مما منع، ولكن أبا بسام لم ينهها، بل كان يراه تحضرًا وتقدمًا وحرية! كان تدين أبي بسام منقوصًا، فولده بسام طالب في المدرسة الدينية وهو محافظ على صلاته، يعرف الحلال والحرام، ولكنه أبخس حق زوجته، وفرض عليها ما لم يفرضه على ابنته، وهذا ما جعل أم بسام تشكو الى أم جواد ما تعانيه وكيف أن زوجها يأخذ ابنته وابنة أختها الى المطعم ويتركها هي وحدها، وكيف يفرض عليها قوانين ظالمة في سبيل المحافظة عليها، ما جعل أم جواد كلما رأت أم بسام حمدت الله وقالت: من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته. ولكن بتول سخرت من أمها وقالت:

-انظري الى بيت أبي بسام كيف يعيشون ونحن كيف نعيش، انظري الى بيتهم وسيارتهم الفاخرة، بل الى نوار ولبسها والى بسام ..

-وما بها عيشتنا؟ الحمد لله، نأكل أحسن مما يأكل الكثيرون، بل الكثير لا يملكون قوت يومهم، فإذا تغدوا لم يتعشوا، وإذا تعشوا لم يفطروا، وأنت ما شاء الله تأكلين اللحم مرة في الشهر وتأكلين الدجاج، وغداً وإذا يسر الله وعطفت الحكومة علينا وأعطينا راتب جواد ستكون عيشتنا عيشة ملوك.

-ملوك!!!

-يا بنيتي ماذا يريد الانسان أكثر من طعام يشبعه ومسكن يأوي إليه؟ مهما ملكت من نقود وأملاك فلن تنامي على سريرين ولن تأكلي أكثر مما تأكلين، ثم إننا بحمد الله هنا في أمان .. وهذه نعمة عظيمة في هذه الايام.

فقالت وهي حاملة:

-يَمَّةٌ لَمْ لَا نَذْهَبْ إِلَى تَرْكِيَا؟

-تَرْكِيَا!!

-اي، أَلَمْ يَهَاجِرْ مَعْظَمُ النَّاسِ إِلَى تَرْكِيَا وَيَعِيشُونَ هُنَاكَ، نَذْهَبْ وَنُسْجَلْ عَلَى الْيُونُسْكَو، وَنَعِيشْ كَمَا تَعِيشُ الْخَلْقُ.
-الْعِيشَةُ هُنَاكَ غَالِيَةٌ، وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ مَا لَا حَتَّى ذَهَبَ وَنَعِيشَ هُنَاكَ.

-مَامَا، الذَّهَبُ الَّذِي عِنْدَكَ نَبِيعُهُ وَنَسَافِرُ إِلَى تَرْكِيَا.

-الذَّهَبُ أُرِيدُ بَيْعَهُ لِنَشْتَرِيَ بِهِ أَرْضًا، وَالْفُلُوسُ الْقَلِيلَةُ الَّتِي نَمْلِكُهَا نُرِيدُ أَنْ نَعِيشَ بِهَا إِلَى أَنْ نَجِدَ شَغْلَةً لِأَجُودَ وَجُودَتِ، أَوْ نَسْتَلِمَ رَاتِبَ جُودٍ، وَإِذَا قَبِضْتَ رَاتِبَ جُودٍ لِلشُّهُورِ السَّابِقَةِ سَأُبْنِي لَنَا غُرْفَةً وَغُرْفَةً مَعِيشَةً عَلَى الْأَرْضِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي سَأَشْتَرِيهَا عِنْدَمَا أَبِيعَ ذَهَبِي وَنَتَخَلَّصَ مِنْ مَحْنَةِ الْإِجَارِ.



أَجُودُ عَرَفَ بِسَامَا جَارَهُمْ، وَإِذَا بِهِ فِي الصَّفِّ السَّادِسِ فِي الْمَدْرَسَةِ الدِّينِيَّةِ، بِسَامُ قَصِيرُ الْقَامَةِ وَلَكِنَّهُ وَسِيمٌ، شَارِبُهُ خَفِيفٌ اشْقَرُ، وَلَكِنْ عَلَى شِقَارِهِ وَوَسَامَتِهِ تَلْمَحُ فِيهِ وَجَعُ عِرَاقِيَا دَفِينَا، قَالَ إِنَّ أَصُولَهُمْ بَغْدَادِيَّةٌ وَجَاءُوا سَامِرَاءَ بَعْدَ سَقُوطِ بَغْدَادِ ٢٠٠٢، وَالشَّيْءُ الْآخِرُ الَّذِي رَأَاهُ أَجُودُ فِي بِسَامٍ أَنَّهُ مُحَبَّبٌ لِلْكَلِّ، الْكَلُّ يَقْتَرِبُ مِنْهُ وَيَحِبُّ صَحْبَتَهُ حَتَّى الصَّغَارُ يَحِبُّونَهُ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ وَدِيعٌ، وَمَنْ يَرُهُ يَتَوَقَّعُ أَنَّ أُخْتَهُ حَسَنَاءٌ لَمْ يَنْجُبِ الدَّهْرُ قَرِينَتَهَا، لَكِنْ نَوَارُ أُخْتِهِ كَانَتْ مَتَوَسِّطَةُ الْجَمَالِ، حَتَّى نَوَارُ نَفْسُهَا تَتَحَسَّرُ وَتَقُولُ: (لَمْ لَمْ أَخْلُقْ جَمِيلَةً مِثْلَ بِسَامٍ)؟ يَصْغُرُ أَجُودُ بِسَنْتَيْنِ وَلَكِنْ فِيهِ ذِكَاؤٌ وَنَبَاهَةٌ مَمَزُوجِينَ بِسَدَاجَةِ طَيِّبَةٍ، فَهُوَ طَالِبٌ مُجْتَهِدٌ مُطِيعٌ، وَأَوَّلُ سَامِرَائِي

يتعرف عليه أجود عن كُتب، بعد أيام أخذه الى المدرسة ليكمل أجود الصف السادس فهو نجح من الصف الخامس وسقطت تكريت، وجاء قرار انه يحق للطالب من أية مدرسة أن يلتحق بأقرب مدرسة عليه وكان أجود قد أوصى بساماً في أول تعارف بينهما أن يسأل المدرسة، فأجابه أنه يحق له الدوام معه. في اليوم التالي خرج أجود من بيته ودق باب بسام، فقال له: أخرج بعد دقائق. وقف أمام بابه ينظر الى زقاقهم البسيط، بيتهم أقل البيوت، ولكن باقي البيوتات أيضاً متعبة، لعل بيت بسام أفضلها، فأخذ يعاين البيت وينظر في أرجائه الى أن رفع رأسه الى الطابق العلوي فلمح بسرعة خاطفة ستارة النافذة تغلق! كانت ترمقه اذن، تراقبه بهدوء، كيف رأته؟ كيف لمحت نظراته الفاحصة المستوحشة وهي تتلصص على الزقاق بفضول؟ عليها تكون ساحرة.. وما أن غرق في التفكير حتى بزغت أمامه رحمة كجرح نغص عليه عيشته، هي الحاضرة الغائبة، هي المسيطرة على قلبه ولكن فجعته بالغياب، هي الآن كسراب؛ أراه من بعيد فأوقن أنه قريب قريب.. بل بمتناول اليد ولكن إذا اقتربت من ذلك السراب سرعان ما تلسعك الحقيقة وتصفعك قائلة: رحمة رحلت ولن تعود. تُرى أين هي الآن؟ ما زالت القرية آمنة هادئة؟ أم أدركتها طائرات التحالف فدكت المنازل على أصحابها!! إنه لشعور مروع التفكير فيما سيؤول إليه أمر القرية إن دخلها الجيش، والأشد منه رعباً هو: ماذا سيفعل التنظيم إن هجم عليه الجيش؟ ورحمة ما مصيرها؟ ماذا فعلت يا عم سعيد، كيف فرطت بابنتك واجبرتها تقترب بذلك الداعشي..كيف؟ ليت جواذاً تخلص منك ووضع رصاصة في رأسك عندما هددك في ذلك اليوم، ولكنه كان طيباً.. لن يفعلها.. وليته

فعلها وطشر ذلك الرأس .. ليته.

-أجود.. تأخرت عليك.. عذراً. قالها بسام وهو يغلق الباب خلفه، كان أنيقاً، يرتدي قميصاً أبيض، وبنطلون قماش وسترة خفيفة مناسبة لجو أول الشتاء.

بينما كان أجود يرتدي لبس الملابس الدينية الذي كان شائعاً؛ آنذاك: دشداشة سوداء أو أي من الألوان الغامقة، وتلك الكوفية البيضاء بديلة العمامة، وسترة، هذا لبس الشتاء، أما الصيف فدشداشة بيضاء مع الكوفية البيضاء. فقال أجود مستغرباً لبسه:

-ما هذا؟ لم ترتدي هذه الملابس؟

-وماذا ترتدون اذن؟

-هذه الملابس غير مرغوب فيها، خوفاً على أنفسنا، إنها تثير الرعب، والذي لا يخافون الله كثر..

-وما علاقة الزي؟

-يا أخي كل شيء له علاقة بالدين بدا مثيراً للشبهات، حتى المدرسة منعت هذا الزي واستبدلناه بالبنطلون والقميص، إيثاراً للسلامة.

-والان ماذا أفعل؟!

-انزع هذا (الكبع) وضعه في جيبك، ومن الغد لا تلبس الدشداشة بعد.

-٣٠-

المتدينون والفقهاء وأئمة المساجد في خطر وخوف دائم هذه الأيام، صاروا يشعرون أنهم المستهدفون الوحيدون من هذه الزوبعة، قليلون هم الثابتون، ما أن حصل ما حصل وسقطت تكريت حتى فرَّ الكثير من المتدينين وحفظة القرآن وطلاب العلم الى خارج العراق أو الى كردستان مؤقتاً.

(لما كنتم أنتم تعانون تحت ظلم داعش ومنقطعون عن العالم هنا في هذه المدينة كنا نعيش عذاباً آخرًا، قد يكون أشد من مما تعرضتم له، صرنا كلنا متهمون في نظر الدولة، صرنا مصدر قلق وزوابع، والريح عاتية تزمجر وتقتلع كل شجرة واهنة، الاغتيالات.. الخطف.. التصفية.. الاعتقالات العشوائية.. المظاهرات والاعتصامات لها أثر كبير، بل هي الشرارة، والقائمون عليها هم علماء الدين، لذلك كل الذين كانوا يقفون قادةً طالتهم يد الاضطهاد، منهم من نجا بنفسه ففر قبل سقوط الموصل عندما تأزم الوضع، وذلك عندما تم تصفية الكثير من أصحابهم مما أنذر بشر قادم، بل صدرت في حق معظمهم مذكرات إلقاء قبض، وإن قتلت فمن يسأل عنك؟ الهرب والهجرة يا أجود طريقان أمانان لضمان حياة طيبة بعيداً عن الخوف والتوجس من القادم، بل الثورات التي تداعب نفوس أبناء شعبنا، انظر الى تاريخنا منذ تشكيل أول برلمان، كم مظاهرة خرجت؟ وغالبها مطالب سهلة، ولكن نحن نعيش مع لصوص استولوا على الدولة، والآن وبعد أن ظهر عدو شرس أتت الدولة ثانية وتريد أن تدفع بـ «ولد الخابية» الى أرض الموت، العراق أضحى بلدا لا يصلح للعيش، انظر الى تاريخنا بعد سقوط نظام ٢٠٠٣، كم حرب وكم معركة دخلنا وكم من الدماء خسرنّا؟ وسنخسر هذه الأيام أضعاف

ما خسرناه في تلك السنين، إنها الحرب التي تحصدنا، تفتك بنا بلا هوادة، نحن شعوب مسحوقة يا أجود، نعيش أزمات لم تعشها الأمم المتخلفة في العصور الأولى، في بلدنا قد تُرمى خلف أسوار القضبان بسبب كلمة تفوهت بها، أو زي ارتديته أو شكل، فما بالك لو طرحت فكرة أو مشروع بناء دولة ونظام جديدين؟ هم يخافون من متظاهر قد ينم عن فكرة تهدد ملكهم، فكيف لو أعلنت أو تبنت تلك الفكرة؟ إن ما حصل فينا يا أجود وما تراه ليس من جرم ارتكبناه، مجرد أن ظهر صدام بين فكرتين، فكرة بديلة لدولة الاضطهاد والاستبداد ونظام المحاصصة الطائفية، وقد تجلى هذا الصدام وظهر على شكل (اعتصامات)، إننا ببساطة ضحايا تلك الفكرة! إذا أردت أن تعيش في العراق عليك أن تمشي جنب الحائط وتقول: يا رب سترك. لأن بلدنا هو ملك لمن كافحوا وطاولوا النظام المستبد، والمحتل الغاشم، والتنظيم، سنبقى نخرج من حرب الى حرب، والذي قادوا تلك الحرب وانتصروا عليهم أن يأخذوا الوطن وكأنه ملك لأبائهم، تسعون بالمائة من ساستنا ليسوا بمعارضة لنظام بائد، بل كانوا صعاليك في أوروبا يعيشون على مساعدات تلك الدول، فلما سقط النظام ودخلوا العراق وزعموا أنهم معارضة وكانوا مكافحين ومجاهدين ضاع البلد، وسيطروا على مقدراته، لقد وسد الأمر الى غير أهله وهذه النتيجة، كالمستجير من الرمضاء بالنار، البلد هذا لا يصلح للعيش بتاتاً).

قالها بسام يائساً. فزفر أجود بحزن بعد أن زادت همومه وهو يسمع صديقه الجديد وهو ينبئ به بواقع مدينته وبلده المير، كانا قد قطعنا نصف الطريق الى المدرسة مشياً من خلف سوق مريدي الى مكان الثانوية جنب جامع الرزاق، وقد

قرر بسام أن يأخذه مشياً على الأقدام لسببين؛ الأول أن جو سامراء في الشتاء — غالباً — يكون معتدلاً ربيعياً وهم في بداية الشتاء فالمشي يشرح النفس، والثاني ليرشده الى مكان المدرسة ويتعرفان على المدينة عن كثب، بسام يمتلك دراجة نارية يجيء بها الى المدرسة ولكنه استغنى عنها اكراماً لأجود في هذا اليوم.

-أنتم لا تقلون عنا بشيء، تعاونون مما نعاني بل قد يزيد! (قال أجود).

فتبسم ضاحكاً:

-وَوَطْنُكَ كُلُّهُ كذلك، لا تحسب الذي في الجنوب أقل منا بؤساً وضنكاً، بل يعانون كما نعاني، الجنوبيون هم العيس التي تحمل الماء على ظهرها ولكنها تموت من العطش، يضحون بلا جدوى، لا مكافأة لهم من دولتنا الرشيدة الا تعويضات باهتة لا تسد ايجارات بيوتهم لسنة واحدة، ولنفرض جدلاً أن تلك الملايين العشرة التي تزعم الدولة منحها لضحايا سبايكر والإرهاب ستكفي ذوي الفقيد لسنة، وماذا بعدها؟ يبقون عرايا أمام زمجرة الحياة، يتيهون في وطن سرعان ما سينفيهم ويلفظهم، بل إن رفض هؤلاء السياسة أو تظاهروا ضدهم سيكيلون لهم التهم كما كالوها لنا، لدولتنا وجه مرعب، لم يرّه الشعب بعد، ونحن الآن نعيش ذلك الرعب، فقل لي بربك ماذا بقي من تلك المحافظات التي طرحت الفكرة البديلة؟ ماذا بقي منها وهي التي رفضت الاستبداد والاستعباد؟ هي التي رفضت أن يتحول الوطن كقطعة أرض يملكها حزب واحد.. دياالى تلاشت وابتلعها الموج وهي الآن ضائعة بين التنظيم والدولة، ساحة حرب، أما أهلها فبين

نازح مقيم في المخيمات وبين مهاجر لاذ ببلدٍ غير بلده..
الأنبار سقطت وضاع أهلها.. الموصل هي الجرح المكلوم..
صلاح الدين لم يبقَ بها إلا سامراء البائسة وما سواها أنت
أعلم به... يا أجدود الوطن أنكرنا كما أنكرت قريش نبيها ذات
يوم، نحن في غربة.. نحن المسلمون لا مكان لنا هنا.

فقال أجدود وقد تأثر بكلامه:

-قد زينت لي الرحيل وكرّهت لي الوطن!

-لأن الوطن تتكرر لنا، والرحيل باب مشروع وقد تعددت
مسالكه، قد تفلح وتجد الخير والاطمئنان وقد تخفق ولكنك
لن تموت، أما في الوطن فالطريق واحد، أهونه أن تعيش
عاطلاً بلا عمل وتصارع الفقر.. لا وظيفة لا مهنة صالحة لا
مستقبل فلم العيش..؟

-...!!!

-يحز في نفسي سؤال يا أجدود، أريد له اجابة شافية... ما
الذي قدمه الوطن لنا؟ لماذا نحبه أصلاً؟

-الانسان مفطور على حبّ موطنه ومنشأه.. مفطور على
الحنين الى البقعة التي عاش صباه، قد لا تكون جميلة ..

فقاطعه بسام قائلاً:

-ولكنها حتماً ستكون أجمل من حاضرننا!

-بالتأكيد.

-ما فائدة الوطن والذكريات ومراتع الصبا وقد خسرت
أحبّتك أو فقدتهم؟ خسرت من كانوا يزينون تلك الأماكن التي
تحن إليها، الوطن ليس تراباً فنحبه، أو أطلالاً باقية فنبكي

عليها أو أرضا فقدناها فنحن إليها، لا، الوطن بأحبتنا وأهلنا، الوطن حيث تستطيع أن تمارس حقوقك، والأهم حق العبادة والعقيدة والفكرة، فإذا اختل واحد من تلك لم تبق للأرض قيمة، وأنظر الى النبي صلى الله عليه وسلم عندما رفضه بلده بعد طول الصبر والمصابرة، سار معهم بأناة أقرب ما تكون للبطء لعل الله يهديهم، فلما ايس منهم بعد أن اضطهده قومه هو وصحبه هاجر وكانت مكة مقامهم ووطنهم الذي مارسوا به حريتهم العقيدية والفكرية وأسسوا دولتهم.

فقال أجود كلمة غسان كنفاني التي قرأها في رواية (عائد الى حيفا):

-«تعرفين ما هو الوطن يا صفية؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله»

-تمام تمام.. لكن من صفية؟

-بطلة الرواية.

-أي رواية؟

-عائد الى حيفا.. ألم تقرأها؟

-لا اقرأ هذه الكتب.

-رواية مهمة عن القضية الفلسطينية، بل أهم ما كتب في الأدب عنها، يا بسام هذه الرواية على صغرها إلا أنها ترسخ القضية الفلسطينية في القارئ ما لا ترسخه الشعارات العاطفية التي سرعان ما يزول أثرها.. الحكاية فن عظيم لترسيخ أفكار مهمة وتعرضها ببساطة.

-يبدو أنك ستجرفني معك في قراءة هذه الحكايات.

-الصاحب صاحب كما يقولون.

كانا قد وصلا باب المدرسة، مدرسة حديثة البناء كبيرة، اسمها (مدرسة المعتصم بالله الإسلامية)، فقال بسام وهما يدخلان المدرسة ويلقيان التحية على البواب والحارسين:

-مدرستنا اسمها (الامام علي الهادي الإسلامية) لها ماض عريق، قيل أنها تأسست بأمر من السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٨٩٦ م هنا في سامراء، ولكن ليس هذا موقعها، موقعها قرب الجامع الكبير عند الامام، ولكن الأوضاع خطيرة هناك لذلك ندرس هنا.

-واين المدرسة الأخرى؟

-اليوم دوامها مسائي ونحن صباحي مناصفة بين المعتصم وعلي الهادي.

-أنتم السوامة يقوم تاريخكم على هذين الرجلين.

-أنا أصلي بغدادي.. وتاريخ بغداد يقوم على رجال كثير.

صعدا الى الطابق العلوي ودخلا الى (الإدارة) وهي عبارة عن ممر تتفرع منه غرف الادارة، وما أن أتما اجراءات التسجيل والتي لم تتطلب الا ابراز الهوية واسم المدرسة وهم يتكفلون برفع الاسم الى دائرة التعليم، فدخلا الصف، وكان في الصف عشرة طلاب، اخبره بسام أن صفهم صغير وهم مرتاحون به، بل كالعائلة، متحابين، رأى أجود اختلافاً كبيراً عن تكريت وقريته، بل خرج في ذلك اليوم وهو يعج بالأسئلة عن هذا المجتمع الذي بدا مختلفاً، فهنا من النادر أن تجد سلفياً ملتحمياً ويرتدي ثوباً قصيراً علماً إن هذه المشاهد مألوفاً في تكريت وعادية جداً، سأل أجود بسام وهما يذرعان الطريق عودة، أجاب:

-هنا ينتشر التصوف، والكثير من التصوف فيه غلو، وهؤلاء أصحاب الطرق الصوفية التي فيها مغالاة ييغضون السلفية والوهابية أيما بغض، هذا ظاهر الأمر، ولكن السلفية لا يستطيعون أن يعلنوا عن سلفيتهم، لأن المجتمع هنا سينكرهم، يرونهم سبب بلاء وداء التطرف، بل لم يعرفوا وهابياً الا ونصر التشدد الذي يرفضونه، يعني ينكر عليهم الاحتفال بالمولد النبوي، ويعد التوسل بالأولياء كفرًا، وهنا إذا فقد الولد مسكوا باب علي مستجدين.

فقال أجود في نفسه : كما تفعل أُمي.

-يعني أنتم كفر في نظرهم؟

-هكذا نسمع.. ولكنهم لم يذوقوا جو التكايا، لها طمأنينة تشف الروح.

-تكايا؟!

-أجل! ألا تعرفها؟

-أعرفها ولكن لم اذهب إليها يوماً.

-نذهب اليوم الى التكية، تروح؟

-٣١-

-اعمل يا خال، أليس أفضل من أن أمدَّ يدي للناس وأقول لهم اعطونا؟

هكذا قالت مهدية لخالها عندما زارهم فوجدها هي وبتول تخبز في الحوش. لقد قررت أم جواد أن تعمل خبازة للبيوت هي وابنتها عندما أبدى أجود وجودت رغبتهما في استكمال

الدراسة، ولم تكن ترى في ذلك بأساً، خاصة وإنهم لم يكونوا يعيشوا في قريتهم عيشة المرفهين المنعمين، فهما تعملان أعمالاً أشق من الخبز وأكثر، كان عليهما حلب البقرات والأغنام والماعز، وتحويل الحليب الى لبن وزبد وقيمر، وعملهن في موسم الحصاد.

-أنتِ ما زلت مريضة، ويدكِ لم تشفَ تماماً.

-يا خال هو خبز، ولا تخف على يدي تحسنت كثيراً، جزاها الله خيراً أم بسام دفعت لي طحينها، وإن شاء الله بعد فترة قصيرة تعرفني الناس وتخبز عندي، أنا لا أريد الناس أن يتصدقوا عليّ وعلى عيالي، أريد أن أعمل، لا أريد الذلة، أشعر أن الأموال التي تصلني من الصدقات والمساعدات مرفوعة عنها البركة، لا أعرف أين تذهب وكيف تدخل.

فقال خالها وهو يرتشف كأس الشاي وشمس الشتاء الوديدة تسطع عليه ويتابع مهدية وكيف تدور العجينة بيدها بمهارة: والله يا مهدية أنتِ تتعبين نفسك وتحبين أن تتعبيهما.

-الراحة ثقيلة على النفس، تسترجع بها الذكريات البعيدة، حتى وإن كان إنساناً خاملاً متقاعدساً، فكيف بي وأنا التي كنتُ دائمة العمل لا تعرف القعود، وكيف بي بهذه الذكريات القريبة؟ صدقتي يا خال أنا أحمل هم الليل، أشعر أنه يخنقني، أشعر أن له أنياباً، أنا لا أنام في الليل الا ساعاتٍ قلائل، أما باقيه فأقضيه في بكاء واسترجاع البعيدين الراحلين، ما تعرضنا له شيء لا يصدق، كل الذي أريد أن أعرفه: لماذا حصل لنا هذا؟ لماذا هجرنا حتى ضاقت علينا البلاد؟

-تصدقين لو كنت أعرفه ما بقيت هنا؟ لو كنت أعلم أن لي

ذنباً يستوجب هذا العذاب لفررت منه، ولكن هذه الأيام تفعل ما تشاء.

-أنت لا ذنب لك يا خال..

فأنزل الكأس دون أن يرتشف، وحملق بها:

-ماذا تقصدين؟

-أنت قلت لا ذنب لك.

-أي؟!!

-لا شيء.

فقال وقد استشاط غضباً:

-قسماً بالذي رفع السماء بلا عمد إن لم تقول لي ما تقصدينه فلن أدخل بيتك هذا ثانية ولن تكلم معك!!

-استهد بالرحمن، وصل على النبي.

-اللهم صل على سيدنا محمد، قل لي.

فقالت بأناة وحذر:

-أمي رحمها الله تعالى قالت لي في سالف الأيام أنك.. يعني كنا نتكلم..

فقاطعها مهتاجاً:

-قل لي بسرعة.

-قالت أنت كنت تجلب أغراضاً من الكويت في الحرب وتبيعها بثمان بخس، وبقيت طول أيام الحرب على الكويت تسرق بيوتات الكويتيين وتبيعها هنا بثمان بخس، الى أن كنت

ثروة معقولة وفتحت فيها مطعمك الذي — ما شاء الله
وبلا حسد — در عليك أموالاً طائلاً فأنفقت على ولدك في
السويد سنين طوال، وتمتلك أراضي زراعية، ومطعمك الذي
طورته وكبرته ..

فصرخ بها بعصية وقد احمر وجهه:

-تحسدينني في مالي الذي ذهب فكيف لو كان بعده!!

-يا خال أنا لا أحسدك، أنت أصررت عليّ.

فقام وهو يقول:

-صحيح الأقارب عقارب.. لم أرَ منهم خيراً ..

فقامت تلحق به وهي تقول:

-يا خال أعصابك.. ابقَ على الغداء ..

-لا بارك الله فيكِ يا بنت ال... طز ..

-حرام عليك أبي ميت.

فخرج وركب سيارته وإذا بأجود وبسام يتهاديان نحوه وممر من
أمامهم مسرعاً وكانت الأرض طين فنثار الطين خلف سيارته
ولاح أجود وصاحبه!

فدخل أجود البيت متسخ الثياب، وقال لأمه:

-ما به خالي؟

-مجنون، ألا تعرفه؟



كانا يسيران في ظلمة قاتمة، الكهرباء منقطعة كالعادة

والبيوت مضاءة على المولدات بأضواء باهتة، الظلام هنا مخيف، بعد التاسعة تخلو الأزقة الا من الذين يمتلكون نصيباً من الشجاعة، حتى اللصوص هنا شبه معدومين، لماذا يخرج للسرقة فتأتيه رصاصة طائشة وسرعان ما سيكتب عنه أنه اراهابي أرعب المساكن الآمنة؟ وإن قبض عليه ستتلقفه تهمة «أربعة اراهاب». كل شيء هنا الا تهمة الارهاب، حتى الذين سجنوا من قبل بهذه التهمة أعادوهم، من عليه هذه التهمة فهي وبال وشر يمحق صاحبه، وهم على أي حال يهربون ويغيرون مساكنهم بل يهجرون هذه المدينة البائسة المكتظة بالجيش والآمن والمتطوعين للحرب. يقصدون التكية والشيخ كما اتفقنا، وإن كانت التجمعات غير آمنة وتستجلب العيون المتجسسة والفضولية والذين «لا يخافون الله» كما يعبر شيخ التكية عنهم، ولكن تجمعات الصوفية في التكية للذكر والمديح لا تثير على الأقل — النظرات المريية التي تثيرها الدروس الفقهية في المساجد والتي انقطعت الآن بسبب تلك الريية التي تثيرها. بل كثير من ذوي القرار والضباط الكبار من كلا الطائفتين يؤمنون ببركات الذكر والروحانية التي تشع منهم، وقد شاع في تلك الأيام أن ضابطاً أصيبت أخته بمسٍّ لم يشفها الطبيب ولا حتى الساحر الذي لجأ إليه، فقالوا له يوجد شيخ في السجن يرقى فيُشفى المسوس أو المسحور بإذن الله! هرع الضابط الى ملفه فرأى قضيته جسيمة كبيرة، إذا هو خطيب من خطباء الاعتصامات المفوهين، وقد تجاوز الخطوط الحمر في خطب الجمع، تلك الخطوط الحمر لم تكن تحريضاً على القتل كما هو الأمر الخطير عند الأمم المتزنة، بل صرح ولوح بالقادة الكبار وصرخ بفسادهم متجاوزاً كل الخطوط الحمر، سُجِنَ بهذه التهمة الكبيرة، ذهب إليه

وطلب منه أن يرقئها ويسهل أمر الإفراج عنه، ورقاها وإذا بها تتمثل للشفاء بإذن الله على يد ذلك الشيخ الذي خرج فيما بعد من السجن، قيل أنه دفع أموالاً طائلة وقيل بل أخرجه ذلك الضابط من تلك التهمة الكبيرة.

دخلا التكية وكانت عبارة عن ديوان كبير وكتبت على جدرانها أسماء الله الحسنى وعلى أركانه أعلام خضر مكتوب عليها كلمة التوحيد، ومكتبة، ودفوف موضوعة لغرض المديح.

وسرعان ما بدأ المديح، رجل ذو صوت شجيٍّ جلس يمدح النبي وآله حتى سكبوا الدموع وحنوا وتدرشوا، فبدا الصراخ ينطلق منهم الى أن قاموا واقفين، يمدح المداح وهم ينطقون بذلك الاسم (الله .. الله .. الله) واطفأوا الأنوار ومضوا في تلك الحالة ..

سأل أجود بساماً عن تلك القصيدة التي مدح بها المداح: (علي الهادي بحر تيار)، فقال: لم وصف الشاعر الإمام علي الهادي بأنه بحرٌ تيارٌ؟

فقال بسام :

لا أعلم يا أجود ما وجه ذلك التشبيه على الخصوص، ولكن يقال أن الطيران الإيراني حلق فوقها ليقصفها أيام الحرب العراقية الإيرانية، فدعا الأهالي وابتهلوا بجاء الامام أن يدفع عنهم بلاء القصف، فانقلبت سامراء الى بحر في نظر الطيار الإيراني ولم يقصفها!! لا أعلم مدى صحة هذه الحكاية ولكنها تدل على ما في نفوس أهل المدينة من اعتقاد بالائمة.

-٣٢-

بتول هي الأخرى همٌ يضاف الى مهدية تحمله معها، البنت

تخطت السابعة عشرة منذ شهور، وكانت قد حُجِرَتْ لـ(أسامة) كما قررت حمديّة جدتهم من قبل، إذ رأت بتول مقبولة وفيها جمال غائر وسط عملهن المضني في الحقل، وكانت مهديّة قد اطمأنت الى تلك (القسمّة) على كرهها لسعيد، فأسامّة مختلف عن أبيه، بل يثور عليه مراراً، ففكرت مهديّة أن أسامة سوف يستقل عن أبيه بعد أن يبلغ الثلاثين، وسوف يرث بعد موت سعيد مالا طائلاً مما يوفر لابنتها العيش الرغيد. ولكن الآن لم يعد الأمر كما كان، ومن المستحيل أن يكون أسامة لبتول، ليس لأن مهديّة ترفض ذلك بعد المشكلة التي حصلت بينهم فقط، بل لأن أسامة انتهى أمره، كتب عليه الشقاء هو وأهله، ومن يدري لعله قتل بغارة جوية من هذه الغارات التي تشنها قوات التحالف ضد التنظيم. والآن عاد ذلك السؤال يحز في نفس مهديّة: من سيتزوجها؟! لا أحد يعرفهم فيتقرب منهم ويأخذها، حتى خالها وعونها زعل من أول كلمة مسته وكأنه أرادها حجة كي لا يدخل عليهم ثانية ومن يدري لعل بشريّ زوجه سولت له، وقبحت صورتهم عنده، صورتهم ناكريّ الجميل، والذين يأكلون ويبصقون في الإناء الذي أكلوا منه، وكل ذلك كي تمنع المساعدة التي يقدمها لهم، ألم تسمع حمديّة دائماً تقول لزوجها: النساء تخرب. وهي بذلك تعنيها؟! وإن بقوا هنا مقيمين الى أجل بعيد ستخطى بتول عمر الزواج وقد تتجاوز العشرين وهي عزباء جالسة أمام أمها.. مجرد التفكير في ذلك الخاطر المفزع يضيق صدرها وتشعر أنّ شيئاً يتلوى داخلها.. يتن.. يشكو.. ما لك يا مهديّة؟ لمّ الهموم تؤثث حياتك الى هذا الحد، هل هي بديلة الحزن؟ أليس من المفترض أن تحزن بسخاء على الغائب؟ والديار التي ذهبت، بل الناس الذي نظنهم أهلاً

ففعلوا ما لم يفعله الاعداء، هنا الناس غرباء، يتصدقون عليها، يأتون بالطحين لتخبزه لهم فيناولونها أجرة، أليس هم جيران عظماء عندما يسعون لتأكل من عرق جبينها، ولكن ما يكسر ظهرها هو جواد . تقول أم بسام: اذهبي الى علي الهادي وقفي على شباكه مستتجدة.

تذرع الطريق متخفية نقاط التفتيش الكثيفة المنتشرة على طريق الإمام هي واجود وبتول، تبتهل في الطريق العاج بالزائرين الموشحة نساؤهم بالسواد، وجوهم تتم عن ما في نفوسهم من هلع ورعب؛ فالطريق غير آمن وهم مستهدفون، انخفض عدد الزائرين الى نسب ضئيلة جداً قياساً بالأعوام الخالية، هو يتوجهون الآن الى كربلاء والنجف ففيهما أمان كاف لحفظ أرواحهم ولا يوجد احتمال ظهور الهمج الهامج فجأة أو يسيروا لهم انتحارياً تلك الأفكار حقاً كانت موجودة بل يقال أنها حصلت مع عدد منهم ولم ينفع الابتهال والتوسل بعلي وذريته في أن يدفع عنهم ذلك الموت المحقق.



وقفت أمام ضريح الإمامين وتقدمت نحوه بأناة وخشوع.. وكلما خطت خطوة شعرت أن العالم الذي تعرفه زال خلفها وتساقت الهموم تساقط الندى .. وانهمرت الدموع بلا وعي، فمسكت شباك الضريح ومضت تدمدم ببطء:

«يا سيدي ها أنا أتيتك مبتهلةً ماسكةً بشباكك متوسلةً، قد ضاقت الدنيا علي ولم يعد لي ولي أو نصير.. يا الله ها أنا آتية إليك عندما لم يبق لي ملجأ الا إليك، ولا نصير الا أنت.. أتيتك بعلي الهادي ... فبجاهه استجب ورد الغائب.. يا إلهي اشعر أن نفسي ضيقة ضيق سمّ الخياط، حزينة حزن

يعقوب، باكية بكاء محمد «صلى الله عليه وسلم» على ولده إبراهيم، بل أيامي وعامي هذا كعام الحزن للنبي، يا إلهي .شوق ممزوج بلوعة الغياب.. طائر قص جناحاه فهو يحلم بالتحليق كالسابق.. تائه في الفلاة آيساً من النجاة.. فحقق مرادي.. لم أدق بابك إلا بعد أن دقت باب الخلق فاوصدت أبوابهم الا بابك.. يا من لا تغلق أبوابه ولا يرد طالبه يا مصدر النور الذي ينير عتماتي و يا فجرًا يسطع في ليلي وظلماتي أعد غائبتي وعجل بالقميص وارمه على بصري لأبصر من هذا العمى..»

ثم أخذت تتبرك بالشباك، ومسكت بتول وصارت تمسح يدها بها تبركاً. ثم جلست في باحة المرقد ماسكة مسبحة تصلي على النبي وآله وترقب الجموع وهي متموجة تبت حاجاتها وتذرف دموعها، وفجأة خطر لها أن تفكر ما الذي دفعهم للقدوم هنا؟ لمَّ طرُقوا باب الأولياء وعبروا كل تلك المسافات؟ أهو الشوق المعتلج في النفوس لدرجة أن يخاطروا وينطلقوا غير مباليين بالطريق الخطر وما ينطوي تحته من أهوال وأوجال؟ ألم يقل محيي الدين بن عربي الصوفي الشهير: (الحب موتٌ صغير) تذكر أنها سألت جدها أول ما علمها هذه المقولة وقد عرفه بأنه مولانا القطب الأكبر والكبريت الأحمر عن معنى هذه المقولة، فقال لها: أي أن الحب يشبه الموت، باقيان وأبديان كما انهما الحقيقة الراسخة والباقية والتي يؤمن بها الكل. ولكن مهدية الآن تعثر على تفسير آخر لهذه المقولة، تفسير لم يخطر على بال جدها؛ ذلك أن الحب يجعلك تقطع الطرق والمسافات والأخطار المحفوفة بالخطر والموت، هو موت ولكن بوجه آخر.

لما قاموا خارجين انتبهوا على شيء لم يلحظوه وهم آتون،

ربما لأن الشوق يجعلنا تائهين وغير مهتمين بالتفاصيل، ذلك أن الزوار والجند والمتطوعين —والذين كانوا ينتشرون بكثرة في الامامين— مشدودين كالوتر، يقال أنهم خائفون من أهل المدينة لما لاقوا في الطريق من أزمة وقلق، ولكن خوفهم لا يظهر خوفاً أو هلعاً، بل يظهر تحرُّشاً وشراسة وتفتيشاً دقيقاً.

لما وصل أجود الى باب الإمام خارجاً قدحت الذكرى في نفسه فملاّته حيناً وشوقاً؛ هنا وجد الحاج صبحي عباس وهو طفل صغير، هنا سمع صراخه ومن هنا حمله، ترى لو لم يحمله الحاج صبحي ماذا كان سيكون مصير عباس؟ خرج عباس هارباً من هنا وها نحن نعود مجبرين، هل بين هروب عباس وعودتنا صلة؟ لا يعلمون، ربما كل انسان يعود بطريقة أو أخرى الى أصله وها هم يعودون الى مهد جدهم.

-عدنا الى أصلنا!

قال أجود ذلك وهو خارج من الامام، ففهمت مهدية مغزاه.. فقالت:

-الديار والأصل حيث تستقر.. أينما حللت فهي أرض الله.

فقال أجود بفتور:

-أنتِ لا تؤمنين بالوطن كبسام؟

فشاحت بوجهها المليء بترع جافة؛ إذ لم يعد في العين ماء لتسقيها ودمدمت:

-الوطن.. الوطن...

- ٣٣ -

«سُعِيَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ بِعَلِيِّ الْهَادِي رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ فِي مَنْزِلِهِ كُتُبًا وَ سِلَاحًا مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ أَهْلِ قِيَمٍ وَ أَنَّهُ عَازِمٌ عَلَى الْوُثُوبِ بِالدَّوْلَةِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ الْأَتْرَاكِ فَهَجَمُوا دَارَهُ لَيْلًا فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا شَيْئًا وَ وَجَدُوهُ فِي بَيْتٍ مُغْلَقٍ عَلَيْهِ وَ عَلَيْهِ مَدْرَعَةٌ مِنْ صُيُوفٍ وَ هُوَ جَالِسٌ عَلَى الرَّمْلِ وَ الْحَصَى وَ هُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُو آيَاتَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَحَمَلَ عَلَى حَالِهِ تِلْكَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ وَ قَالُوا لَهُ: لَمْ نَجِدْ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا، وَ وَجَدْنَاهُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ.

وَ كَانَ الْمُتَوَكِّلُ جَالِسًا فِي مَجْلِسِ الشُّرْبِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَ الْكَأْسُ فِي يَدِ الْمُتَوَكِّلِ، فَلَمَّا رَأَاهُ هَابَهُ وَ عَظَّمَهُ وَ أَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ وَ نَآوَلَهُ الْكَأْسَ الَّتِي كَانَتْ فِي يَدِهِ.

فَقَالَ: «وَ اللَّهُ مَا يُخَامِرُ لِحْمِي وَ دَمِي قَطُّ فَأَعْفِنِي» فَأَعْفَاهُ.

فَقَالَ: أَنَسِدْنِي شِعْرًا.

فَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَام) : «إِنِّي قَلِيلُ الرِّوَايَةِ لِلشَّعْرِ» .

فَقَالَ: لَا بَدَّ .

فَأَنشَدَهُ (عَلَيْهِ السَّلَام) وَ هُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ:

بَاتُوا عَلَى قُلُلِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ ❖❖❖ غُلِبَ الرِّجَالِ فَلَمْ تَنْفَعَهُمُ الْقُلُلُ

وَ اسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ ❖❖❖ وَ اسْكُنُوا حُفْرًا يَا بَشَمًا نَزَلُوا

نَادَاهُمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ دَفْنِهِمْ ❖❖❖ أَيْنَ الْأَسَاوِيرُ وَ التِّيْجَانُ وَ

الْحَلَلُ

أَيِّنَ الْوُجُوهِ الَّتِي كَانَتْ مُنْعِمَةً ❖❖❖ مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ
وَالْكِلَلُ

فَافْصَحَ الْقَبْرِ عَنْهُمْ حِينَ سَاءَ لَهُمْ ❖❖❖ تِلْكَ الْوُجُوهُ عَلَيْهَا
الدُّودُ تَقْتُلُ

قَدْ طَالَ مَا أَكَلُوا دَهْرًا وَقَدْ شَرِبُوا ❖❖❖ وَأَصْبَحُوا الْيَوْمَ
بَعْدَ الْأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا

قَالَ فَبَكَى الْمُتَوَكِّلُ حَتَّى بَلَّتْ لَحْيَتَهُ دُمُوعُ عَيْنَيْهِ وَ بَكَى
الْحَاضِرُونَ، وَ دَفَعَ إِلَى عَلِيِّ الْهَادِي أَرْبَعَةَ آلَافِ دِينَارٍ، ثُمَّ رَدَّهُ
إِلَى مَنْزِلِهِ مُكْرَمًا.

وَقَالَ: فَضْرَبَ الْمُتَوَكِّلُ بِالْكَأْسِ الْأَرْضَ وَ تَنَغَّصَ عَيْشُهُ فِي
ذَلِكَ الْيَوْمَ. « هذه ملخص رواية المسعودي عن دخول علي
الهادي الى سامراء، ولا أعلم صحت روايتها، ولكن من خلال
الظروف التاريخية لتلك المرحلة أكاد أجزم بصحتها.

فقال أجود مجيباً بسام وهما خارجان من المدرسة نحو الملوية
لزيارتها:

-لِمَ هذا الجزم في صحة الرواية؟ ربما يكون أحد أنصاره
وضعها ليظهر لكم علي الهادي بهذه الهالة والعظمة
الأسطورية.

-صحيح كلامك إذا غفلنا عن عداوة بني العباس لآل البيت،
تلك العداوة الطويلة التي ملأت صفحات من الصراع الطويل
الأسود. السلطة الحاكمة كانت تخاف آل البيت وكأنهم ريح
صرصر عاتية، والحق أن آل البيت كانوا خطراً على السلطة
الفاسدة التي تجور وتظلم، ومع مرور الأيام نصبت الناس

من حيث لا تشعر آل البيت رقباء على السلطة، بل رقباء ومعارضون يمتلكون جمهوراً عريضاً يستل السيوف في آن، وهنا نستطيع أن نفرق بين العالم الواعظ والرجل العلوي، إذ أن الواعظ يعظ الخليفة وللخليفة حق القبول أو الرد بل والغضب من ذلك الواعظ وقد يسجنه وينكل به ، أما آل البيت فهم الرقباء المعارضون الذي يخشى شرهم، ويبدو أن آل البيت اقتنعوا حقاً بهذا الدور الذي توجه الناس إليهم.

-إذن أنت تؤمن بـمال لآل البيت من كرامات ووقفات ورد العدا ودفع البلاء؟

فقال بسام ضاحكاً :

-ليس الى هذا الحد، هنا الناس مفرطة في كرامات الإمامين حدَّ التطرف، وهم مقتنعون مؤمنون بها اقتناعاً تاماً، وأنا مؤمن أن لهم كرامة في حياتهم ودوراً سياسياً كبيراً كما تصفه الكتب ولكن ليس الى هذا الحد..! اذا كان الأولياء يدفعون بلاءً فما عمل الله إذن؟

فضحك أجود قائلاً:

-أنت سلفي؟!

فقال بسام بترؤ:

-ما مفهوم السلفي عندك؟ المشكلة أن الناس تخلط خلط عجيباً بهذه المصطلحات: سلفي، وهابي، داعشي، إخواني، قاعدة .. كل تلك المسميات تتطوي تحت منهج وطرق مختلفة.

-ولكن له أصل واحد!

-هذا اشكال عندك، أنت لا تكلف نفسك عناء البحث للتفريق

بين تلك المصطلحات وأصولها وأفكارها ورجالها .

-لا تتفلسف كثيراً يا بسام، هذا الأمر واضح .

فقال بسام ذاهلاً :

-ولمَ التفلسف؟ أنا لم أعترض عليك حتى، الذي قلته لك :
تمهل وتأنّ، قبل أن تطلق أحكامك جزافاً، لأنها ستبدو لمن
يعي ساذجة بل تعبر عن ضيق في التفكير .

فقال أجود مستسلماً :

-لو عشت ربع الذي عشناه في الأشهر القلّال التي تولوا
أمرنا لعذررتني .

-قصّ عليّ .. فضفض .. أفرغ ما في داخلك من حزنٍ وألم
قبل أن ينهمر دفعة واحدة أثر الانحباس الطويل .

وفعلًا ... وهما يقطعان الطريق الى الملوية حكى له عن القرية
وما فيها من هالة وادعاء على إنها قرية العجائب والغرائب
ويقصدها السحرة والمتطفلون والباحثون عن الخلود والعيش
بلا أمراض وأوجاع، بل عيش رغيد، وعن قصة جده عباس
وكيف وجدته الحاج صبحي في باب الإمام وهروبه ولقاء
جدته حمدية في مكان القرية، وقصة أبيه مع العسكرية
وشائعة موته وموت عباس، وعن عداوة أمه وأخيه جواد مع
عمهم سعد، وحكاية داعش مع القرية، بل أفاض في ذكر
أبي سليمان وطلحة ورحمة وعلي وتحسين وأسامة .. وأفاض
بذكرهم واستحضر اشجاناً قد غابت في عتمة الذاكرة .. لمَ
يا بسام تلح في معرفة تلك التفاصيل؟ ألا تعلم أنها مرهقة
.. متعبة .. تستنزف الروح؟ لماذا تصر على أن نبقي قيد
الذكرى؟ مرهونون بماضٍ مليء بالشجن والإرهاق وجرح

الروح والكرامة قبل الجسد؟ أتحب أن أكشف لك الطعنات التي هوت على جسدي فسقطتُ في هوة الكره لذلك الماضي ؟ بل تضاعف ذلك الألم لصلينا عذاباً لا أعرف كنهه وسببه، أم تريدني أحدثك عن الكوابيس المفزعة التي تسلطت عليّ ولم أقصّها على أحد الى الآن؟ منذ ولجنا هذه المدينة وأنا لا أنام كما تنام الناس، أغفو وأنا أحلم بها .. رحمة .. أحلم بتلك الليلة التي لم تبارحني بل بقيت عالقة وتمطت بصلبها في الأعماق .. لم؟

-لم خسرنا كل شيء؟؟؟

سأل أجود بساما بعد أن سرد حكاية قريته .

لم يجب بسام بعد أن تاه وغرق في عالم القرية العجيب — أو بدا له عجيباً — .. القرية عالم متكامل من الآمال التي وأدت وذبحت، الدولة التي سقطت وقامت أخرى، الأحلام التي غدت أوهاماً .. في القرية يتلخص قانون التاريخ السياسي .. القوي يحق الضعيف .. ولا بقاء لمن يرفض ذلك المبدأ : (إن لم تكن معي فأنت عدوي). دخلا الملوية فبدت لهم شاهقة تتبهم بعظمة تاريخ المتوكل .. بنو العباس وصهيل خيولهم الجامحة تقف هنا تنتظر أمر المعتصم لتتطلق تلك الخيول النافرة تنصر المظلومين .. من استصرخ حميتهم ولاذ ب(أمير المؤمنين) يوم كان لأمير المؤمنين عطف وغيرة .. ودخلوا الى المسجد أولاً عندما اعترض طريقهم .. عندما دخلوا المسجد خرجوا من ضيق الحياة الى سعة التاريخ .. ما لك يا أجود مبهور؟ ما لك صامت وفي عينيك تجلت آيات الحزن ؟ أهو الشوق الى العزة في زمن الذلة؟ ما للشجا يبعث الشجا وما له الحزن حتى يستدعي أحزاناً مندثرة بدثار النسيان؟ هناك

عَنَتِ الوجوه وخشعت الأصوات ولم يعد يسمع له همس؛ إلا صوت التاريخ وأصداء صوته في القلوب.. هنا جمع الخليفة جنده يوم نادته تلك الحرة: وا معتصماه. ليأتي صوته عبارة عن جيوش متموجة متدافعة متعطشة لنصرة المظلومين: لبيك يا أختاه. هنا كانت حضارة تامة.. هذا المسجد آية كمال عاصمة الخلفاء التي خربت سريعاً ولم تعيش طويلاً، هذا الحزن الذي يلف أرجاءه ينم عن ما عانى من إهمال، فأرضه محفورة وملبئة بالحجارة القديمة، وهذا المحراب قدّر انتشرت به الأوساخ، أهكذا يكون حال مسجد أعتى عواصم التاريخ رسوخاً؟! أهكذا يكون مصير الحضارات والثقافات؟ ثم خرجوا منه الى الملوية بعد أن شبعوا من شجا التاريخ ثم صعدوا درجات الملوية التي ألفت بظلالها عليهم يعلوهم صمت كئيب. الملوية هي الأخرى التي كانت تبعث الشجا يعلوها كربٌ شديد.. جدرانها ملطخة بكتابات تشجيعية وتستحث الجيش للنصر والمضي قدماً ضد التنظيم، وشاح أسود يلف رأسها حزناً على الشهداء ليراهها كل من دخل المدينة من أقصاها الى أقصاها ويعلم أن المدينة قد أعلنت الحزن والحداد الدائم الى أن يندحر التنظيم، من ير تلك الطقوس يوقن أن هذه ستكون محطة مهمة للتحرير القادم، هذه المدينة بقيت شامخة لم يدحرها الإرهاب ولكنها كشموخ عجوز يأس من الحياة فشموخه وصالده تميل الى الوهن وهكذا سامراء واهنة على شموخها، بأئسة على شهرتها، يعلوها شحوب الأموات، ولكن ما ذنب المدن؟ أليس نحن من يقطنها فيوهنها أو يعمرها؟ ولكن ما ذنب هذه المدينة يتسللها الخراب حتى لتكاد تظنها مدينة أشباح خارج الفلك المشحون؟ لا نملك الا أطلالا نندبها تارة ونفخر بها تارة ونلعن الساعة

التي ولدنا هنا تارة أخرى ونعشقها كعاشق حنَّ الى الوصال
في أحيين كثيرة.

-بماذا تقاس المدن؟ وكيف نعدّها ذروة المجد ومنتهاه؟ بالذين
يسكنونها ونحبهم ونجلهم فنعدّها الأرض التي يسعد فيها
الناس؟ أم لأنها عامرة مترامية البنيان؟

فزفر بسام وقال مجيباً أجود:

-كلاهما!

-يجتمعان؟!

-الثانية تؤدي الى الأولى وازدهار العمران يأتي تباعاً إذا أمن
النّاس ورأوا الحاجة ملحة الى البناء لتمام مجدهم.

ووصلوا الذروة فوققوا والمدينة بدت أمامهم هادئة ونهرها
جار بهدوء والمساكن نائمة لا يقطع رقدتها الا حفيف السيارات
الضئيل، فقال أجود وهو يتأملها:

-انظرها من هنا كم تبدو وداعة؟ لو كنت صاحب قصر عال
مطل على المدينة، ولا تنزل إليها بل تنظر اليها من هنا، هل
ستشعر بهمومهم وكروبهم؟

-لم أفكر في هذا السؤال يوماً.. لا اعرف!

-علي فكر بهذا السؤال!

-كيف؟

-فكّر من منظور آخر، قال إذا وقفنا في مكان عال ونظرنا
الى من هم دوننا سنشعر أن الحياة مريحة رخيّة، فكيف لو
كنت الَاهُا من فوق سبع سموات تنظر..

-...!

-ومن هذا المقياس قال: إن الله لا يرانا ولا يشعر بهمومنا ولا يقتص من ظالمينا!..

-ألهذا كفر؟!

-وهل تسميه كافراً؟

-أنكر قدرة الله.

-فقال أجود بإصرار:

-ولكنه مؤمن.

-كيف إذن؟

-فقال وعيناه دامعتان:

-هو مؤمن أكثر مني ومنك، هو كفر بهم، هم .. هم ..

-فقال بسام محاولاً تهدأته:

-يعني داعش كانت الراعية الرسمية للإلحاد كما يقول الدكتور أحمد خيرى العمري، فهم الذين أدوا به الى هذه النتيجة الضيقة.

-لا أعلم.

-فليرحمه الله.

-هل سيرحمه الله؟ هل سيفغر له ويدخله جنته ويجنبه عذابه؟ هل الذي يجاوز عن الزناة واللوطيين بل والقتلة ألا يغفر عن الذين شكوا وارتجوا بسبب النوائب؟ قل لي يا بسام.

-لا أملك مفاتيح الجنة أو النار لأصنفهم.

-هو لم يكفر به، هو كفر بأولئك الذين ادوا أنهم وكلاء الله
وخلفاؤه.

-ليس ببعيد على الله.

في تلك اللحظات هبطت الشمس وغارت وجاء الظلام
مدججاً يظلل المدينة الناعسة.

٢

حنين الى القرية

نَحْنُ لَا نَحْنُ إِلَى الْمَاضِي لِرُوعَتِهِ، بَلْ لِبَشَاعَةِ
الْحَاضِرِ.
د. علي الوردي

-٣٤-

هل المدن تذنّب؟ هل هي من ترتكب الخطايا وتقترب الخراب
فتلعنّها تارة ونحنُ إليها تارة أخرى؟ هذه المدينة مغرورة على
فقرها.. في الحياة تصادف صعلوكاً متكبراً ومغروراً، فتشعر
أنهم أقبح خلق الله وأكثرهم كرهاً في قلوب الناس، والمدن إذا
كانت مغرورة وصعلوكة هل نمقتها؟ هذه سامراء شهرتها في
الآفاق ولكن أهلها في الحضيض، يفتقدون العيش الرغيد،
والشوارع النظيفة والكهرباء والماء الصالح للشرب، وفوق هذا
البطالة التي قسمت ظهرها، وفوق هذا هي محاصرة مطوقة
لا يدخل أحد الا بعد اجراءات معقدة ومريرة، ولكن وسط
هذه البطالة كيف سيعيشون؟ هذا السؤال كابوس آخر لأجود
مع كوابيسه التي لم تنته منذ دخل المدينة، هل يترك المدرسة؟
ولكن المستقبل بالشهادة وعلى الأقل ليأخذ شهادة الثانوية
ومن ثمّ يحاول أن يجد دراسة خارج العراق ويرحل كما خطط
بسام، ولكن في هذا الوضع الراهن قد ذهبت المنظمات
الحقوقية لتغيث أولئك الذين يسكنون الخيم فهم يعتبرون
في ترف أمام حالات أولئك فهم ينتظرون الراتب الذي طال
ولكن على العموم قد وعدهم المحامي أنهم سيحصلون على
ما فات من راتب الشهور المنصرمة ولكن متى والدولة على
أبواب الحرب التي أشرعت باب التقشف الذي أصبح كابوساً
يؤرق الموظفين والمتقاعدين.. رواتب الذين يلجون الخضراء

في ارتفاع وعامة الشعب في شظف..(نحن نعيش في شظف وهم في غاية الترف، وهذا دأب الحكومات إذا حان أجلها، وهذا حال الشعوب إذا أزفت الثورة) هكذا قال بسام، عندما قال له أجود أن الربيع العربي هي الثورة التي يتحدث عنها رفض بسام، وقال: هناك ثورة أعتى ستأتي. عندما تسكن سامراء تستحضر كل الوجع العربي ..الهزائم.. الخذلان.. الخيانة.. الزيف.. الطغاة.. الغزاة.. الهروب .. الهجرة.. الغربة.. البؤس.. هي صورة متكاملة للحضارة المسلوقة، المجد الضائع، التشرذم بكل صوره المقهورة.. هنا ترى أطلال دولة عتية فخانها الزمان وتركاها، هنا صورة حيّة لكل الانكسارات ولمأل الدول، بل تجد الشجن مرسوم في معالمها يشكو ويئن طعنات الزمان الذابحة .. وصفعاته الغادرة.. نحن لذنا بها لتكون لنا وطن فوجدناها داراً مختلطة طافحة بالبشر من كل لون، ولكن كلهم تنطوي صدورهم على ذاك الحب .. حتى إذا احلولكت الدنيا وماج بهم الركب قالوا:

ويل بيك ظيم وتطلب مرادي نوخ ذلوك عد علي الهادي



-تهديهم؟

قال ذلك أجود في لهجة استنكارية؛ عنما رأى بساماً يصحب شباباً غير مناسبين له ولثقافته، فمظهرهم لا ينم عن أي التزام ديني، بل هم جالسون على قارعة الطريق يضحكون ضحكاتهم المججلة ويطلقون السخریات اللاذعة، وكثيراً ما رأهم أجود وهو بهم بدخول الزقاق واقفين ويتحرشون بالطالبات الذاهبات الى المدرسة، مما دفع أجود لتحذير بتول منهم، بل قالها أجود صراحة لبسام: ألا تخاف على أختك؟؟؟

لكن بسامًا كان هادئًا لا تستفزّه تلك العبارات التي تثير كوامن الرجولة التقليدية.

-أهديهم وأصلحهم.

-كيف؟

-يا أخي كن لينًا معهم « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » هذا أدب القرآن الذي اتبعه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فلا تبق مندفعًا هكذا ..

-ولكنهم ...

-اعرف .. العافية دراجات.

كان ذلك الأمر مما يضيق صدر أجود، ولا يستطيع استيعابه، تلك العلاقات مع الأصدقاء الكثيرة، ثم كيف يهديهم؟ كان ذلك الأمر عصيا على الفهم، كان بسام لينًا مع الكل، يدعو الى الله — كما يقول — حتى على الفيس بوك كانت له صداقات كثيرة مع ألوان مختلفة من الناس، بل يقضي الليل يحادثهم ويقنع هذا ويجيب ذاك، وخلاصة الأمر أن بسامًا كان محبوبًا وهادئًا يتقبل الكل، ولكن في داخله اندفاعا صاخبا ليهدي الناس أجمع لطريق الحق والهداية، ذلك الاندفاع بتلك الطيبة وتلك الأخلاق جعل أجود يخشى عليه، أو يعده ساذجًا، وبسام هو الآخر عد الذين اعترضوا عليه سذج.

قال أجود بعطف:

-أنت طيب يا بسام .. ولكن الناس لا تستحق هذه الطيبة، هم لن يروك طيبًا كلهم، بل منهم من سيمكر بك، سيتحين الفرص ليكسرك، يروك عدوًّا وماكرًا، ومنهم من يضمرك لك

حقداً ستراه على شكلٍ أشواك مزروعة في الطريق لتعثر
وتسقط.

فردَّ عليه:

-إنك تفرط في الظنون الآثمة، الناس يحتاجون لمن يرشدهم،
لمن يقول لهم هذا خطأ وهذا صواب، يجهر بالحق، الحق يا
أجود يريد ألسناً ترشد.. من رأى منكم منكراً فليغيره بيده،
فإن لم يستطع فبلسانه.

-فإن لم يستطع فبقلبه.

-وذلك أضعف الايمان، وأنا بفضل الله لست ضعيف الايمان
لأقف عند الانكار القلبي.

-ولكننا في زمن لا يرحم.

-البشر هم الذين غدو وحوشاً واتهموا الزمن بطلاناً وزوراً.

وهكذا بسام لا يقتنع، من أي الاتجاهات أتيته أتى ما يدحض
حجتك ويبطله. وصلاً الى باب بيتهم وهم مشغولان في
نقاشهم وما أن دخل بسام بيته مودعاً حتى أخذ أجود يتلفت
يمنة ويسرة وشيء قدح في نفسه ويلح عليه إلحاحاً.. يشعر
أن نظراتها تخترقه، ماذا ستقول عنه؟ وسيم؟! أنى له الوسامة
وسمرة الفلاحين طاغية عليه؟! لعل شخصيته ستعجبها وهو
يمتلكها، أجل، ألم يقل له علي مرة __ وهو الذي درس في
بغداد وعرف ما لم يعرفونه عن البنات __ أن البنت تعجب
بشخصية الشاب أكثر من مظهره؟ بل يحببن الشاب الشجاع
وهو القروي الذي يمتلك شجاعة وثقافة وشخصية.. ولكنه
فقير. عندما تذكر علة هذه ضاقت نفسه وشعر بشيء
يعتصر في بطنه .. أجل، هنَّ يعشقن الأثرياء ذوي السيارات

الفارهة والذي يغدقون عليهن الهدايا اغداً .. ثم تشجع
ورفع رأسه وإذا بها ترمقه وتعلوها بسمة خجلى وسرعان ما
اختفت خلف الستارة فملئت نفسه حبوراً وبسمة .. بل وصار
يفكر كيف رآته وما قالت عنه، وبينما هو على هذا الحال
فُتِحَ بابهم وإذا ببتول قد فتحت الباب ورأت أخاها هائماً
رافعاً ببصره الى شباك نوار ... فقالت:

-أجود .. مالك؟

فانتبه الى وجودها:

-لا شيء .. لم تقفين في الباب؟

-رأيت أقدامك من الحوش.

فدخل وأوصدت الباب قائلة:

-الى أين كنت تنظر؟

-كيف يعني؟

-عليّ يا أجود؟ كنت تنظر الى غرفة نوار...؟

-...؟!

-تحبها؟!

-ماذا تقولين؟

فدخلت راكضة الى أمها بمرح طفولي:

-ماما .. أجود يحب نوار بنت أبي بسام.

فقالت مهدية متعجبة:

-صحيح ما تقوله؟

فقال كاظمًا هواه المستعر:

-لا .

-اي.. بنت ليست من ثوبنا، تلبس التنورة ولا ترتدي فوقها
جبة، وأبوها رجل معقد، لا، غير ملائمة له.

فقالت بتول:

-يا عيني عليه، عاشق يشتهي الوصال.

فقال بعد ان استفزته:

-كفى وإلا ضربتك بالعصا.

فقالت مهدية:

-كفى يا بنت .. اش.

-٥٣-

أتعلمين يا رحمة أنك وحدك شغلي الشاغل، أنت تلك الأفكار
التي تغير أول ما أضع رأسي على الوسادة، أنت التي تأتين
في المنام فأقوم فزعًا هلعًا، كلما ذكرتُ القرية انتصبتُ أمامي
كجذع نخلة وارف الظلال، أنت الذكرى الجميلة على بشاعة
الذكريات الماضية، أنت الحنين الذي لا يخبو، بقيتُ أتساءل
دومًا بأبيات الجواهري:

وجئتُك في نشوة اللاعقول

أجرُ جنازة عقلي معي

أتيْتُك أفتلُ حبلَ السُّؤال

متى ضَمَّكَ العِشْقُ في أضلعي؟!

كيف؟ أما زلتِ تذكرين لقيانا عند النخلة متخفين وقت الظهيرة؟ أتذكرين كيف كنتُ أزداد لهيباً كلما ازددنا التصاقاً وأنتِ تدفعينني قائلاً: عندما نتزوج يا أجود. فأزداد شوقاً، وتتساب ترنيمة ابنِ عربي الخالدة لتسكب زيتاً على شوقي فيزداد ويمتد: «كلُّ شوقٍ يسكن باللقاء لا يعولُ عليه» أتذكرين عندما كنتُ ألمحك كيف أفقد كل الأشياء وتبقين أنتِ أيتها السمراء؟ أتذكرين كل تلك الأشعار التي كنتُ أشرحها لك؟ وسرعان ما جمعت طرفاً من الأدب، فبدأت تفهمين الكثير من شعر نزار ودرويش والسياب، وبإمكاني أن أنسى كل الأشعار الا تلك الأبيات التي قلت لك إنها أجمل ما راقني من شعر نزار:

فإذا وقفتُ أمامَ حسنك صامتاً

فالصمتُ في حَرَمِ الجمالِ جمالُ

كَلِمَاتُنَا فِي الْحُبِّ .. تَقْتُلُ حُبَّنَا

إن الحروف تموت حين تقال

قصص الهوى قد أفسدتك .. فكلها

غيبوبةٌ .. وخُرافَةٌ .. وَخَيَالُ

-قم يا أجود .. الماء سيدخل علينا..!

جاء صوت بتول قاطعاً أفكاره وذكرياته والأشعار الجميلة، الفراش دافئ في هذا الصباح الممطر. فقام بكسل وإذا بالسماء تزمجر وتهطل بكثافة، وكاد يذكر المآسي التي سيجرها المطر فتكدر صفوه، ووقف أما ذلك الشق يتابع انهماره، النازحون

الذين يقطنون الخيم.. كيف حالهم؟ ألم ينقلب هذا الصباح عزاءً؟ ألم يلعنوا أيامهم، ألم تجلس النساء باكيات نادبات يلمن أزواجهن كما كانت حمدية تنذب عندما رحل ولدها للحرب؟ تتعد المآسي وتختلف المصائب والنوائب ولكن الحزن واحد. تذكر السياب ورائعته انشودة المطر.. كيف له أن يجمع الشتات والضياح والدماء فيها؟ هل تذكريني؟ عندما كنت ألمح شرفتك وأقف تحتها والسماء تهطل والناس تلوذ ببيوتها مع شكر الاله متمنين موسماً وفيراً .. أنا استغل غفلتهم واسترق اللحظات وأقف أتلو تراتيله:

«أتعلمين أيَّ حُزْنٍ يبعث المطر؟

وكيف تتشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياح؟

بلا انتهاء - كالدَّم المراق ، كالجياح ،

كالحبِّ ، كالأطفال ، كالموتى - هو المطر!»

عجيب هذا الرجل وكيف وصل الى هذا الحد.. كنا نحفظها كلمة كلمة.. هي عدتنا في الشتاء وقوتنا ودفئنا من العشق:

«كالبحر سَرَّحَ اليدين فوقه المساء ،

دفع الشتاء فيه وارتعاشة الخريف ،

والموت ، والميلاد ، والظلام ، والضياء ؛

فتستفيق ملء روعي ، رعشة البكاء

ونشوةٌ وحشيَّةٌ تعانق السماء

كنشوة الطفل إذا خاف من القمر!»

رعشات البكاء تجتاحني..

وبينما هو يتابع الانهمار جاء صوت أمه واهناً مبجوحاً: آه.
فخرج مسرعاً وصوت بتول وصرخاتها المتتابعة قد شقت
الفضاء.. كانت أمه ساقطة في الحوش في ذلك الطين اللزج
وقد فقدت القدرة على الكلام... فقام أجود مسرعاً ودق باب
بيت أبي بسام وطلب النجدة.. وما هي الا دقائق حتى كان
بسام بسيارتهم يقف عند الباب، حملها أجود ووضعها في
السيارة.



يقفان عند الباب منتظرين الطبيب ، أجود جلس وهو لا يكاد
يصدق، ماذا بها؟ لم لم تستطع الكلام؟ ماذا بها؟
خرج الطبيب بخطوات واهنة، فقفز أجود أمامه، وقال
كالمصعوق:

-دكتور ما بها أمي؟

-فقال الطبيب ببطء وعطف:

-مع الأسف نتائج التحليلات تقول أن حوضها مكسور!

-!....-

-لن تستطيع التحرك الى أن يجبر .. على الأقل ستة أشهر..
وقد تحتاج لعملية!

عندما قال الطبيب كلمته لم يستطع أن يقف كما تقف الرجال
بل انتحى جانباً وجلس ينشج.. ينشج على ذلك قوتهم الخائرة
.. على عيشتهم التعيسة.. وعلى الحال الذي انقلب بهم.. على
صفعات الزمان .. اصبر يا زمن ما لك تحد انيابك وتتشب

مخالبك؟ لسنا سيئين لهذا الحد لدرجة أن تعظم الخسائر لتكون فادحة الى هذا الحد، ما معنى أن نفقد أخي ويموت أبي وتكسر أمي؟ ونفقد المسكن والأرض والحببية؟ ترى أي لعنة هذه التي أصابتنا وأي عين حاسدة؟ لم يبقَ شيء لم نخسره في أشهر ستة خالية.. هويانا من العز الى الذل... من غنى النفس واليد الى ذلة السؤال.. أما كفاك يا زمن؟ ما الذي فعلناه؟ لم شردنا فلم يبق مسكن ناوي إليه؟ لم جعلتنا تائهين.. يشبه تيه عباس لما خرج من هذه المدينة.. ولكن تيه عباس كان ليلة وانجلى فما للتيه جاثم على صدورنا كأن لم يعرف احداً غيرنا..

بقي في المستشفى الى أن حلَّ الظلام وهو لا يفكر الا بها، بعد العاشرة وبعد أن اطمأن عليها خرج من جناح الطوارئ متهادياً بفتور .. وكان أول ما لاح له الملوية وهي شامخة شاهقة منتصبه كمجد تحدى الزمان وزوابع الأيام الحالكات .. بقي واقفاً ويتابعها ويتخيلها شاهدة على التاريخ الطويل.. منذ أيام جعفر المتوكل وقد ارتقاها خلفاء وأمراء وصعاليك ومحتلون، هناك في أعلاها كان القناص الأمريكي يفتك بأهل هذه المدينة ويتصيدهم، وذلك المكان نفسه قصفته الأمريكان غير مرة فأعادت الدولة ترميمه وترتيبه.. هي التي شهدت صهيل الخيول الجامحة المنطلقة لاختضاع العداء ذاتها التي شهدت بنادق الباطل وهي تجتاحها .. ما أتعسها.. إنها تتن من كثرة وطأة الزمان .. ولعلها تنذب وتبكي المتوكل وتناديه: أين أنت يا جعفر؟!

-٣٦-

-خال حسين؟

قالها أجود بتعجب عندما وجد خاله ومنذ الصباح الباكر يقف في بابهم. (من الذي قال له أصلاً)؟ سأل أجود نفسه. فدخل وهو يلعن ذلك المستأجر ذو الاسمال البالية ويرغي ويرعد:

-لك أنت رجل؟

-لم؟

فقال مغاضباً:

-كيف تترك أمك هي من تمسح ماء الحوش..؟

-أنا..

فقاطعه:

-كنتَ نائماً. لكن هو ليس ذنبك، بل ذنبك أمك التي علمتك على الدلال.. رحمك الله يا حاجة حمدية عندما كانت تقول عنكم: تربية سز، تربيتها.. لم تعلمكم على الخشونة والعمل.. استح انت وأخوك.. أمك تعمل للبيوت هي وأختك وأنت وأخوك لا شغل ولا مشغلة... طز بهذا الزمن الذي جعل أمك مهدية الحنون والدة لأمثالك!

-كفى يا خال .

-ماذا ينفع التوبيخ ؟ ..يا بنت اعلمي شيئاً ..

ثم دخل وهو يلعن الشارع والمطر وصاحب البيت .. من النعم ما يكون نقماً .. فالمطر كانوا يبتهلون الى الله أن يمنحهم اياه، ولكن لما صار مؤذياً وها هي مهدية مطروحة في المستشفى بين الحياة والموت ولا يعلم أحد مصيرها .

فقال الخال وهو يرفع كأس الشاي :

-ستذهب بأمك الى أربيل أو بغداد .

فقال أجود :

-الطبيب قال ستة أشهر وإن لم يلتحم كسرهما نجري لها عملية .

-لا عليك بهذا الطبيب، سنأخذها لغيره .

-لننتظر .

-لا، لا يوجد طبيب حاذق يستحق الاشارة هنا .. سنأخذها ..

كانت بتول جالسة متلفلة بشالها الطويل وهي تتشج بصمت .. فقال لها الخال :

-كفي يا ابنتي، يعني فوق الهم تبكين .. كفى .

دخلوا عليها في جناح الطوارئ فأروها تتكلم بصعوبة بالغة، بتول جثت عليها منتحبة .. الخال داهمته الدموع على حالها التعيس .. وأجود وقف باستسلام . أتت الممرضة تتمايل .. فقالت: أوه نسيت الدواء المفروض قبل ساعة !!

ففار وثار الخال وقام مزمجراً ولا عنأ المستشفى بمن فيه، بل

- وزارة الصحة من رأسها الى أصغر موظف.. الى أن قال:
- ماذا نفعل؟ يعني بلد لن تقوم لك قائمة .. هذا حالنا .. وأين المدير ..
- فهرع إليه مدير المستشفى وخلفه أطباء وممرضون .. فقال الطبيب:
- خير يا حاج ..
- يا دكتور هذا حال المريضة؟ حتى الدواء لم تعطه؟ ماذا نفعل؟ نموت؟ لا نأتي؟ ألم تأخذوا راتباً مقابل العناية بالمريض؟ والله إنه لسحتٌ حرام في بطونكم ..
- اهدأ يا حاج سنفعل اللازم.
- بعد أن أنتموا الفحوصات وخرج الطبيب، قال الخال:
- يا أم جواد، ستذهبن الى أربيل، هناك الأطباء أفضل ولديهم أجهزة مختصة ومتطورة، هنا كما رأيتم، لا أحد يهتم بالمريض... فليذهب الى جسيم... سأحجز لكم سيارة وغداً تذهبان.
- فقال أجود ببطء:
- الطريق آمن؟
- سألتهم.. نعم آمن .. قد تتعرضون لسيطرات داعش.. لكن لن يؤذوكم.
- وبتول؟
- مالها؟
- تذهب معنا؟

-لم؟

-تداريها .

-وأنت؟

فقال بصوت خفيض:

-تحتاج الى مداراة لا تعرفها إلا النساء .

-إذن تذهب بتول أيضاً .

فقالت مهدية بصوت مبحوح:

-أجود .. خذ الذهب الموجود عندي .. وبع منه .. يا بني
الفلوس التي لا تعز أهلها وقت العوز لا خير فيها .

باع خاتمين وقلادة بمليون ونصف وقبض الثمن نقداً، شك
به الصائغ أول الأمر وخشي أن يكون لصاً سرقها لكن أجود
شرح له وضعهم .

الخال هو الآخر دفع له مليون دينار وكان ذلك كرمًا منه لم
يتوقعه أجود، ولكن هذا طبع الخال حسين يقف في الأزمات
مواقف شجاعة، قد تبدو لأول وهلة متهورة أو شذوذ في طبعه،
ولكن هذا الكرم الفياض هو طبع أصيل فيه شابه شطحات
من الغضب السريع والتي صقلته الأيام وسقته الأحزان وبعد
الأحباب فكان الخال حسين بتلك التركيبة الغريبة .

في الليل جلس أجود مطرقاً كاسف البال قد استولى عليه
الهم، بتول تكفكف دموعها وتعد الحقائق، دق الباب .. لعله
الخال .. قام وإذا ببسام وأبيه وإمام المسجد، رحب بهم وأفسح
لهم الطريق لكنهم اعتذروا، فقال ابو بسام:

-يا ولدي غداً ستأخذ الوالدة شافها الله، وأمامكم درب

طويل ولا تعرفون ماذا ستحتاجون، فخذ هذا منا .. نحن أهل المنطقة ومصلو المسجد .

-لا يا عم، الخير كثير والحمد لله، نحن لا نحتاج الى المساعدة، عندنا ما يكفي.

فقال امام المسجد :

-يا ولدي، هذا سفر، ولا تعلم ما به، ستحتاج أموالاً كثيرة، ولا تعلم ما سيلقائك، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، و«إنما المؤمنون إخوة».. خذ يا ولدي.

فمدَّ يديه بخجل وأخذ .. ثم دعوا الله أن يعافي أمه وودعه .
اغلق الباب وفتح الظرف فوجد رزمة من فئة العشرة الاف .. فتبسم وفي نفسه هاجت الذكريات الخالية، بين صورة الاسلام عند التنظيم ومشهد شحط علي محاكمته واعدامه ومشهد امام المسجد وهو يناوله الأموال لعلاج أمه دون أن يعرف مذهبه أو فكره أو حتى هل كان يصلي أم لا، هنا صورة حية للدين الذين يعمل رجال لإنقاذ الانسان من بؤسه روحياً ومادياً .. رفع رأسه الى السماء وإذا بغيمة تحوم فوقهم وبدا الجو ساكناً والقمر منيراً، الليل يشبههم؛ الظلام يحتل مساحات واسعات ومع ذلك هناك قمر ونجوم ينيران تلك العتم .. أمني مثل القمر مهما ضؤل وتراخى وهزل يبقى يشع ونير وينادي على نفسه: إني هاهنا .

(ما أقبح الحياة حين تتوحش!).. لا يذكر أين قرأ هذه المقولة لكنه يوقن أنها مهما توحشت ستجد من يريت على كتفك مواسياً .. مهما تجلدت القسوة ستجد تيارا ليذا جارفا أمامها، ومهما اظلمت ستجد فجراً رابضاً خلفه .. ومهما امتدت الفياضي القاحلة ستجد الخضرة النضرة ... ولكن هل تطبق

على بلده؟ هل تطبق على هذه المدينة؟ جاء أبو بسام وولده
وامام المسجد ليقول له: نعم. الدنيا بخير.

-٣٧-

وضعوها في السيارة وصعدت جنبها بتول وهي متقلقة
بجبة بدل العباءة وهذا دأبهنّ اذا سافرن. وصعد اجود جنب
السائق، ثم انطلقت السيارة ومهدية بدأت تتلو الأذكار: اللهم
انت الصاحب في السفر...

لم يخبر أجود أمه أن الطريق محفوف بالمخاطر، سيجدون
سيطرات لداعش والجيش والبيشمركة، ولكل فئة وسيطرة
منهم مزاج وطبع خاص طبقا للوضع الذي يمرون به، بل
هناك ما هو أعتى وأشد ... قوات التحالف، أليس كسرهما
كفيل بأن يجتازوا كل تلك الحدود والسدود بأمان؟ المشكلة
أن كل تلك الفئات تراهم من الفئة الأخرى، ولكن كتب علينا
الشقاء. نحن الذين رفضتنا الديار فتهجرنا فلم نجد مأوى
.. نحن الضائعون.. الشاة التي سقطت فتكاثرت عليها
السكاكين.. نحن الذين كُتب عليهم العيش في المنافي والمرافئ
البعيدة .. وإذا أردت أن تختصر حكايتنا فقل: نحن الذين
لفظتنا الأوطان!!

لو تعلم امي أن خروجنا مجازفة كبيرة هل ترضى؟ سأل
أجود نفسه، الخطر محقق هنا في كل مكان خالي مجنون
دائماً، يأمر وعلينا الطاعة ويظنها هو منتهى الحكمة ولكنني
وقفت لا أبصر شيئاً الا أمي، أريدها أن تكون بخير. فلم
يقطع تساؤلات أجود الا وهم يعبرون جسر سامراء وبدء
طريق مجهول وساحات وغى لصراع اقليمي مرير، في هذا

الطريق تجد كل القوى المتصارعة لها يد أو مصلحة، والخاسر الوحيد هو بلدنا وأبنائنا، تُرى ما الذي يدفعهم للخروج من مدنهم الآمنة ليحملوا بنادقهم ويقفوا على الخطوط الأمامية؟ أهى العقيدة الراسخة؟ أم الخوف على الأرض والعرض من زحف الهمج الهامج؟ أم المادة والمرتب الشهري الذي يعتبر جيداً قياساً بالبطالة المتفشية؟ قد تكون تلك الأسباب كلها.. وهو لم لا يتطوع جندياً؟! ما الذي بقي ولم يخسروه؟ ومن الذي سيحرر أرضهم إن لم ينطلق هو وأصحابه من أبناء تلك المناطق فيفدوا تلك الأرض..!

فراجع وقلب تلك الفكرة في ذهنه كأنه يسمعها أول مرة ، ومما زاد في تلك الفكرة وتطورها هو ما شاهده من دمار في تلك الطرق.. فالطرق خالية الا من القطعات العسكرية للجيش العراقي. الشوارع محفزة من الألغام، يقال أن التنظيم يعرقل تحركات الجيش بتخريب الشوارع وتدميرها! تلك الوحشة التي تملئ الشوارع تبعث في النفس شجناً وألماً، كيف غدت الطرق مدمرة مقفرة كأنها صحراء قاحلة لا تكاد تسمع فيها همساً الا أصواتُ هنا وهناك للمعارك الدائرة. كان الناس في أمان فتبدلت نعمتهم... هذه الأراضي الزراعية مقفرة يابسة.. هلك الزرع والضرع، لم تعد هناك معاول ومناجل للحصاد، ولا فلاحون يحرقون . ومن المشاهد التي أثارت حنقهم في ذلك الطريق المرعب هو مشهد الدواب والماشية التائهة في الشوارع! ذلك أن الناس لما هاجرت وحملت ما تستطيع حمله من المتاع الخفيف — وكان ممنوعاً حمل الأنعام — سببتها في الحقول والمزارع والطرق.. لتعيش مما تثبت الأرض ومما تمطره السماء.. والله كفيل بحفظها، كانت تلك الشياخ منها الميت على قارعة الطريق ومنها الميت برصاص ومنها ما زال

يسير .. وراعهم مشهد بقرة تحتضر وتصارع الموت، فقال
أجود للسائق: قف قف. فنزل مسرعاً وبيده قارورة الماء
وسقاها. لما صعد في السيارة وجد مهدية تنشج بصمتٍ.
-يُمّة.. لَمْ البكاء؟

-يا ولدي أبكي على الذي حصل لنا، منذ متى ودوابنا تموت
ظلماً؟ لَمْ هذا الذي حصل؟ ما ذنبنا؟ ما الذي بقي أصلاً؟
انظر الى المساكن كيف هي بائدة خاوية، متأكدة أن فيها جثا
أصحابها باقون الى الآن.. نحن بلد الخيرات والغيرة والحمية
يحصل هذا؟ حتى الموتى لا نكرمهم...!
-قدر الله.

-لا إله الا الله.

أوقفهم الجيش، فقال الجندي:

-من أين؟

-سامراء.

-الى أين؟

-أربيل.

-لَمْ؟

-الحاجة مريضة وسنأخذها الى الطبيب.

-اعطني هوياتكم.

أخذها ومضى وقتاً في تدقيقها.

-أنتم نازحون.

-أجل.

-الله معاكم، ولكن انتبهوا الطريق من هنا غير آمن!!

ما معنى هذا؟ معناه أن المسافة الآتية هي تحت سيطرة التنظيم.. سنمشي الى الموت لعله يخطأنا كما أخطأ أبانا علياً من قبل، سنتوسل لهم بها، لعلهم يرحموننا، ولكن إذا ظهر أمامهم من يعرفهم؟ كأن يظهر طلحة أو أسامة؟ ماذا يفعلون وقتها؟ لم يتعب نفسه في الجواب فالقدر هو من سيكفيهم الاجابة الشافية.

صوت مهدية ما زال يملأ أرجاء السيارة، فتارة تشج وتارة تستغفر وتدعو، وتارة أخرى تستنجد بالأولياء وآل البيت، ولكن الذي يجمع تلك الأشياء كلها هو تلك النبرة المتحشجة الحزينة، الحزن هو ملاذنا، نحن نقدسه في تلك اللحظات، ولولاه لكان المحزونون مجانين.

وفجأة أطلت سيطرة التنظيم من بعيد تعلوها الرايات السود وعناصرها منسدلو الشعر شاكين أسلحتهم نحوهم. ففزعوا، وبدأت حمدية تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وتتلو: (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ).

أوقفهم رجال التنظيم وبدت وجههم متوجسة، فقال المثلث الذي تقدم نحوهم:

-من أين أنتم؟

-سامراء.

-الى أين؟

-أربيل. عندنا الحاجة مريضة.

-هوياتكم.. وتعال معي.

نزل أجود ولحقهم لكن سرعان ما وقف مشدوداً كالوتر؛ فتاة تتزوي جنب حجرة التدقيق سمراء ذات عينيْن كساهما الرعب، وقف ينظر إليها .. يتذكر الماضي .. عيناها الفزعتان تشبه عيني رحمة في تلك الليلة، نفس الهلع ونفس الخوف.. تُرى أين رحمة الآن؟

وسرعان ما انتقل هناك ... أصوات الرجال في الديوان يقرأون الفاتحة.. أمها تنادي عليهم... همهمات ووقع أقدام مسرعة للفتك به... صرخاتها: اهرب.. اهرب. لم يا رحمة قلتيها بالحاح حبيب لا يُردُّ له طلب؟ لو بقيتُ وأخذوني فداءً لكم؟
-خُذ.

يقظله صوت المثلث وهو يناوله الهويات. ركب السيارة وانطلقوا.. الآن هم في أرض الخلافة .. لا مجير الا الله. وكانت المشاهد التي تؤثت تلك الأرض: البيوتات المهدمة.. المسلحون وهم منتشرون بكل مكان.. أعلام التنظيم وشعاراتهم.. بل شعر أجود أنه في القرية، نفس الأجواء الا أن هذا الطريق أشدُّ خطراً؛ إذ تعتبر القرية بمنأى عن أهداف التحالف وفيها أمان وتحصين متين، أما هنا فهم مستهدفون من كل الأطراف... الخطر محقق .. (نحن في نظر الجيش دواعش، وفي نظر داعش مرتدون) هكذا حدث أجود نفسه الضاجة بالحوارات الصاخبة، المتعثرة بالخيالات والكوابيس.. تقول مهدية: ألقيت حملي على أبي ابراهيم فلا تخش شيئاً. أماه .. إن الطرق موحشة .. طويلة.. متوقدة صراعاً.. مشتعلة حروباً.. ولكن

وحده هو الطريق وما سواه لا يؤدي الى غاية منشودة. كُتِبَ
علينا أن نسيرها ولا حارس الا هو، ولا منقذ إلا إياه فطوبى
لنا ولم يبقَ حارس في الطريق الا هو..



سيطرة أربيل لا تقل ضجيجاً وصخباً وبؤساً عن سيطرة
سامراء. الناس متدافعون على الدخول الذي لا يتم الا بعد
اجراءات كثيرة ومملة. هنا تجد صورة أخرى لعذاب الوطن
المترهل والموغل بالمصائب، هم أنفسهم الفارّون من الحرب
لم يجدوا مأوىً غيرها، فأما الذين يملكون أموالاً كافية
فسيستأجر بيتاً ويعيش من ماله، وأما الفقراء فسيعيشون
عيشة الكفاف. طال الانتظار منذ ظهر ذلك اليوم الى الليل
حتى دخلنا أربيل. الخال حسين لا يحب ساسة الكرد، يرى
أنهم أشدّ نكالا من سياسي بغداد، وإذا كانت بغداد تطفح
بسياسيين طائفيين فإن كردستان تطفح بسياسيين عنصريين
ومع ذلك أول ما علم بمرض مهدية أرشدها بالذهاب الى
أربيل. أربيل دار أمانٍ واطمئنانٍ، لا هم لك فيها ولا خوف
سوى من المال الذي سينتهي، عالم آخر يسوده الرخاء، لا
عنصرية لا صراع، المباني شاهقة تدل على عظم العمل
الدؤوب في خدمة الانسان، بل تكاد تكون دولة مستقلة عن
العراق. بقي أجود يطالع الأضواء الساطعة والشوارع الضاجة
بالسائحين والمهجرين خاصة من المناطق التي دخلها التنظيم.

قال أجود:

-هنا أمان... فلتقري عيناً.

فقال مهدية:

-راح الأمان مع الغائبين.

-الذي ردَّ يوسف ليعقوب كفيل بردهم.

-أتعرف يا أجود؟ انظر الى المصائب كيف تواترت علينا،
لَمْ؟ لأن الروح قد تعبت وشاخت خلال أشهر، لأن أضواءها
خفتت فلم يبقَ الا شَبْعٌ متوارٍ خلف هذا الجسد النحيل،
الى أن ضجر هذا الجسد ولمَّ يعد قادراً على التحمل، لقد
كسرت روحي قبل جسدي، ولا جبر لكسرهما الا بعودتهم.. هل
يعودون؟!

فقال وهو يغالب الحسرات:

-سيعودون.

-متى؟

-كما عاد أبي من قبل.

-هل يئست حمدية من عودته؟

-لا أعلم.

فقال بوجع:

-متى سيعود؟

فقال كاذباً وهو يعلم أنه كاذب:

-سيعودون .. هكذا أشعر منذ أيام.

كيف السبيل إليهم؟ هل يذرع الطرقات والمسافات والأبواب
الموصدة ليسأل عنه؟ هل يقول لهم: أن أخي جنديٌّ محكوم
عليه بالاعدام من قبلكم فهل نجده عندكم؟ كيف السبيل الى
صد الحزن الهائج واقتناع أمهم : أن جواد حاله حال الكثيرين

رحلوا، ولم يعودوا... ولكن كيف يخبرها؟ إن الصدع بالحقيقة
لأبشع وأعظم من الحقيقة نفسها!

-٨٣-

يقول الفيلسوف الصوفي ابن عربي: (الناس نفوس الديار)..
تذكر أجود تلك المقولة وهم في طريق العودة، ها هم يعودون
ثانية لطريق الخوف والحرب والصراع. عندما وصلوا الى
تلال حميرين تذكر أجود بساما عندما قال له أن شيخ التكية
قد اعتكف في مغارة في سفح هذه التلال سنيًا طولا
متعبداً لله، لا يأكل الا القليل من الطعام قد يصل الى تمرات
معدودات في اليوم الواحد مع جرعة ماء يقيم به طوله،
ويستمر واصلا الليل بالنهار ذكراً وصلاةً وعبادةً.

لاحت سيطرة داعش مجدداً، وعادت مهدية تسبح وتدعو
الله أن يكف عنهم شر التنظيم .. أوقفوهم كالعادة. قال المثلث
بصرامة:

-من أين؟

-من أربيل.

-الى أين؟

-الى سامراء.

فنادى في جهاز اللاسلكي، وجاء مثلث آخر، فقال بلهجة
سامرائية:

-من أين من سامراء؟

فقال أجود:

-مهجرون.

-من أين؟

-أطراف تكريت.

فقال بحدة وصرامة زائدة:

-من أيِّ مكان؟

وقبل أن يحرك أجود فاه قالت مهدية:

-لوعة عباس!!

فوجمت الوجوه، وتبادل المثلثان النظرات التي تملؤها الريبة.. وعلم أجود أن أمه وقعت في المحذور.. كيف قلتِ هذا؟ لم لم تقولي من (العباسية)؟ أو (الزلاية) أو (العاشق).. لوعة عباس ثانية!!

فانتحيا جانبا وراحا يتكلما ويتصلا. فاتجه أجود نحوها:

-لم قلتِ من (لوعة عباس)؟!

فقالت بأناة وإيمان تام:

-يا ولدي، «النجاة في الصدق» !

وجاء أحد المثلثين وأنزل أجود وأخذه معه، وقال مطمئنا مهدية: سيعود بعد قليل! وأخذه الى بيت منزو عن الشارع أعدوه مسكناً للأمير تلك الكتيبة.. وأجلسوه على مقعد معد للانتظار.. ولكن أيَّ انتظار؟ انتظار موتٍ آتٍ.. سيتصلون ويعلمون القصة كلها.. هو الذي كان لرحمة خدن وصاحب ماجن.. هو الذي حاول تدنيس شرف ابن الوالي والأمير والمقرب من الخليفة.. هو الذي نكس رؤوسهم وهزمهم

بحيلة.. تُرى هل ينتظره شيء غير الموت.. طائف الموت يحوم هنا.. آت ليأخذ روحه.. وستكون أمه المسجات سبية وأخته.. يا الله ما أبشع ذاك الشعور..! إن الموت ليبدو ليناً هيناً أمام مصائر مهدية وبتول.. هو الذي فعلها، هو الذي شطح وتهور وعاند وكابر ليقع في شرك عمله. لوهلة تبدو الحياة عزيزة بهيجة.. بل حانية بعد أن كانت فانية، تتجلى محاسنها كغادة تجلى حسننها للناظرين وساغت غوايتها للشهرين .. تلك اللحظات هي عندما يزف الموت ويقف ملوحاً كحقيقة أبدية راسخة زاحت كل ترهلات الرجولة وأهازيج البطولة .. بل تضاعل ذاك العنفوان المشاغب في النفس ليحل مكانه ذاك الصوت صداً وتصاغر ما سواه: حُبُّ الحياة.

وجاء رجل ضخم الذي سرعان ما يدرك الناظر من غير عناء أنه غير عربي، خاصة وأن شعره أحمر أصيل لم يخضب بحناء كما يفعل من سواه. فقال بصرامة:

-والله أنتم أهل سامراء لنصفيكم بالسيف...!

فتذكر الحديث الذي تتلوه أمه بقدسية خاشعة: «النجاة في الصدق» .. فقال:

-نحن لسنا من سامراء..

-اخرس! أنتم منهم تتصروهم علينا .

-لم ننصر أحداً!

-لو كنت رجلاً لانخرطت في صفوف الدولة الاسلامية..!

-...!!

فجاء آخر يتهدى وقال له بصوت خفيض ولكن أجود سمعه

لقربه :

-أبو قتادة لا يرد .

-ولم؟ لعل مكروهاً حصل!!

-لا أعلم.

-وهذا .

-اتركه .

-كيف نتركه؟

-لا شيء عنده .. اطلقه .. وأمه مريضة .

فذهب غاضباً، أما هذا الذي بدا سمحاً هادئاً فقد أقبل نحوه وأعطاه تمرّاً وماءً، فتناولهما أجود على مضضٍ .. ثم ودعه باسمًا .



-لو تعلم يا خال المستشفى التي دخلناه في أربيل ما أكبرها! شاسعة رحية، تشرح النفس وتشفي الفؤاد، هذا المستشفى يا خال يشفي العليل، عندما تجتاز عتباته يلفحك هواء بارد ينعش النفس. والطبيب الحاذق الذي استقبلنا بتلك الحلاوة والحفاوة... شيءٌ راقٍ والله .

كان خالها حسين يستمع لحديثها وهو منهمك بالأكل وبدا أنه جائع .. فقال قبل أن يجهز على صحن الأرز:

-بتول .. اجلي صحنًا آخرًا .

فقالت مهدية وهي ترى انهماكه:

-خال .. بشرى لم تطبخ لك؟

-بشرى زعلى!

-أين هي؟

-في بيت أهلها..

-ولم؟

-تريد أن أسجل نصف البيت الآخر باسمها.

فقالت ذاهلة:

-النصف الآخر؟! يعني نصف البيت باسم بشرى؟

-أجل... وتريد النصف الثاني!

-لم؟ ما لك يا خال.. تضع نصف رقبتك بيد امرأة؟

-يا مهدية، بشرى لها نصف البيت، لأنها عندما اشترتُ
البيت باعت ذهبها وحليها وأعطتها لي، فهي شريكتي في
البيت، ولكنها الآن تريد كل البيت، تقول إنها دفعت القسم
الأكبر!!

-حليها وذهبها!! ومن أين لها هذا الحلي؟؟؟ أليس منك!

فقال بتؤدة:

-أجل.. عند العرس.. وبعدها كثير.

-وبعد العرس أيضاً؟ بكم باعته؟

-أحد عشر مليوناً.

-حسبي الله ونعم الوكيل!! أحد عشر!! وماذا ستفعل الآن؟

-لا أعلم.

-اياك أن تتنازل خالي عن البيت.

-الله كريم.. اكملني قصة المستشفى.. بتول أين التمن؟

-ثم بقينا في المستشفى .. تحاليل وفحوصات وأشعة.. وجاء الطبيب المختص.. فقال إن الدواء الذي سجله طبيب سامراء خطأ في خطأ...

فضرب الخال ملعقة الطعام بالصينية غضباً وأحدث صوتاً عالياً...

-قلت لك؛ الأطباء هنا لا يفهمون ولا يعتمد عليهم أو يعتد بهم.

-ولكنه لم يقل شيئاً الا الانتظار لأشهر كما قال طبيب سامراء، وكتب لي علاجاً جديداً وعليّ أن أخذه بانتظام. فقال الخال وهو بهم بالقيام:

-الحمد لله على السلامة، المهم أن تكوني بخير وتقومي على رأس أبنائك، فما زالوا صغاراً، توكلني على الله، وإن شاء الله الشفاء عاجل ..

-استرح لتشرب الشاي.

-شاي ابنتك غير لذيذ.. سأشرب في المقهى.

فقال بتول:

-لَمْ يا خال؟ أهذا جزاء خدماتي؟!

-ماذا فعلتِ أنتِ لي؟

-ومن طبخ الغداء؟

-هذا فرضٌ عليك، ثم أني أكلته كي لا أُغضب مهدية.. وأنت يا مهدية أوصيهاً أن تتقن تخدير الشاي، قبل أن يُشاع عنها

أنها لا تحسن الطبخ، فتتعد عانساً عندك...!

-عانس!!

-أجل، وما فائدة المرأة إن لم تحسن الطبخ؟!

-ما شاء الله بتول جميلة، ولن تتعد كما العوانس.

والحق أن مهدية مرتابة وخائفة، والخال حسين ضاعف ذلك الخوف، بتول لم تتزوج الى الآن، ولم يصارح أو يلمح أحد حتى الآن، إنه همٌ وغمٌ يملأ جنبات البيت الحزين هذا.

-٣٩-

لا ركود وهدوء الا وأتى ما يكدر ذلك الركود ويفسد هذا الهدوء. مضت أيام عائلة مهدية هادئة، حتى إنها خالتهما أيام هناء، وأن الله سيعوضها عما عانت من مصائب ونوائب ويرزقها هي وذريتها استقراراً وسكناً، لكن السعد كان بعيداً أشد ما يكون البعد. وهذا حال سائر النازحين القانطين هذه المدينة. لما بدأ الجيش يستعيد عافيته رويداً رويداً — وإن كانت تلك الاستعادة بطيئة — وبدأت الدولة تفكر جدياً في استعادة الأراضي التي استحوذ عليها التنظيم بدأت حملت اعتقالات تروم المعتقلين السابقين بتهم الإرهاب، وبدأ التدقيق على النازحين... لذلك خشي أجود على نفسه وعلى أخيه، وحذر أهله من أن يقولوا هم من «لوعة عباس» بل من تكريت المدينة لا أطرافها. وذات ليلة ربيعية سادها الدفء مما ينبئ بزمجرة الصيف القاتل القادم سُمعت همهمات في الزقاق، كانت الأبواب موصدة والناس غارقة في نومها وسهرها، ودُق بابهم بقوة.. علموا أنهم جيش وآتين للتفتيش. فتح أجود الباب فدخلوا وانتشروا في الحوش، فقال الضابط بصرامة:

-بيت (حسان عبد القادر إبراهيم).

-أجل بيته، ولكننا مستأجرون منه.

-أنتم نازحون؟

-أجل.

-من أين؟

-من تكريت.

-فتشوا البيت.

-في البيت نساء، لأدخل وأخبرهن.

-تفضل.

وبعدها دخلوا وفتشوه فلم يجدوا شيئاً.

فقال الضابط:

-أين حسان؟

-لا أعلم.. استأجرناه ورحل حتى الايجار لم يأتِ ويأخذه.

فقال الضابط:

-خذوه.

فلما رأتهم بتول يجرونه صاحت، فسمعتها مهدية القابعة في الغرفة الصغيرة وبدأت تصرخ هي الأخرى صراخاً مدوياً حتى أطل الجيران من بيوتاتهم بفضول نحو بيت مصدر الصوت.

رحل أجود .. وانتشر في المنطقة أن الاستخبارات كانت تراقبه من فترة طويلة وأن له تعاون مع داعش ، بل هو جاسوس لهم، كان يوصل الأخبار ويراقب تحركات الجيش ..

في اليوم الأول لاعتقال أجود جاء الخال حسين، وانطلق يفتش في المراكز والدوائر الأمنية ولكنه لم يعثر عليه.
في اليوم الثاني استمر الخال في البحث ولكن همته فترت.
في اليوم الثالث لم يعثر عليه .. فظن أن أجود قد رحل كما يرحل أولئك المتهمون دون أن يسجلوا ضمن المعتقلين ... ومن سأل عنهم والدنيا مائجة والسعيد من سَكِت عنه؟



قوال أهل الحي في اعتقال أجود:

منذ اليوم الأول وأنا شاكة بهم، وجوههم كالحة، تمجها النفس، وينفر منها القلب السليم، ومنعتُ أولادي من الاقتراب منهم مهما حصل، وفي نهاية الأمر تبين أنهم دواعش، بل ما زال يكاتبهم وينفذ إليهم الأخبار تلو الأخبار حتى اعتقلوه بحمد الله.

أم خالد، صاحبة الدكان في أول زقاق بيت أجود.



لما رأيتُ أجود أول مرة رأيت في عينيه شرَّ يداريه بطيبة مصطنعة، فعلمت —بفراستي— أن هذه العائلة تنتمي لداعش، بل راوغ في الكذب وذاع بين الناس أن أخاه فُقد في سبايكر .. ومن يدري لعل أخاه داعشي نجس وصوره بصورة بطل، بل قد يأخذون تعويضات عليه، مثل كثير من الناس عندما يموت واحد منهم —أيام الاحتلال— من مرض أو علة يقول: الامريكان أو القاعدة من قتله. فيأخذ تعويضات على أنه من متضرري الإرهاب أو الاحتلال.

أبو فاضل، جار بيت أجود.



هذا الفتى هو ومن قبله صاحب البيت كانا محل شك،
تصرفاتهم، دراسته، كان يرتاد المدرسة الدينية، صلاته في
المسجد، كل هذا ظهر لي، فعلمت أنه متطرف، ارق في تطرفه.
أبو توفيق، جار بيت أجود.



شابٌ مهذب، كان يرتاد مسجدنا، دمث الخلق، لم نَرِ عليه ما
يسُونًا، ولكن أولاد الحرام كثر، لعله ذهب بشخطة قلم.
إمام المسجد.



كان صديقًا مقربًا لي، فلم أَرِ ما يتوجب الحذر منه، بل
بالعكس، كان طيبًا، صحبتَه لأشهر فتعلمت منه الكثير وعلمت
عنه الكثير.
بسام، الصديق المقرب لأجود.



نظرت بتول النظرة الأخير على مسكنهم الذي لم يروا منه
خيرًا، نظرت وبنفسها شرخ عميق، أين صوته وهو يذرعه؟ أين
صياحه؟ بل أين تلصلصه على نافذة نوار تلصص العشاق؟
وسمعت صوت السيارة إيدانًا بالرحيل. خرجت وصعدت في
سيارة الخال حسين. وجدوا بيتًا آخرًا لا يقل عن بيتهم هذا
بؤسًا وذنكًا ولكنه على الأقل لا يثر الريبة مثل هذا البيت،
وكذلك جيران غير هذا الجيران، الكل بدأ يحتقرهم، يشيرون
إليهم على إنهم بيت (الدواعش). هذا عار ما بعده عار،

حتى ضاق البيت وكأنهم في سجن موصدة أبوابه .. سجن من الحزن والتفجع . مهدية منذ اسبوع ترقد في المستشفى وفي العناية المشددة، يقول الاطباء أن مهدية لا تستجيب الى العلاج . لمَ يا مهدية؟ أهو كسر الروح الذي اتسع فضاقت معه الروح حدَّ الاختناق فاتسع معه كسر الجسد؟ أتحنين إليهم؟ الى القرية .. الى لوعة عباس في ذلك البيت .. حيث علي وهو جالس وحوله جواد وهو ينظف بندقيته .. وأجود وهو يقرأ بكتبه ... وجودت وبتول وهما يمزحان تارة ويتشاجران تارة أخرى .. أهكذا يكون وجع الغائبين؟ تفجع وألم وبكاء ... وفوق هذا ألم يحز الروح قبل الجسد .. يدمر أوصالها .. حتى لترى أن الحياة محض هراء .. لا عدالة ولا اتزان .. كأننا قبلة الألم ووجهته فيقصدنا في كل وقت ليقضي فرضه، يا ايها الألم أمهلنا قليلاً فإننا لم نلحق أن نودع السابقين بما يكفي من التفجع حتى تصفعا ثانية .. أيها الألم تروّ قليلا وامهلنا حتى تستطيع العين أن تهمل مزيداً من الدموع .. ما الذي بقي؟ لمَ هذا الشقاء؟ ألم يكفنا ترك الديار .. ألم يكفنا ذاك الحنين الذي أنهك الروح وصلّاها من جحيمة وممره لتأتي صفعات الغياب التي لا تمهل ولا تبقى ولا تذر؟

البيت الجديد ليس أفضل حالا من البيت القديم، وهو قريب منه، غرفتان صغيرتان وصالة ومطبخ وإيجاره مئتان وخمسون ألفاً __ ولا تدري بتول من أي سيأتون بهذا المبلغ شهرياً ولكن الخال هو من قرر __ . دخلت بتول والخال على مهدية في المستشفى، كانت مهدية في العناية المشددة، ولكن هل وضعت في غرفة مستقلة؟ لا، إنما قاعة فسيحة فصلت بين الاسرة ستائر لتكون على شكل حجرة صغيرة، قبلت بتول والدتها المسجاة وفي عينيها بقايا دمعة جفت لتوها بأمر

الخال، أما مهدية فعيناها غدت كعيني يعقوب؛ جفتا من الدمع حزناً وكمدًا.

-هل من خبر جديد عن أجود؟

فقال الخال:

-لا جديد، لم ندع مركز أو لواء أو تكتلا عسكريا الا ودخلته وسألت عنه، ولكنهم كلهم أنكروا أن يكون عندهم، ولكن الفرج آتٍ...

فقالت بقنوط:

-متى سيأتي؟

-عندما يأذن الله.. فرج الله قريب وأنت مؤمنة.. أعرفك قوية لا تزعزعك المحن، والله قد وقفت أما نوازل أشد من هذه، نسيت كيف حملت وعشت في القرية مع عمك حمدي وولدها سعيد وما عملوا بك... ومع هذا حملتها ورحلت كأن لم تكن، فما لك تقفين هكذا واهنة رخوة؟ عهدي بك امرأة تتحدى الصعاب ولا تبالي.. متى جلست مهدية القوية هكذا تدب وتبكي حتى لم يبق بعينيها دمع؟

-يا خال، أحمل همومًا لم تحملها الجبال الشامخات. أنا عاجزة. أن تفقد ولدين ولا تعرف مصائرها هو الموت.. لقد مات كل شيء بي يا خال.. أنا شبح أمامك.

-لن تموتي، أيام وتتعافين.. أنت أقوى من ذلك، إن لم تفكري بنفسك ففكري بابنتك هذه (ثم تبدلت لهجته من الليونة الى الصرامة) أنت تعلمين أن ابنتك شابة، والعالم موحش لا يرحم، لمن ستركينها؟ هه؟ حتى وأن مات أجود وجواد، من سيبقى لها؟ الحياة قاسية لا ترحم فلا ترمي ابنتك لقمة سائغة لها.

فأشاحت بوجهها عنه كأن الكلام لا يعينها .

فقال الخال :

-انتقلتُم الى البيت الجديد ، وسأشتري سريراً لك ونضعه في
احدى الغرف ، فالبيت شرح شاسع ..

فقاطعتَه قائلة :

-كم ايجاره؟

-لا عليك بالايجار ولا تفكري به ، كوني بخير أنت وهذا المهم .
فقالت كمن تذكر شيئاً :

-خال .. عرفت طريقة ممكن توصلنا الى أجود .

-...؟؟

- ٤٠ -

عندما كاد يموت ولم يبقَ به شيء ينبض الا نفساً يصعد
ويهبط ببطء أمر الضابط بإخراجه الى المنفردة . حملوا
جثمانه الهامد الا من ذلك النفس وشحطوه وهو غير واع في
الممرات الطويلة المظلمة الا من ضوء شاحب . في تلك الأثناء
لم يكن يشعر بشيء الا أنين المسجونين تتراعى الى مسمعه
من هذه الزنزانة وتلك ، كان غارقاً في بحر من الظلمات .
فتحوا الزنزانة وقذفوه فيها بقوة ودون مبالاة لعظامه التي
ارتطمت بالحائط بقوة . كان الزنزانة لا تتسع الا لجسد واحد ،
والظلام الدامس قد غطى المكان حتى لا يكاد يرى أعضائه .
كان جسده يشخب دمًا من كل مكان ، لم يعد يشعر بأي شيء ،
نسى كل الشيء وبدا ذلك الماضي من النعيم المقيم .. أما

القرية فهي من الأحلام البعيدة والتعيسة في آن.

كل هذا حصل لك يا أجود؟ كل هذه العذاب والضرب لماذا؟ نحن متهمون ولم نذنب، مجرمون بلا جرم، ارهابيون بلا إرهاب. منذ متى وطالب العلم الشرعي هو مجرم وتلفق له اربعة ارهاب؟ وبينما هو يغلب الموت وتراءت له الحياة كخيال تذكر أوّل ما دخلوا عليهم، قالوا له تحقيق بسيط، ولكن ذلك التحقيق البسيط كان قطعة من العذاب الأليم، وتلك الفترة القصيرة امتدت وتشجرت لتكون أشهرًا طويلاً وهو لم يسجل حتى في عداد المسجونين. أول ما دخل غرفة التحقيق سأله الضابط الموكل عن حسان صاحب البيت الذي يقطنون فيه، فقال أجود:

-لا نعرفه.

-كيف استأجرتموه إذن؟

-وجدناه في مكتب العقار، وأخذ ايجار شهر وذهب ولم يعد.

-الى من تسلمون الايجار؟

-لا نسلّمه لأحد، ذهب ولم يعد أصلاً؟

-أين رقم هاتفه؟

-سيدي .. أقول لك لا نعرفه، استأجرناه وذهب ولم يعد، لمّ تسألون عنه؟

-أجود، عليك أن تساعدنا حتى نساعدك.

-أساعدكم وتساعدوني؟ لمّ ما الذي ارتكبته أنا؟

-قولك لا نعرفه ولا نتصل به أمرٌ لا نقبله.

-كيف لا تقبله .

-من أي المناطق أنت؟

-تكريت .

-بدأت تلف وتلعب معنا .

-!....

-أنت من قرية لوعة عباس .. هذه القرية المشبوهة والتي عليها خطوط حمراء كثيرة، ثم تكذب وتقول أنك من تكريت .

-إدارياً هي تابعة لتكريت .

-أنت بعثي؟؟

فقال بارتباك:

-سيدي .. عمري واحد وعشرون عاماً، أنى لي الحزبية؟!!

فقال حازماً:

-اخرس!! البعثيون ما زالوا ينتشرون وتكاثرون على أمل العودة من جديد، أحلام، زمن البعث راح، ولن يعود، وما هذه المحاولات الا محاولات يائسة بائسة مثلكم .

-سيدي، أنا لست بعثياً، وعندما سقط النظام عمري عشر سنين .

-سقط من الحكم ٢٠٠٣، ولكنه بقي فيكم الى الآن، بل أنتم الجيل الجديد موالون لهم وتحنون، تسلكون كل السبل الى الوصول .. القاعدة .. اعتصامات .. داعش .. أنتم مخربون . بل أنتم الجحر الذي ينطلق منه الشر!

فقال أجود بجرأة:

-ما تهمتي؟!

-إن المدعو حسان، والذي تسكن جنابك في بيته هو مقاتل في تنظيم القاعدة سابقاً، وانضم الى داعش حديثاً، قضى ثماني سنين في السجن والآن رجع الى ممارسة ارهابه وتطرفه.

-وأنا ما ذنبي؟

-ذنبيك أنك تعرفه، واستأجرت بيته، وعندك تواصل معه.

-لا اتصل به، ولا أعرفه!

فقام ببطء نحوه وصفعه صفعةً سُمع لصداها دوي في ارجاء الغرفة وسقط أجود من كرسيه وارتطم بالأرض، وتبعها الضابط بصرخة مدوية:

-دواعش.

فقال أجود وهو يغالب ألم الصفة:

-لسنا دواعش، نحن من ضحى بدمائه لأجل الوطن وهكذا تكافؤنا؟ أنا أخي جندي فُقد في سبايكر، بدل أن تعوضونا وتربتوا على كتفنا وتحلوا مشاكلنا تتهموننا بأنا دواعش. ما ذنبنا يا سيدي؟ منطقة واستولى عليها الارهابيون وانسحب الجيش بلا قتال أو نزال، لم تحاسبنا على ذنب لم نرتكبه؟ -خذوه.

الليلة الأولى في السجن الجماعي كان طويلة ومتعبة، فالسجن مكتظ ولا تكاد تجلس حتى يأتيك الذي جنبك ليسمع قصتك ثم يحلل القضية وكأنه محام متمرس، ثم يريد منك أن تتصت فتحسن الانصات لقصته وكيف أنه بريء ولم يرتكب جرماً. في السجن الكل أبرياء، حتى المجرم يصرخ إنه بريء. هذا

السجن يعتبر من أرقى السجون العراقية، فالوجبات الثلاث يأتين بمواعيدهن، ويأكلون في الافطار بيض وقشطة وخبزاً حاراً، ويأكلون اللحم مرة في الاسبوع، ولما علم أجود عن أحوال السجون الدامية كـ (أبو غريب) وغيره حمد الله. حتى الضرب الذي تلقاه والتعذيب الوحشي كان يطال فئة معينة؛ وهم المتهمون بقضايا الإرهاب. فلما تعذب علم أن وضعه كبير، وأنه لن يخرج في القريب الممكن. في اليوم التالي أعادوه الى التحقيق مجدداً.. كان ذلك الضابط كالغريق إذا لاحت أمامه خشبة طائفة أو زورق تائه، ففي تلك اللحظة لن تكون خشبة أو زورقاً بل حياة ونجاة.. هكذا الضابط يرى أجود، حلقة الوصل الى التنظيم، خاصة بعد أن علم أنه من «لوعة عباس» تلك القرية التي تعتبر بلائاً على الدولة، فهي مثنوى ومأوى الشر.. أجود هو الكنز المنتظر.. وهو الذي سيقودهم الى القرية وقيادات التنظيم.

-عزيزي أجود، علمنا ما لعائلتك من تضحيات وفضائل، فأخوك من الجنود البواسل في جيشنا، ولكن كذلك عائلتكم مصدر الريبة، وقدومك الى سامراء يثير أسئلةً وعلامات استفهام كثيرة تجعلنا نشك شكاً كبيراً فيك وفي قدومك. وأول تلك الشكوك هو قدومك الى سامراء مع عائلتك وحدكم دون القرية كلها، لم؟ ثانياً: الهجرة ممنوعة من قريتك، التنظيم يمنع أحد من الخروج وقد يعدمون الهارب.. فضلاً عن أن يتركوه يهرب سالماً منهم، فكيف جئت؟ ثالثاً: تركت بيوتات سامراء كلها وسكنت بيت ارهابي ولم يأخذ منكم ايجاراً لبضعة شهور!! اجنبي.

-الهجرة أول الأمر كان مسموحاً بها.

-كيف؟

-الطرق مفتوحة.. اذهب ان شئت، ولكن بعد أن استعاد الجيش عافيته وعلموا أن المعركة آتية لا محالة تشبثوا بالنَّاس ومنعوهم من الخروج...

-لم؟

-ليكونوا حماةً لهم، يستدرون بهم عطف المنظمات الدولية والانسانية، أو بمعنى أقرب دروعاً بشرية يتقون بها القنابل والرصاص، وهذا الأمر معروف وأنتم تعرفونه.

-وعمك سعيد؟

فقال أجود ببطء:

-ما به؟

-اليس هو شيخ القرية وكبيرها وصاحب الأملاك؟

-نعم.

-مع الداعش؟

-لا أعلم.

-هو بعثي؟

-لا أدري.

-ماذا تدري إذن؟

-ليست مهمتي أن أتابع عمي وتوجهه السياسي، أنا كنت طالبا، فلا يعنيني الأمر كثيرا.

-لماذا لا تعترف بالحسنى؟

-قلت لكم الذي أعرفه، وهذا كل الذي عندي.

فخرج من الحجرة غاضباً. وبدأ قلب أجود يخفق بسرعة خفقات وجلة مرتابة.. وما هي الا دقائق حتى دخل جنديان فارعا أطول مفتولا العضلة، لتبدأ حفلة من التعذيب لم يذق مثلها، بدءاً من الركل واللطم والسب بأقبح ما يكون السب مروراً بكيل التهم «داعشي.. بعثي».. وتستمر هذه الحفلة لساعات قبل أن يعيدوه الى تلك الزنزانة الضيقة والمعتمة. في اليوم التالي بقي أجود مصراً على موقفه معانداً.. فلقى ما لا يحتمله أمثاله، خنق بكيس حتى يكاد يموت.. أو خنق بالماء.. أو جلد بسوط حتى تشق صرخاته الفضاء.. جراح مثخنة نازفة.. تكسر أسنانه بفعل اللكمات الموجهة على الفم.. وقبل أن يحاول أن ينطق تأتي لكمة تفقده وعيه.. ثم يأتون بسطل ماء بارد ويسكبونه عليه، فيقوم فزعاً، وتعود حفلة الضرب واللكم ثم يرجعونهم الى الزنزانة منهوكاً مكموذاً. فدخل عليه الضابط وأجود مستلق يشخب الدماء ويئن. فقال الضابط:

-ألم أقل اعترف بالحسنى؟

فقال أجود:

-لا أعرف شيئاً.

-إذن ستبقى في هذا العذاب الى أن تشاء .

في اليوم الثالث لم يأتوا بل تركوه وحده يناجي الظلمات والآلام دون طبيب أو طعام، كل الذي قدموه له كسرات خبز وحساء العدس وماء، طعام لا يسمن ولا يغني من جوع، وبينما هو على هذا الحال طافت في خيالاته ذكريات زينت له

الحياة.. ولكنها حياة الوجد .. عالم الأولياء والقلوب الصافية..
تصوف وعبادة، نور ونقاء.. تذكر ضرب الدفوف.. أين انت يا
علي؟ مهدية تتوسل الى الله بكَ فهلا أجبت؟

في اليوم التالي عاد الى تلك الغرفة والى ذلك العذاب،
ولكن هذه المرة أشدَّ ايلامًا، فقد بدأ التعذيب بالكهرباء نتلا
وصراخه وعياطه يملأ المكان. فدخل الضابط قائلاً:

-أتألم يا أجود .

فقال باكياً:

-أي والله يا سيدي.

-أتحن الى القرية وسكونها وطبيعتها؟

-.....

-أتريد الخروج؟

-أي.

-أخبرني.

-لا أعلم شيئاً .

فتقدم أحد الجنود ومسكك أحد أصابعه ليخلع اظفره وبدأت
صرخات أجود وكأنه طفل: لا لا . فخلعه ذاك الجندي بصلاية
وأجود يبكي ويصرخ. ما لك يا أجود تبكي كالصغار؟ أهو
العذاب الأليم؟ أم الحنين؟

فقال الضابط:

-اخلع الظفر الثاني.

فصرخ أجود:

-لا لا... سأعترف .. سأعترف.

-بماذا تعترف؟

-بكل شيء.

وأخذوه وغسلوه وكسوه حليةً مقبولة — وإن كانت ليست بجديدة — وأطعموه طعاماً دسماً، فأكل حتى شبع، ثم عاد لغرفة التحقيق، فتحدث عن كل شيء في القرية، عن أخيه جواد وعداوته لعمه قبل دخول التنظيم ثم فقده في سبايكر، وعن أسامة بن عمه سعيد وشده في الدين وانضمامه للتنظيم، وعن التنظيم وكيف دخل واستوطن، وعن وجود أبي عبد الله النجدي وكيف دخل القرية بطريقة مريبة باسم أبي سلمان، وعن رحمة وزواجها من طلحة وفراره من القرية بتلك الطريقة.. تحدث لساعات طوال والضابط يكرر ويستفسر ويأمره أن يعيد اجابته. بعدها أعادوه الى السجن العام مع الناس ليبقى لشهرين متتاليين دون أن يسأل عنه أحد، عاش في السجن عيشة رتيبة مملة، لم يضربه أحدٌ أو يمسه بسوء، يأكل كما يأكلون وينام، نسي المدرسة والبيت الا مهدية وقلقها، ماذا حلَّ بها؟ كيف تنام دونه؟ ولماذا لم يسألوا عنه الى الآن. كان يسأل نفسه.

ذات ليلة قمراء حنَّ واشتاق، نام المسجونون واقطعت الأصوات الا أصوات الحيوانات تسبح لله، هي لا تكف عن التسبيح كما كان يقول له شيخ التكية.. استمر بالتسبيح الى أن أخذته سنة من النوم. فرأى ما يرى النائب مهدية وهي تسير معافاة صحيحة، فقال أجود بعين دامعة:

-أماه.. أنت بخير؟

-بخير.. فقط عد.. سأكون بخير.

فأخفض رأسه وقال بئأس:

-لا أعلم متى أعود.. هنا في السجن يوجد من أقام سنين طوال وبتهم بسيطة... أما أنا فتهمتي عظيمة، لا أعلم متى يحولوني إلى المحكمة — إن حولوني — وقضيتي ثقيلة قاصمة، فأقلها متعاون مع داعش.

فقال بصرامة تشبه صرامة حمدية:

-لا تخف، ستخرج... وكلت بك أبو الحسنين، وقلت له: يا سيدي أريد ولدي منك.. رده، وأنا متيقنة يا ولدي أن دعوتي قد استجيبت.

-وكيف عرفت؟

-إن لاستجابة الله شعورا يملأ حنايا الروح سكينة واطمئنانا، كماء بارد يروي العروق في نهار قائف، كيقين راسخ يسكن القلب بعد أن أضناه الشك، كراحةٍ تنزل فجأة على قلوب الحيارى. ستخرج.

فقال:

-أماه، كثرت الدعوات.. ولكن السماء أغلقت حجبها، فلا تستجيب، كأنها ملئت حرساً شديداً وشهباً، فلم تعد تفلت دعوة مظلوم في الأسفار، ولا دعوة أم فجعت بالفقد، كأنها لم تعد تسمعنا.

-اسكت يا ولد... أصرت مثل علي؟

فهاج الوجع ثانية.. علي الذي كان يقول: أين الرب نادوه فلا يستجيب؟!

-أماه، ماذا أفعل.

-ادعوه، ولا تيأس أو تقنط من رحمته.

-سأفعل إن شاء الله.

واستيقظ على صوت المؤذن معلناً دخول الفجر: الصلاة خير من النوم. فقام وتوضأ ثم صلى وقت، ودعا واستعبر، فسالت دموعه مدراراً على غير عادتها. ثم سلم وعاد الى فراشه وهو يتمتم ويتلو بأذكار الصباح، وقرأ بعدها (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) وبينما هو يتلوها أخذه طائف النوم. وإذا به يرى فيما يرى النائم أن أبواب السجن قد تحولت من ظلمة حالكة الى نور أضاء أرجاء الغرفة، فأطل القمر الأول، فقال أجود مستعبراً: سيدي أبو بكر الصديق.. سلام الله عليك يا صاحب رسول الله ورفيقه وقت الضيق. ثم أطل القمر الثاني، فقال: سيدي عمر.. الذي فر من الشيطان. ثم القمر الثالث فقال: سيدي عثمان.. شهيد المحراب المظلوم. ثم جاء القمر الرابع، فقال: سيدي علي.. صهر النبي صلى الله عليه وسلم أبو الحسنين.. الشهيد. فوقف القمر الرابع أما باب الزنزانة المقفلة واستل سيفه ذو الرأسين وبدأ بتاراً ورفع ففرض به قفل الزنزانة ففتحت على مصراعيها. صحن أجود من النوم على صوت الزنزانة وهي تفتح، فقال الجندي:

-أجود علي عباس.

-نعم.. هنا.

-إفراج!

-٤١-

ماذا تفعل مهديّة إن قدحت في رأس الخال حسين نوبات الجنون المعتادة فدمر الأمل الأخير في طريق الوصول الى أجود؟ ولكن ما الحل وكل الذين يعرفونهم لا يدانوه وفاءً وقرباً؟! و الكلام والافتناع وعرض المسألة هو الآخر فن لا يتقنه الخال، بل لا يحسن التذلل في طلب المسألة، فأرساله مخاطرة كبيرة ولكن وحدها هي الطريقة. وصل الى مقر الجيش وظل مشغولاً بمقارنة بين اسم المقر المكتوب في الكرت وبين اللافتة أعلاه، فهو لا يحسن القراءة تماماً ولكنه يتهجى الحروف من غير عناء كبير. فقال له الجندي:

-ماذا تريد أيها الشيخ؟

فرفع الخال نظره وقال بكبرياء:

-تأدب أيها الجندي عندما تخاطب الأكبر منك سنّاً ومقاماً.

فقهقه الجنديان الواقفان جنب ذلك الجندي، بدأ اللمز به وبهيأته:

-متأسفون أيها الشيخ العظيم ولمقامكم السامي.

فقال الآخر:

-ويحك ما هذا الشماغ؟ حسبته لمتسول يسأل الناس.

فأجاب الأول:

-ومن قال إنه لا يسأل الناس؟ اذهب حجي من هنا الله يعطيك، نهاية شهر والفلوس انتهت.

فقال الخال بغضب:

-قبحكم الله من جنود، أنتم جنود؟ أتحسبون أنفسكم عسكريا وعندما كنا نحن عسكريا؟ ما هذه الثياب المتسخة؟ وأنت الآخر ما هذه اللحية الكثة كأنها حشيش؟؟ عندما كنا كنا رجالا حقًا، منذ الصباح الباكر نخلق اللحية بالموس وغير ذلك يعاقب أشد ما يكون العقاب، كنت أرثدي قيافة وأناقة لا يحملها رائد في أيامكم.

فقال الأول وقد جحظ عينيه:

-ماذا تعني أيها ..؟

-أعني أنكم ممخرقون، ألا ترون أن الموصل ضاعت وتكرت .. بل ثلث العراق، لم؟ لأن أنت وأمثالك عسكري!! أنتم لا تحسنون الوقوف استعداداً واحتراماً، ثم تريدون أن تحرروا العراق.

فمسكه الأول من تلايبيه قائلاً:

-قبحك الله من عجوز.. بعثي وتأتي هنا وتغلط علينا .

-اتركني.

فصفعه الثاني بقوة وجره الى الداخل ثم عمل شكوى ضد الخال بتهمة الاساءة الى المنظومة العسكرية والاعتداء عليهم، ورموه بالسجن!

لم يعد الخال في ذلك اليوم وهاتفه مغلق، فحارت مهديّة ماذا تفعل وهي في المستشفى، لعله اساء الأدب مع العقيد؟ يفعلها . لعل سيارته تعطلت ونسي هاتفه مغلقاً؟ ممكن . ماذا تفعل؟

فقالت بتول:

-بسام، نرسل له ونرسله الى العقيد بدل الخال.

-صحيح، جودت اذهب الى بسام وناده ليأتيني.



-أريد لقاء العقيد محمد السامرائي.

قالها بسام بلطف ولباقة. فقال الجندي:

-تفضل.

ودخل على العقيد الذي هَشَّ وبَشَّ دون أن يعرف حتى من هو، مع كلمات الترحاب لدرجة أن بساماً خجل من لطفه.

-سيدي أنا من طرف عائلة (جواد علي عباس).

-جواد علي عباس؟ أين سمعتُ هذا الاسم..

-الذين لقيتهم على أبواب سامراء وأدخلتهم وولدهم جواد كان تحت امرتك.

-تذكرت.. أهلاً وسهلاً بك، كيف حالهم وأين أجود؟

-لهذا جئتُك يا سيدي، حالهم سيء جداً، السيدة أمهم تزحلق وكسر ظهرها..

-لا حول ولا قوة الا بالله.. السيدة الطيبة.

-والمصيبة الكبرى أجود. سيدي، أجود معتقل ولم يعرف مكانه الى الآن، منذ شهر تقريباً ولم ندع مركزاً لم نسأل فيه أو قاعدة عسكرية، كلهم ينفون أن يكون عندهم، علماً أنه تم اعتقاله من قبل قوة أمنية ويسألون عن رجل في تنظيم القاعدة سابقاً..

-تنظيم القاعدة!!

-البيت الذي سكنوا فيه عائد لرجل في تنظيم القاعدة، ويبدو

أنهم عقدوا صلة بين صاحب الدار الذي هرب وبين النازحين الذين قطنوا البيت، علماً أن الناس اتوا الى سامراء بكثافة عارمة، فمن أين لهم أن يعرفوا ويميزوا الرجال وهم غرباء وحيدون؟ عثرات خطتها الصدف فحاكمه عليها القانون.

-أين هو الآن؟

-المشكلة أنهم لا يعلمون أين هو الان.

-الحقيقية يا ولدي لا أعلم ما أقول، ولكن سأحاول أن أبحث عنه، وان عثرت عليه فلن أقصر بإذن الله.

-بارك الله فيك سيادة العقيد.

فقال ناهياً اللقاء:

-أهلاً وسهلاً.

وقبل أن يقوم، قال:

-صحيح.. أمس جاء رجل كبير يرتدي دشدشة وشماع يسأل عنك وهو خال أجود ولكنه لم يعد!!

-أيضاً لم يعد؟

-اي والله.

-ما قصتهم؟!

-لا أعلم.

-لعله شيخ مزعج؟

-أجل هو.

فنادى على الحارس وفتح السجل وقال: نادِ من التوقيف:

حسين مرتضى كامل.

فقال بسام:

-نعم هو الخال حسين.

-هو؟!

-أجل.

-هذا الرجل سبب لنا مشاكل كادت تؤدي به، ولكن سأحاول اخراجه اليوم، تعارك مع الجندي الواقف في الباب.



فتح العقيد محمد السامرائي ملف أجود بعد جهد جهيد من البحث والاتصالات والعلاقات مع الضباط حتى عشر عليه، يدهش تارة من بعض الفقرات ويعبس تارة أخرى الى أن أتم قراءته. رفع الهاتف واتصل بجهة عالية وبعد الترحاب: سيدي، عندي فتى نازح، تم تليفق دعوى كيدية له بسبب وجوده في مناطق سيطرت عليها داعش... الفتى من عائلة محترمه وأخوه كان جندياً فُقد .. نعم.. المشكلة أنه لم تثبت عليه تهمة.. نريد اطلاق سراحه... شكراً سيدي شكراً.

بقي العقيد في محادثاته واتصالاته الى ان تم اطلاق سراح أجود، وأول ما خرج من السجن كان العقيد محمد في انتظاره. لما رأى أجود العقيد في انتظاره داهمه خجل مفاجئ، لعل ملابسه البالية وشعره الأقرع هما سبب الاحراج، فهم في نظره عائلة بطل قضى نحبه في سبيل الوطن.

-الحمد لله على السلامة.

فقال بارتباك:

-شكراً جناب العقيد، ربي يسلمك.

-كنت متهمًا بقضية كبيرة، وكان من المقرر محاكمة طبعًا
للمادة أربعة من قانون الارهاب، لكن الوالدة فعلت خيرًا
عندما أرسلت لي خبرًا، وبعد فترة طويلة امتدت لشهرين أو
أكثرها أنت تقف أمامي حرًا طليقًا.

-شكراً سيادة العقيد.

أخرج علبة السجائر من جيبه وناولها واحد فأخذها أجود
ممتنًا وأخذ واحدة له واشعلها لأجود بكل تواضع. أجود
أصبح مدخنًا في السجن. فقال العقيد وهو ينفث:

-ماذا تعمل أنت؟

-لا شيء.

-سأجد لك عملاً لم تكن لتحلم به يوماً، أحتاج منك فقط
أن تجتهد وتأخذ شهادة السادس الاعدادي، بعدها ستعيش
عيشة الملوك. هل تجيد استعمال السلاح؟

-نعم.

-ممتاز، سوف أجعلك ضابطاً برتبة ملازم في الجيش
وبشهادة السادس، تدخل فترة اعداد لمدة ستة أشهر، وبعد
تقبض راتب ضابط، ستعيش بالراتب الطائل بلا منة أحد
مهما كان. ستعود الى العيش بكرامة وعز يا أجود.. هل
نسيت؟ تطاول الاقزام عليكم في هذه الأشهر ومن لم يكن
يرفع صوته أمامكم صار يأمركم.

ها هو العقيد يضع يده على موطن الألم، ها هو جاس على

الوجع مرة واحدة بلا رفق ليعيده الى تلك الأيام الى العز
الحقيقي.. ولكنه عمل ضابطاً مرة واحد؟ لم يفكر يوماً في
هذا العمل، كل احلامه كانت امام مسجد، وإذا غالى فمدرس
في قريتهم.

فتابع العقيد:

-فكر جيداً يا أجود.. ستكمل ما بدأه أخوك.. جواد.. ستثأر
له .. هل تقبل أن تكون جباناً وتترك دمه؟

فقال والالهم يغوص في اعماقه:

-لا .. لا ..

-العسكرية شرفٌ ما بعده شرف.

-سيدي.. لَمْ تفعل هذا معي؟

-لأن جواداً كان جندياً باسلاً وأنت صورة عنه، سأرفع الى
الداخلية اسمك ونطالب بتسيبك ضابطاً برتبة ملازم،
تكريماً لذكرى أخيك.. صحيح نسيت أقول لك.. عثرنا على
جثة أخيك في مقبرة جماعية، ودفناه في كربلاء.. عظم الله
أجركم.

فطفرت الدموع من عينيه.

-٤٢-

سيدي الرئيس إن ملكك عال كيعسوب ولكنه راخ تدمره أول
رياح تهب فكيف بك إذا كانت تلك الريح هي دماء هادرة
غضبي؟ ضحيتم بنا وسرعان ما رميتم لنا علماً نلف به موتانا
تكريماً لنا وحفرة جوار أبي عبد الله الحسين.. أتحسب ذاك

تكريم؟؟ إني لأشتم لعنات أبي عبد الله الحسين تنطلق هادرة
تزمجر .. ما الذي بقي ولم تأخذه؟ أموالنا وتقاسمتموها كما
تتقاسم وحوش الغاب فريستها، دماؤنا ومصصتموها وأكلتم
لحمنا ورميتمونا عظمًا، قل لي بربك أي بيت خلا من نازح
ترك أرضه وماله، أو شهيد ترك خلفه صبية يتجرعون الفقر
والبؤس والتشرد؟ أو معوق خسريداً أو رجلاً فبقي يحمل
جرحه وألمه طول عمره ويصب عليك لعنته؟ سيدي الرئيس،
نحن بسببك وبسبب سياسة دولتك وحكومتك الخرقاء
وقيادتك البائسة تصدرنا العالم في كل شيء تيس وبائس،
فعاصمتك التي تدر عليك مليارات الدولارات هي المدينة رقم
واحد في ترتيب المدن التي لا تصلح للعيش!! عدا الفقراء
والمشردين والنازحين وعدا ثلث العراق المدمر، ما الذي أبقىته
لنا بربك؟ أما آن أن تكف بلاك عنا؟ أما آن للحكومات البائسة
أن تعتزل السياسية بعد أن علمت أنها لا تحسن السياسة بل
هم مجموعة لصوص؟



نجح أجود ذلك العام ولم يكن هناك بد من النجاح وإن
لم يتفوق ككل عام، ولم يأت بهذه النتيجة كسلاً، بل لأنه
لم يدرس معظم ذلك العام.. وأننى له أن يدرس وقد قضاه
بين السجن واربيل والمستشفيات، ولكن على العموم كانت
تلك النتيجة مرضية وتفي بالغرض. وبعدها بأشهر تم
تكريم عوائل الشهداء — شهداء سبايكر — ودفع تعويضات
لكل عائلة وقدرها عشرة ملايين دينار، مع راتب تقاعدي
لأمهاتهم، وبعضهم من حصل على قطعة أرض. ولكن هل هذه
التعويضات البخسة تجعل الجرح يلتئم، والحزن ينتهي، ويحل
النسيان بدل الذكريات؟ أم أن دولتنا الرشيدة تحاول أن تشغل

الناس وتسيهم أمر الدماء التي شخبت؟ الحكومة منحت عوائلنا دراهم معدودة وكانت فيهم من الزاهدين ولكن هل يحسبون أن الصرخات ستحجبها أموالهم؟

ودخل أجود دورة لمدة أشهر ستة وتخرج ضابطاً برتبة ملازم، احياءً لذكرى أخيه وتكريماً لشجاعته. وعاد الى حيه ببزته الجديدة والنجمة لامعة على كتفه تصرخ وتقول: ها أنا هنا.. وفجأة استيقظ بنفسه ذلك الجزء النائم.. بل الميت وعاد حياً.. ذلك الشعور بالانتصار وانصاف النفس والتحرر من سطوة الغير عليه.. تذكر ذلك اليوم عندما وقفوا بباب سامراء أذلة متوسلين ببوابها وامامها ليدخلوها آمنين على انفسهم عندما لفظهم كل شيء.. تذكر الاعتقال المرير والتعذيب واللكم والتهم المعتادة: بعثي.. داعشي.. فقال لنفسه: ها أنا عدتُ انساناً آخر غير الذي تعرفونه.

وماذا يعينني غير الذي تعرفونه؟ يعني أن اللين المشبوب بتلك الرحمة قد انتزعت واستبدلت بقسوة شابها حب الانتقام والثأر لأخيه.. ولكن تحل القسوة والفتوة مكان الطيبة والرافة في أشهر قلائل؟ هل تقتلع الوردة وتنبت مكانها شوكة في آن؟ ولكنهم هم الذين حملوا من الغموم والهموم ما لم تحمله شمم الذرى، ألا يحق لهم أن ينشبو اظفارهم ويشهروا نبوتهم؟ أم هم ملائكة فلا يغضبون أو يثأرون؟ بينما يسأل نفسه سمع صوتاً أليفاً يناديه: أجود!! التفت الى الصوت وإذا ببسام وهو يحمل كتبه، تقدم نحوه وعانقه طويلاً:

-متى أتيت؟

-الآن.

-ضابط مرة واحد يا أجود.

فقال أجود مازحاً:

- (قل أعوذ برب الفلق) ..

- كبرت يا أجود وبدأت تخشى أعين الحاسدين، تستحق،
فقد صبرتَ وتجلدتَ ونلتَ من المكاره الكثير، وضحيتم، وفي
النهاية حصدت.

- ما زال الطريق في أوله.

- الخالة مهدية كيف هي؟

- لم تزل على حالها ولا تحسن يذكر، لا أعلم ما بها يا بسام،
الطبيب يقول انها حالة نفسية، ترفض التجاوب مع العلاج.
- استرح عندي.

- لا .. أريد الذهاب الى البيت.

- لا تخف يا رجل، لن تتسخ بدلتك إذا جلست عندي. نحن
أهلُ أتستكبر علينا؟

- لمَ تظن إنني أتكبر؟

- لأنك غير أجود الذي نعرفه.

- سأذهب معك وأمرني الى الله.

وما أن دخل بيتهم حتى رأى نوار من الشباك ولكنها هذه المرة
واقفة دون ستائر والنافذة مفتوحة، ووقفت بسامة الثغر تنظر
إليه فكأن القمر تلاً في ثغرها، ولكنه الآن ضابط وعليه أن
يزداد رزانة ووقاراً.

قال أجود لبسام وهما يشربان الشاي بعد الغداء:

هناك أمر أريد أنن أصارحك فيه .. كتاباتك على الفيس

بوك، ونشرك على العام بهذه الصورة، تارة تنتقص من رجال الجيش..

فقاطعه ضاحكاً :

-لم تدخل الجيش حتى بدأت التهجم عليّ والدفاع عنهم؟!
-أنت أخي يا بسام، وعلي أن أحذرك مما سيقال وعمّا يجري، الفيس بوك وهذه المواقع مراقبة، فلا تكتب ما يجلب الشبهة عليك، فأولاد الحرام كثر، وبشخطة واحدة تذهب وراء الشمس.

-إنني أوعي الناس واعظهم وانصحهم.

-ألم تجد غير الفيس؟

-وهل يوجد غيره؟

-اتركه.. ولا تكتب على العام.

-لو رأيت الخاص؟

-وماذا في الخاص.

-نصح ورشد وهداية.

-وهل أنت خليفة الله في الأرض لتهدي الناس؟

-الاصلاح مهمة كل واحدٍ فينا .

-هذا الكلام قلّه لأناس متحضرين مثقفين، صدقتني بخبر واحد من مخبر سري تكون خبر كان، الدنيا هنا تائهة، فلا تجعلنا نخسرك.

-أنت تسرف في ظنونك كعادتك.

ستبدو لك الأيام صدق حدسي، ولكن أتمنى أن لا يكون
قد فات الوقت وبقي الندم والتحسر.. (ثم بعطف وضعف)
ارجوك يا بسام، لا أريد أن اخسرك، خسرنا أناسًا كثيرين،
وغير مستعدين لأن نخسرك.

فضحك ضحكة كبيرة:

-يا أجود ما بك؟ لم شعور الفراق هو ما يسيطر عليك؟
-لأنني ذقت مرارته مرارًا، ولا أحب أن أذقها ثانية.



ودخل بيتهم فلما رآته بتول شهقت ودُهِشت، وقالت:
-أجود؟! هذا أنت.

فتقدم يتبختر أمامها بزهو وهي متعجبة فرحة حتى أن عينيها
فاضت من الدمع.. فقال لها:

-لم البكاء؟

-من الفرح يا أخي.

ثم احتضنته وهي تبكي.

فجاء صوت مهدية واهناً:

-من؟

-ماما هذا أجود عاد.

فدخل عليها وجثى عندها مقبلاً يدها، ورفع رأسه، فقالت:

-اللهم صلّ على محمد وآل محمد، حرستك من كل حاسد
وحاقد ببركة النبي وآله.

فقال بتول:

-العشاء اليوم عليّ.. أنا اشتريه واطبخه لكم.

فقال أجود بتدل:

-وماذا ستطبخين لنا يا حلوة؟!

-كيلو كباب كامل.

فصفق جودت وقال:

-يا سلام سنأكل كباب ضأن؟

فقال:

-طبعاً .. خروف خالص.

فقال أجود بتغنج:

-فقط؟!

فوقفت بتول حائرة.. فقالت بسخاء قارب على النهاية:

-وصينية كنافة.

-فقط؟

فقال عاجزة:

-لا مال عندي يكفي لأكثر من ذلك.

فضحكوا بجذل. قالت مهدية:

-كم راتبك؟

-لا اعلم، ولكن اظنه أكثر من مليون دينار.

فشهقت بتول بتعجب.. فقالت مهدية:

-قل اعوذ برب الفلق. لا يحسد المال الا أهله.

-٤٣-

صعد أجود الى مكتب العقيد محمد السامرائي بتودة، ألقى تحيته كما يليقها الجندي الباسل. وجلس بعد أن أشار له العقيد بذلك. فقال العقيد بأناة:

-أنت تعرف يا سيادة الملازم وضع قريتكم «لوعة عباس» والقرى المجاورة وما سببت لنا من قلاقل ومتاعب، وأنت أعلم. وقيادة العمليات كانت ترجئ تحريرها الى ما بعد تحرير تكريت، لأنها بنت دروعاً حصينة وخنادق محفوفة بالمتفجرات وعملية معقدة جداً، وارضيتكم فيها بساتين كثيرة وحقول شاسعة، ومع هذا فيها ثقل التنظيم في محافظة صلاح الدين، بل هي خط الوصل بين الموصل والانبار ديالى وحزام بغداد، ولكن حان الآن قطع دابر تلك القرية الظالمة هي وأهلوها، وقد اخترتك مع الضباط الموكلين بمهمة التحرير لسببين اثنين: لأنك عارف بطبيعة تلك الأرض ومداخلها وأشياء أخر، ستكون مستشاراً أميناً ولن تخيب ثقتي بك، وهذه أحد الأسباب التي جعلت الداخلية توافق على ترفيعك ومنحك هذه الرتبة. السبب الثاني هو الثأر لأخيك واخوانك، اعلم منذ أن اخبرتك أن أخاك متوفى وعشرنا على جثته وصدرك ينطوي على شعلة متقدة لا تطفئها الا نار الانتقام. هذا ولن يخيب بك ظني، أنت المفتاح الذي سيدخلنا للوعة عباس لنعلن انتهاء التنظيم في محافظة صلاح الدين، ولن ينسى الوطن تضحياتك التي ستقدمها.

فقال أجود بارتباك:

-أنا.. أنا.. لا اعلم كيف اشكرك ..

فقاطعه قائلاً:

- ستشكرني عندما تقدم خدمتك للوطن..
- هل يعطي روحه للوطن الذي يفر منه؟ الذي نفاه وكفر به
قبل عام؟
- فقال أجود:
- أمرك سيدي!
- وهذا ظني بك.
- متى الانطلاق؟
- غداً فجرًا، واليوم اجازة ودع الأهل والحببية.
- فقال أجود كحلمٍ بعيدٍ:
- الحببية!
- فقال العقيد باسمًا:
- كلنا لنا حبيبة واحباء.. الحبُّ شيءٌ مقدس.
- أنت صوفي.
- فضحك العقيد بمليء شذقيه.. وقال:
- وهل الحب مختص بالصوفية؟
- التصوف كلُّ، والحبُّ جزءٌ، فإذا قلت لك صوفيٌّ أعني أعلى
سمات الحب، بل يشمله ويشمل غيره، كل انسان نقي الفطرة
هو صوفي بوجه أو بآخر.
- أأنت شيخ أم مريدٌ؟
- أنا مريدٌ لمن أهوى.. ولكن كيف يفعل المريد إذا الذي
يهوى راح؟ أيبقى معلقًا بين الهوى ولعنته؟ أيبقى يتلظى بنار

الحسرات والآلام والأوجاع؟ أبقى ينتظر من نسيه؟ قل لي.
 فأجاب العقيد عن سؤاله بسؤال:
 -ولم لم يجبك أو يأتيك من تهوى؟
 -تقضيه لوعة كلوعة عباس تماماً.
 -تموت كمداً؟
 -بالضبط.. أو تنتظره!



عاد يتهادى حزناً كئيباً كاسفَ البال، هل حان وقت المواجهة والوقع في المحذور؟ الذي كان يخاف منه سيحصل، وجهاً لوجه مع لوعة عباس، مع الشقاء مع العذاب، هل سيضطر أن يدل الجند على مكانها .. رحمة وسعيد وكل أهل القرية .. ولكنهم هم أنفسهم من طردوهم وسجنوه هو وضربوا أمه بالرصاص .. هل سيدخل القرية منتقماً أو فاتحاً؟ هل سيعطف عليهم أو سيقتلهم ويزج بهم في السجون؟ ولكنه مأمور، وهذا قدرهم .. هم من تعاونوا مع الإرهابيين، ولكن هل يكون البيوت بالطائرات على رؤوسهم حتى يكونوا انقاضاً وجثاً هامدة .. لم يا إلهي ترميني في هذا المعترك؟ لو هاجرت مع المهاجرين الى أوروبا لكنت الآن أحسن حالاً وأصفى بالاً ولكن وقع المقدور على المحذور ولا بد من المواجهة .. يقول العقيد إنها تثير قلقاً وبلابل وتربط أرض التنظيم كلها .. أي بلاء هذا وأي ذنب ارتكبتموه، كيف صرتم وكيف ستقاتلون؟ ماذا أصنع؟ أأخرج هائماً كما خرج جدي وأفعل ما لم يفعله فأريح واستريح مما سيأتيني، إن تهدمت القرية سيركبنا عار أبدي العمر .. سأهدم ملك عباس .. ولكن ما ذنبي؟ كل نفس بما

- كسبت رهينة، وهذا ذنبهم وهم الذين اقترفوه.
- واطمأن للخاطر الأخير ورآه قريباً من نفسه. كان قد وصل أمام بيت بسام ودق الباب، فخرج بسام..
- صديقي بسام أنا ذاهب الى معركة التحرير.. تحرير قريتنا، تقول جدتي حميدة أن جدي عباس قرر ارسال أبي الى العسكرية لأنه مؤمن أن الأرض لا تعاد الا إن سقاها الانسان بدمه، سأذهب وقد لا أعود، إنني أرى الموت يلوح لي ويناديني نداء صدقٍ.
- فقال وقد نزت من عينيه دمعة:
- لا تقل هذا يا علي.. لن تموت..!
- الموت حق.
- اعلم أنه حق لا ريب فيه، ولكن.. لا..... أريدك أن تعيش..
- فقال كلمته الأخير ودخل في نوبة بكاء وحضنه وهو يبكي على الباب ويقول له: لا ترحل.. لا تمت..
- كانت نوار تنظر من شباكها وتبكي هي الأخرى.. تبكي بدموع عاشقة ولهى!
- فقال أجود:
- ما لك تبكي كالنساء يا بسام؟ استوِ وقف كالرجال.
- لا تذهب..
- قف.
- فمسح دموعه وهو يقول:
- لا تطل الغياب.

-اعرفك أقوى من هذا، استمع إلي واحذر أن تكتب على
الفيس بوك.

-اتركني بهمي يا أخي.

فقال أجود وهو يستعيد صداقتهما الصادقة:

-أتعرف يا بسام تارة أراك أقرب إلي من نفسي، بل نحن
واحد، أنا أنت وأنت أنا، نفس الأفكار، كلانا يكمل بعضه
البعض، وتارة أشعر أننا بعداء كبعد المشرقين، متافران
كالضدين، والحوار يكاد يتحول الى عراك، لم؟

-لأن الكلفة مرفوعةً بيننا، نتكلم بصدق لا يداهنه نفاق، كلانا
يتمم الآخر.

ثم تعانقا طويلا.



بكت وندبت حظها ولطمت واستحضرت الموتى والغائبين،
مهديّة تخشى الرحيل.. خائفة متوجسة من الشتات، لم يعد
بها قدرة على التفجع كما يليق بهم، كثر الراحلون ولم يعد
هناك قدرة على وداع يليق ويتسع للجميع. فقال لها:

-إنها الحرب يا أمي.

-خسرت واحداً ولم يعد هناك متسع لأخسر الثاني.

-سأعود إن شاء الله.

-لم أعد قادرة على الانتظار، ولا تحمل الصدمات يكفي
خسران واحدٍ فلا تفجعني بك.

-قرار ولن اراجع عنه.

-لأجلي.

-كُتِبَ علينا القتال وهو كره لنا، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لك والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

فاستسلمت للقدر، وقالت له:

-إذن استودعك الله، اتقِ الله واحفظ اهلك ولا تسفك دماءهم فإنهم الأهل والعشير.

-هم ارهابيون.

-لا يا ولدي.. ولكن غرر بهم.

-بعد كل الذي فعلوه بك!

-يا ولدي، إذا حقدتُ على كل من آذاني ولم أعفُ فلن يعفي عني ديانِي وذنوبي كثيرة ولم يبق في العمر بقية.

-امام .. مازلتِ شابة.

ففتر ثغرها عن بسمّة باردة:

-شباب!! الشباب ولى وما بقي قليل.

-أريدك أن تكوني بخير وتقضي على قدميكِ عندما آتي.

-كله تقدير.

وعانق أخاه الصغير، وعانق بتول.. وخرج فجراً.

ها هو الشتاء الثاني يزحف مجدداً برعده وبرده ورياحه وهم بلا وطن، ها هو يحمل حقيبتَه ليحرر ذلك الوطن المغتصب..
ليقف وجّهاً لوجه، ويفديه بدمائه إن لزم الأمر، فإن الأرض تحتاج لسقيا الدم كما الماء.

القسم الثالث

١

القرية الظلمة

«وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا
مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٥٧)»

النساء: ٥٧

-٤٤-

كان حفيف الاشجار عاليًا، وهذا دأب الرياح أول الشتاء. شيء يلمح للحارس أنه يتحرك تجاه القرية، فقام وسحب بندقيته ووجهها تجاه ذلك الشيء الذي بدا غريبًا ويتحرك مع الريح، سوادٌ يتحرك، ما زال يرمقه، لعلها شجرة اقتلعتها الرياح فهي تتدحرج تجاه القرية... أو لعله هو الذي لم يعد يفرق بين الحشائش والزهور والزرع المختلفة ألوانها إذا عصفت بها رياح عاتية، أو لعله ضبع أو ذئب أو ظبي يعدو. واستراح لهذا الخاطر واعاد بندقيته الموجهة نحو ذلك الشيء الغريب. كانت دروب القرية خالية الا من جنود التنظيم المنتشرين هنا وهناك لغرض الحماية، وقرب دكان تحسين جلست مجموعة من رجال التنظيم وقد أوقدوا نارًا وجلس احد الرجال وكان أنداهم صوتًا لينشد ويشحذ همهم بصوته الذي بدا لهم نديًا:

صليل الصوارم نشيد الأبة ورب القتال طريق الحياة

فبين اقتحام بييد الطغاة وكاتم صوتٍ جميل صداه

فقم يا أخي لدرب النجاة لنمضي سويًا نصد الغزاة

ونرفع مجدا ونعلي جباه أبت أن تذلل لغير الاله

كانت قد تسللت الى البيت المحاذي للدكان وهي متوشحة

بالسواد الذي زادها الليلة والرياح الهوجاء سواداً قاتماً وصوت
الأناشيد قد بدا واضحاً، وكالقطعة المتسللة دخلت ذلك البيت
فتلقفها تحسين بشغف، وقال لها بصوت خفيض:

-أين أنت يا غنية؟ تأخرت كثيراً.. كم مرة قلت لك لا تتأخري
الى هذا الحد؟

-ماذا أفعل؟ جنود التنظيم مستيقظون لا يكادون يهجعون،
ولولا الريح ما تيسر لي القدوم، حتى أن الحارس قبل قليل
صوب سلاحه نحوي.

-ماذا؟ اكتشفوك؟

-لا.. ولكنهم شكوا أن أحداً هناك، متى ننهي هذه اللقاءات يا
تحسين؟ تعبت من التخفي ومن هذه الطرق الملتوية، حتى أُمي
تلح على موضوع الزواج، لنتزوج يا تحسين ونقضي أوطارنا
بالحلال خير من الحرام وما به من مخاطر وخوف، أتدري
لو أن التنظيم امسكنا ماذا يفعل؟ اعدام. تزوجني يا تحسين
ولن أكلفك شيئاً، المهم أن تأخذني، ببلاش، فقط تعال أنت
والشيخ واعقد قراننا ونتظل بظلال الحلال.

-الله كريم.. نتكلم في هذا فيما بعد.

-متى؟

-ألم تشتاقي لي؟

فقالت بتغنج:

-بلى.

وسرعان ما جذبها نحوه وهم في حديقة البيت المظلمة؛ وخلع
عباءتها وفوطتها فبدا شعرها أسوداً فاحماً وجذبها نحوه

ليغطي شعرها وجهه ويمضون في قبلات حميمية..



صوت الناي يخترق أذنيه، صوت مألوف .. كأنه يعنيه هو دون غيره من الناس، تُرى أين سمع هذا الصوت؟ أينوح على بؤسنا؟ أجل يشبه صوت علي المتهدج في نايه، هل عاد علي؟ وهل يعود الموتى؟ ومن قال أنه مات؟ وإن لم يمت فمشهد تدحرج رأسه أمام المسجد الكبير على رؤوس الأشهاد ماذا يسمى؟ علي ييث لعناته، وروحه آتية للانتقام، تغير في الكوايبس لتصب غضبها بلحن يخلد ذكراه.. يستدعيه من جدته ويجعل روحه تحوم بذلك اللحن وهي غضبي. فتح أسامة عينيه فزعاً هلعاً، قام من غرفته الى المطبخ وغسل وجهه فهدأت روحه.. لا لحن ولا ناي ولا علي. علي مات وهو راقد في قبر مجهول؛ فلم يسفه منامه بتلك الكوايبس وذلك اللحن المنكر؟ منذ أن مات علي وتلك المنامات تقض مضجعه فيستيقظ فزعاً. مشى الى باب البيت واذا القرية ساكنة الا من صوت رجال التنظيم ينشدون عند دكان تحسين، حمل بندقيته وخرج ورأى بيت عمه المهجور فهجمت الذكريات كظبي مطارد، متفافزة نافرة تعيد المشاهد وتكر الذكرى تلو الذكرى لتعود حية مترائية أمامه وكأنها تجري الآن بأهوالها وصعابها، فاعتصر قلبه ألمٌ خاصة بعدما رأى تلة عباس، فتمتم قائلاً: التلة ملعونة .. تباً. وبصق نحوها لعله يقلع الماضي ويؤد الذكريات الذابحة، ولكن كيف السبيل وهي ترفض الا أن تبقى متأججة متقدة لتحرق الفؤاد وما حوى؟ يقول أبوه إن هذه الشجرات التي تظلل التلة شجرات ملعونات تزين الخطيئة وتكسوها لباس التقوى تارة ولباس الوجد تارة أخرى تسهيلًا وتيسيرًا. ماذا فعلوا لتبت في أرضهم وقرب مسكنهم شجرة ملعونة تجلب

السوء وفاله ومدعاته. ولكن أليسوا هم من يعتبرون الإيمان بهذه الأمور كفرًا وشركًا؟ فكيف خالجه الشك ليصدقها؟ قد يخرج الإيمان من القلب إن آمن بها خروج العشق من القلب الخرب. وخروج الأسير من السجن. أغدى قلبه صلدًا خاويًا من الإيمان حتى يؤمن بشجرة فالها سيء؟ أهذا كلام مؤمن موحد ولسان تلا للقران آمن وجاهد في الله طاعةً وتقربًا؟ متى ترحل يا علي فقد أطلت المكث في الذاكرة كأمر يأبى النسيان. كان قد اقترب من مكان تجمع رجال التنظيم وهم ينشدون قرب دكان تحسين ومر من أمام باب بيت تحسين فسمع ما أثار ريبته، همهمات وهمسات ولهات ورفع وخفض وضحكات مكتومة وتحرك العشب! فوقف وأرهف السمع جيدًا، ولكنه تذكر قوله تعالى: (ولا تجسسوا..) فوقف وهم بمتابعة سيره، ولكن صوتًا داخليًا ألحَّ عليه أن يقف وينصت، فقد تكون تلك الهمهمات والضحكات الخفيضة من أهازيج الخطيئة التي تستوجب عقابًا، ولو كان حلالا لمارسوه داخل بيتهم لم في الخارج، وجال فكره الى أن انتصبت أمامه هذه الجملة شاهقة كجبال، تصب لعنة كالشجرات التي تظلل التلة: الفاحشة في القرية!! لم يكذب يصدق الجملة وهي تطن في رأسه، فكررها كأنه يريد نطقها بصوت صحيح لا لبس فيه ليوثق أنه في حقيقة لا كابوس من كوابيس علي التي تغير عليه إذا لاح سنى النوم في عينيه. واقترب ببطء وأرهف السمع ليصدق سمعه فأيقن ومشى الى الأناشيد الصادحة كاظمًا دهشته وتعجبه. وعانق الليل السحر واقترب أذان الفجر أن يرفع ليوثق القرية الخاملة وما تاخمها من القرى والنواحي وتسري فيها الروح بد النعاس. وخرجت في ذلك الوقت غنية وكانت الأصوات الناشدة قد هجعت ولم يبق الا

صوت ثغاء شياهم أو صوت ديك يستعد للصباح، نظرت يمنة ويسرة فرأت الظلام جاثم على القرية والسكون يلفها كما يلف السوار المعصم فمضت بخطوات متروية تسير وقبل أن يبلغها الظلام الكثيف أو تبتعد عن البيت جاء رجال التنظيم من كل مكان مكبرين وكأن الأرض شُقت فخرجوا منها راكضين مكبرين مشَّهرين أسلحتهم عليها فأحاطوا بها وأسلحتهم عليها ويحملون أضواءً قلبت عتمتها نهاراً، وظنوها مسلحة فلما خلعت عباءتها وبدت خالية الوفاض أجلسوها وجاءوا بتحسين مقيدا وقد حاول الفرار من الحائط الخلفي. فتقدم طلحة ضاحكاً وقائلاً: تمارسون الدعر والعهر هنا؟ في هذه القرية الطاهرة التي اجتباها الله لتكون أرض خلفائه وأنصاره، فدنستموها وفسدتم فيها ومارستم الرذيلة فيها، كمن يتحدى الله علناً، وماذا بعد هذا؟ فصاح رجاله كلهم أجمعون: -الحدَّ .. الحدَّ...

فقال طلحة:

-اعلموا أن الدولة الاسلامية دولة عدل وانصاف، تقيم حدود الله، وأنتم يا رجال شهود الحق على هذين، وانهما كانا يمارسان الزنا متخفين، أتشهدون؟

فقالوا بصوت واحد:

-نشهد بذلك.

-ستقفان غداً في المحكمة، وسينفذ بكم حد الزنا بما يرضي الله.

فصرخت غنية:

-أنا بريئة.. بريئة.

فنهرها اسامة:

-اخرسي يا عدوة الله!!

فقال طلحة موجهاً كلامه لتحسين:

-وأنت؟ ألم تته عن منكر حتى تأتي ضعفه؟ نهيناك عن المغالاة بالثمن فبعت السكائر عنا، ونهيناك عن السكائر فأتيت الفواحش علنا!!

-....

-أجب.

لم يجب تحسين، واخذوهم الى السجن الى أن ينظر الأمير أبو عبد الله غدا في امرهم.

-٤٥-

دخل تحسين الى السجن ومعه ستة آخرون. بدا يتصبب عرقاً وفكرة مرعبة قد سيطرت على ذهنه، هل سيقطعون رأسه كما قطعوا رأس عليّ فيمضي رأسه متدحرجاً تلاعبه الريح على رؤوس الأشهاد والناس تنتظر وتلعنه وتسبه؟ لم يسمع كلامها ويتزوجها فينقذ نفسه من هذه المهالك وممالك السوء؟ ولكن «وقع الفأس في الرأس» وانتهى كل شيء. السجناء النائمون بدأوا يستيقظون واحداً تلو واحد فيرون ذاك الاسمر القابع قرب باب الحجرة وتسكنه تلال من الهموم، وجبال من الغموم. فبدأ أحدهم يسأل الأسئلة التي يطرحها كل المساجين أول ما يدخل عليهم نزيل جديد: ما تهمتك؟ كيف قبضوا عليك؟ متى تحاكم؟ أليدك واسطة

فتتقذك من هذا المأزق؟ وتحسين صامتٍ يطيل الصمت كأن
لم يسمع، لا يردّ. فقال أحدهم:

-لعله كافر، وسيحاكمه القاضي بتهمة الكفر —والعياذ
بالله — فهو مطرق يفكر كيف سيطير رأسه أمام الجامع
الكبير...!! مسكين حقًا كيف آلت الى هذا الحد لدرجة أن
يكتشفوا كفره والحادث.. قل أمنت بالله ووحد تسلم.

فجاء صوت الثاني وقد تخطى الستين وفي ملامحه وقار
وكان صوته مبجوحًا:

-يا ولدي ما زالت شابًا فلا تمت من أجل زوبعة، إن كنتَ
مرتدًا فعد، وإن كنت عاصيًا فتب.. وسيتوب الله عليكم.
فردّ الأول:

-وإن تاب الله عليه فهل سيتوب التتظيم عليه وينجو من
غضبه؟!

فقال الثاني متجاهلا كلام صاحبه:

-إن صلحت نفسك وطهرتها وسموت بها فلا تخف من
التتظيم ولا من غيره، وسيفعل الله أمرًا كان مفعولًا.

فجاء صوت رجلٍ ثالث مغمض العينين ولكنه منصت إليهم:

-يا ناس اتركوا الرجل، أخشى ما أخشاه عليه أن يكون كسابقه
الذي جاء وبقيتم معه تحقيقًا يشبه هذا التحقيق وظهرت
تهمته هي محاولة اغتيال ابن الأمير، وتم جلد ومعاقبة كل
من تحدث معه هنا.. جلودنا لا تتحمل، اتركوا الفتى، السجن
مليء بالجواسيس.

فقال الأول وهو يحاول معرفة كل شيء:

-تكلّم لعلنا نخفف عنك وجعًا، نحن اخوتك وكلنا تهم قريبة منك. أنا متهم بتعامل بالربا، ولكني بريء الله يشهد بذلك، تهمة لفقها أولاد الحرام وما أكثرهم.

فرد عليه الأشيب ذو الستين عامًا:

-أأنت بريء؟ أنسيت عندما بعت ولدي البيت لأجل القروض التي أخذها منك وجاءني يبكي ولا يلوي على شيء هو وعياله؟ الله ينتقم منك ومن أمثالك، وسيأخذ التنظيم حق ولدي منك.

-التنظيم الذي سيأخذ حقك أيها العجوز؟ وغداً إذا جاء الجيش وتحررت المدن صرت بطلاً مناضلاً ومكافئاً وأنت الذي كنت تعتمد عليهم ليأخذوا حقك من ابن عشيرتك.

-وما فائدة ابن العشيرة إذا أوردني المهالك؟ ما فائدته وهو الذي جعل ولدي مفلساً بتلك القروض الربوية عليك لعنة الله.

-اللعنة عليك أنت وولدك.. هو من جاء وأخذ .. وأنت من تتعم بها وصرف أم نسيت كيف كنت تأخذ منه الملايين تلو الملايين لسفراتك؟

-لصّ ومحتالّ.

-اخرس أيها العجوز وإلا هشمت رأسك.

وسمعوا دق الحارس على الباب يأمرهم بالسكوت والا جلدهم!

فسكتوا. وكانت تلك المشاهد معتادة منذ الصباح الباكر.

مرت ساعاتٌ قبل أن يقرر تحسين أن ينطق وينفس عن نفسه. فقال مجيئاً عن الحاحهم:

-تهمتي الزنا!

فشهقوا واستتكروا وكادوا ينفرون منه ومن تهمة الكبيرة،
فقال الأول ذو الصوت الأجش الذي يتعامل بالربا:

-وهل مسكوك متلبساً في فراش واحد؟!

-لا. رأوها خارجة من بيتي.

فقال الرجل الستيني:

-ويحك يا تحسين! كيف وقعت هذه الواقعة وأنت السبع؟
لم تجد مكاناً الا «لوعة عباس» تركت تكريت كلها والفيافي
الخالية والحقول الا البيت وجنب دكانك؟ الذي نعلمه أن
دكانك هو ساحة الاعدامات والمحاكم بعد الجامع الكبير في
تكريت، فالتنظيم كما تعلم يخشى ما يخشى على نفسه هذه
الايام من العمليات العسكرية القادمة ومن الطيران المحلق
فهو يأتي ليحاكم ويعدم خفية أمام دكانك..

-أعلم.. ولكنه النفس قاتلها الله تعشق الملذات.

فقال آخر ينصت بغير اهتمام:

-النفس!! وأخيراً أوصلتك الى التهلكة.

فقال فزعاً:

-سأموت.. سيعدمونني؟ هه؟

فقال الستيني:

-هون عليك يا تحسن.. الأمر هين.

-سيطلقوني.

فقال أكل الربا:

-بعد ثمانين جلدة، فإن كنتَ قويًّا أكالا للحم والشحم شديد العضل ستتجو وستقاسي أياماً آلاماً وعذاباتٍ ولكنها ستزول وتساها.

-وإن لم يتحمل جسمي؟

-ستموت.. ولن تموت فوراً، بل ببطء.. رويداً رويداً.. ستنتفخ أوداجك .. ويعاني ظهرك من أورام .. ستعيش مع العذاب وبلا علاج أو أطباء الى أن تموت، ولن يصلي عليك أحد، ولن تدفن في مقابرنا، بل ستبقى ملعوناً مهجوراً .. ومن يدري ربما يكون مصيرك يشبه مصير رحمة بنت سعيد عباس!!!

-رحمة!!!

-أجل! لا أحد يعرف عنك شيء.

-ويلاه.

فجلس جانباً يبكي كالاطفال بكاءً مرّاً صارخاً من ذلك المصير المنتظر. أنى لهذا الجسد النحيل الذي أضناه الكد والعمل حتى غدا نحيلاً هزيراً أن يتحمل جلدات تشقق الجسد وتجعله يتألم ويموت مائة مرة قبل أن يموت .. يموت مراراً حتى إذا لم يبق به شيء قالوا: مات. ما أجمل أن يموت الانسان هكذا فجأة وهو يمرح ويضحك دون ألم؟ والعراقيون أكثر الناس موتاً على هذه الشاكلة، سيارة ملغومة بثوان وتنتهي كل شيء، حتى قبل أن يعوا ماذا هناك يكونون قد انتقلوا الى العالم الآخر. أما هو فيتعذب ويذل وقد يرمونه بالقاذورات كما رموا علياً يوم مات.. وقد يلعنون .. وابوه قد يتبرى منه كما تبرى سعيد من علي.

جاء صوت الرجل الستيني:

-لا تستسلم.

-كيف؟

-أنكر .. قل لهم عابرة سبيل .. تائهة في فلاة الليل .. عطشى فسقيتها .. أي شيء .. وليكن أمك وأباك شهود على ذلك.

-ولكنهم مسكوها ومسكوني بأيديهم وأنا أحاول الهرب.

-هل رآك أحد منهم وأنت تضاجعها؟

-لا.

-اعلم يا ولدي يجب أن يراكم أربعة شهود أصحاب عدول حتى يحكم القاضي. فإذا انكرت والفتاة لم تقر لم يقر عليك الحد، بل لا يقام أصلاً لأن لا يوجد شهود على ذلك.

فجاء صوت من أقصى الحجرة:

-هاهاهاها .. أنت مجنون أيها الرجل، لو طبقوا تعاليم الاسلام كما أمر الله لما كان هذا حالنا، ولرضينا بها دولة، ولكنهم متطرفون مجرمون. هؤلاء يا سيدي مجموعة لصوص وسراق وخريجو سجون ولوطيون وزناة وأراذل القوم .. قسمًا بالله لم أعرف رجلاً منهم الا ومشكوك في أصله ومتهم في عرضه.

فجار تحسين كيف يجيب عليهم وعلى أقوالهم المتناقضة، فكلهم ذوو تجربة مع التنظيم ولكن معظمهم قضاياهم هينة أمام قضيته، فواحد متهم بالربا والرجل الستيني دخل السجن أثر عراك مع أحد رجال التنظيم ووصف التنظيم بأوصاف مقذعة، واثنان بتهمة تعاطي السجائر وسيجلدون

عشر جلدات ويخرجون، الا هو. الدنيا كلها مغلقة في وجهه. ابوه ترى ماذا قال عنه؟ مؤكد أنه يصب اللعنات ويتوعد أن يضربه بالعصا ويبرحه ضرباً كذلك اليوم الذي اكتشف فيه الخسائر الفادحة في الدكاكين. أمه تلطم وتولول وربما شقت ثوبها كما تفعل كلما ماجت الأيام بولدها وطرحته ليقف ندّاً لأبيه.

-٤٦-

كان يتابع الشمس وهي تغزو القرية فتمحق الظلام الذي جثا عليها أمداً طويلاً. لعله يرى ويتخيل التنظيم كهذه الشمس سيسطع على العالم ويبدد ظلمه وظلماته، ولعل خياله شطح أكثر من ذلك فحلّم بالتنظيم وراياته منصوبة فوق كل بحر وأرض لا تغرب هذه الشمس عنها كاملة. قوة عظيمة تجتاح العالم ولا يقف بوجه مركباته الجامحة ومدركاته النافرة كظبي، الصاهلة كخيل أصيل جامح. وقطع خيط التأمل صوت أبي قتادة:

-السلام على الأمير أبي عبد الله.

فقال بأناة ودون أن يستدير:

-وعليك السلام.

-أرى الأمير — أعزه الله — غارقاً في تأملاته وتفكره في الخالق العظيم — جل جلاله —.

-كنت أفكر في ما كتبه سيد قطب في (معالم في الطريق) وحلمه ببناء تلك الدولة المنشودة. هل تعلم يا أبا قتادة أن سيّداً كان يعد ذلك المشروع لبناء دولة، حتى وإن كانت

مستغربة أوّل الأمر ولكنها ستكون طبيعة ومتقبلة لو أن مشروعه نهض، يعني مثلها كمثّل الماركسية والشيوعية، أفكارٌ بدت مستغربة أوّل أمرها ولكن سرعان ما قادت دولاً كبرى وعظمى ومساحات شاسعات من الأرض. ولكن حلم سيد قطب وئد وحلت محله دكتاتورية العسكر، أقول لنفسي هل الدولة الإسلامية في الشام والعراق البذرة الأولى الناضجة لدولة سيد قطب المنشودة؟

فقال أبو قتادة وهو مهتم بشأن سيد قطب بعد أن قرأ عدداً غير قليلٍ من مؤلفاته:

-لكن هل فعلاً الدولة الآن هي مبنية على هيكله سيد قطب؟
فالتفت نحوه وقال باستغراب:

-ماذا تعني؟

-إن كنت تعني يا مولاي أن سيّداً هو منظر دولتنا من حيث لا ندري فالأمر فيه نظر ويحتاج الى توقف. لا أرى الدولة تتفق كثيراً مع منهجه وفكره، والدليل أن الإخوان المسلمين منبذون من قبل الدولة الإسلامية، وتلك الأفكار التي طرحها سيد قطب والبنا من قبل، مناسبة لفئة ما، وهم الإخوان وحماس والحركة الإسلامية في السودان والجماعة الإسلامية في باكستان والحزب الإسلامي العراقي بدرجة أقل، وغيرها من الحركات الجهادية التي استسقت من منهجه، أما الدولة الإسلامية فلا أراها اهتمت كثيراً بطرحه، فنحن أيضاً لنا منظرون ومفكرون، قد نأخذ ما يلائم فكرتنا ونطرح ما دونه، وبشكل عام لا أرى الدولة الإسلامية ومنظريها يعولون عليه كثيراً، كل كاتب يتعصب لفئة ويكرس قلمه في سبيلها دون غيرها لا يعول عليه. وسيد من هذا النموذج الذي يتعصب

لفكرة هو خالقها ومنظرها ومقعداها في سبيل خدمة قوم
أرادهم دون غيرهم.

أبو عبد الله يسمع كلامه مطرَقاً مفكراً. فقال أبو قتادة:

هل أنت ترى أن الدولة قائمة على تنظير سيد قطب؟

-لا لا .. ولكنَّ سيِّداً له معنى آخر في نفوسنا.. سيد رمز
البطولة والشجاعة والحرية المذبوحة، الحرية المنشودة التي
نتوق إليها هو كان رمزها. أيهما أفضل لنا: حرية تعلوها ذلة
أم شهادة تتفجر عزة؟ حياة هادئة تحت حكم الطغاة والبلغاة
والغزاة أم حياة السجون والتعذيب والتكيل في سبيل التحرير
من قيدهم؟ الأولى راحة الجسد ومصرع الكرامة والغيرة
والروح، والثانية راحة الروح التي تتجلى فيها العزة وإنْ انهك
الجسد. أيهما تفضل يا أبا قتادة؟

-الأولى على ما فيها من ضنكٍ وألمٍ.. طريق الله ليس بالهين
ولذلك نحن هنا.

-أتذكر تلك الأيام .. يوم كنا نقبع في (أبو غريب) .. حتى إذا
عدنا من حفلة التعذيب وأجسادنا منهكة تنن وتند دماً وفوق
ذلك ظلمات السجن القاتمة أنشدنا كلنا بصوت واحد وفي
طياته تتراءى لنا صور الحرية ونحن ننشد أبيات سيد قطب:

أخي أنت حرٌّ وراء السدود	أخي أنت حرٌّ بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصما	فماذا يضيرك كيد العبيد
أخي ستبید جيوش الظلام	ويشرق في الكون فجر جديد
فأطلق لروحك إشراقها	ترى الفجر يرمقنا من بعيد
أخي قد أصابك سهم ذليل	و غدرا رماك ذراعٌ كليل

سَتَبْتَرُ يَوْمًا فَصَبِرَ جَمِيلٌ وَ لَمْ يَدَمْ بَعْدُ عَرِينُ الْأَسْوَدِ
أَخِي قَدْ سَرَتْ مِنْ يَدَيْكَ الدَّمَاءُ أَبَتْ أَنْ تُشَلَّ بِقَيْدِ الْإِمَاءِ
سَتَرْفَعُ قُرْبَانَهَا ... لِلسَّمَاءِ مَخْضِبَةً بِدَمَاءِ الْخُلُودِ
سَأَتَأْتُرُ لَكِنْ لِرَبِّ وَ دِينٍ وَ أَمْضِي عَلَى سَنْتِي فِي يَقِينٍ
فَإِمَّا إِلَى النِّصْرِ فَوْقَ الْأَنَامِ وَإِمَّا إِلَى اللَّهِ فِي الْخَالِدِينَ
فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ عَادَ إِلَى جَوِ الْقَرْيَةِ تَارِكًا الْقَصِيدَةَ
وَسِيدًا:

-ماذا هناك؟

-شيخ خليل، تكرر اسمه مجددًا وعليه شبه وعلامات استفهام،
بل هو تحت المراقبة منذ وقتٍ ونشك أنه يخطط لحركةٍ ما .

-حركة ما؟ ماذا تعني؟ من هو أصلاً؟

-هذا شيخ يدرّس الفقه في المدرسة الدينية في تكريت، أخوه
تم اعدامه من قبل تنظيم القاعدة في عام ٧٠٠٢ ويبدو أن
أخاه —الذي كان خطيباً في أطراف تكريت— كان عميلاً
ودعا إلى قتال تنظيم القاعدة باعتبارهم خوارج ومارقة . وتم
تصفيته في ذلك الوقت . وأخوه ملا خليل سائر على نهجه
ولكن بتكتّم وسريّة تامّة . راقبنا تحركاته ولم نجد شيئاً قاطعاً
ضده وكذلك لم نبرئه تمام البراءة .

-كيف؟

-له لقاءات مع طلبة من جامعة تكريت الذين لم يجدوا
سبيلاً للخروج من تكريت، أو لا مأوى لهم، معظمهم شباب
من ديالى والموصل والأنبار، نزح اهلهم في مخيم، فالبقاء
في الأقسام افضل وآمن من طريق طويل محفوف بالموت .

ولكن بالمقابل هؤلاء الطلبة لم ينضموا الى التنظيم، علما أنهم يقفون في الصف الأول في الصلاة ولم يخلقوا لحيمة. أخشى أن يبيت ملا خليل لنا ثورةً مدمرةً لا نستطيع قمعها إذا أضرمت.

بقي أبو عبد الله يعث بلحيته المدببة وهو يستمع الى أبي قتادة الذي تابع:

-كما أن هذا الملا خليل جاء الى القرية قبل فترة.

فقال أبو عبد الله فرعاً:

-هنا؟!

-نعم.

-وماذا يريد؟

-أجود!! يسال عن أجود علي عباس، فأخبروه أنه نزح الى سامراء.

-أمره لا يخلو، لا بدَّ أنه ينطوي على فتنة هوجاء آتية، وإن لم نتداركها فستحرقنا، خاصة مع هذا الملعون أجود.. صحيح أين هو؟

-في السجن.

-لم؟

-يتهموه بقضايا ارهابية. وهناك أمر آخر... قبض على تحسين صاحب الدكان متلبساً بالزنا.

-زنا مرة واحدة في القرية!!

-اي والله. ماذا نفعل؟

-ماذا تفعلون؟ تقيمون حدود الله وتحاكمونه.

-سمعاً وطاعةً.

-٤٧-

إنه مرهقٌ ضجرٌ. جالس يتأمل ذلك الحقل بفتور، واسعار الحنطة التي غدت زهيدةً لا تؤتي أجور التعب والشقاء وأجور العمال. الآن سعر طن الحنطة هو مائة وثمانون ألفاً بعد أن كان ثمانمائة وخمسين ألفاً، وفوق هذا لا تباع الى التجار الا بعد شقاء آخر لا يقل عن شقاء زرعها وسقايتها. مئة وثمانون ألفاً ماذا يفعل بها؟ هذا المبلغ لا يسد أجور المصاريف والفلاحين العاملين. لحيته الآن طويلة غزاها الشيب والهم في أن، يكاد يخسر كل شيء.. حتى القرية غدت مصدر رعب يؤرق الناس، وشر مستطير يُخشى شره. ما الذي ينتظرُ يا سعيد؟ التنظيم يكشر عن أنيابه ويفرض أتاوات وضرائب وخاوات ويسميها أسماءً أخرى، فتارة زكاة وتارة صدقةً وضريبةً تارة أخرى حتى لم يعد هناك عمل مربح، يعملون ليسدوا تلك الأتاوات المثقلة المدمرة لهم. التنظيم يفرض عليهم ما لا يطيقونه وقبل أن يشتدَّ عودهم ويعوضون ما خسروه في الحرب، ولو قالوا لهم خففوا عنا. قالوا لهم: نحن نقاتل ونجاهد في سبيل اسعادكم ودولتكم وأنتم تبخلون بأموالكم وثمركم؟ نحن نضحى بالدماء وأنتم تبخسون فينا المال. هو يملك مدخرات وأموالاً طائلة وأراضي واسعة وولده معهم فلا يقسون حتى يلبثون لأجل أسامة فلا يهتمه أن يخسر موسم أو موسمين ولكن عامة الناس أنى لها الدفع؟ وقد تدفع مرة أو مرتين ولكن سرعان ما ستمل وتضجر. قام

يذرع الطريق محاذياً الحقل وقد بدت مشيته المتوئدة كسيرة متعبة والأشهر القلائل الخالية كانت كفيلاً أن تنهكه حدَّ بلوغ هذا المبلغ ودق أبواب الشيخوخة المبكرة حتى لتراه عجزاً قد أخذت منه الأيام كل غال ونفيس.. وهل الذي خسره قليل والذي جرى عليه؟ عائلةً أبيه كُلهَا ضائعة وهو الذي حمل همهم، فعائلة علي لا يعلم أين انتهى بهم المطاف وقد خسروا واحداً من أفرادها.. عائلة سالم خسرت وحيدها علياً أمام عينيه ولم يستطيع أن يرد ولو انكاراً. وفوق هذا قلبه يوحى إليه دائماً بالحدز والوجل، يشعر أن جنود أبي عبد الله يحصون عليه الحركات ويرقبون النظرات واللفقات، يرى نفسه يتحرك وسط دائرة مليئة بالترصد والتوجس والتجسس. وهو شأن الضعفاء أمثاله الذين سلموا أنفسهم للهمج الهامج الذين لم يعرفوا إلا السجون المظلمة والمنافي البعيدة والتصعلك وأتارة القلاقل والبلايل. واستولى على قلبه الخوف من القادم. المستقبل أيها القادم المخيف هلا هونت تلك الزوابع التي تسبقك؟ وقطع سكوته مشهد أبي حازم وهو آت نحوه وقد بدا شكله مثيراً للضحك أشبه ما يكون بمهرج؛ فجثته الضخمة المتكورة ولحيته غير المشذبة زادت تكوره، وفوق ذاك يحمل بندقيته مستعداً للحرب مما أضفى عليه سمت مهرج أو ممثل مسرحي لا مقاتل.

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام.. أهلاً بأبي حازم.

-هل سمعت الخبر الجديد؟

-لا.

-تحسين مسكوه متلبساً بالزنا.

-تحسين!!!

-أجل وسيجلدونه على رؤوس الناس.

-لا حول ولا قوة الا بالله.

-وهل تعلم من الذي بلغ عليه وكشفه؟

-من؟

-أسامة ولدك.

-أسامة! هو صديقه وقرينه.

-هذا الذي حصل شيخ سعيد. وأنا خائف من ولدك.

-ولمَ الخوف؟

-ينظر إلي نظرات زائغة تقطر شرًا ووعيدًا. أنا خائف منه،
ابنك لا يرحم. لم ينسَ الجلسة عندما اتهمني بأكل الربا
وأغلظ القول فأجلسته جلسة عشائر..

فقاطعه سعيد بنبرة ذات مغزى قائلاً:

-اتهمك بأكل الربا..!

ففطن أبو حازم لمأربه:

-لقد تاب الله عليّ وهو التواب الرحيم، فلم يصرّ على هذه
التهمة؟ أنا الآن مقيم للصلاة آت للزكاة، صائم رمضان،
ومجاهد في سبيل الله. تحدث معه يا شيخ سعيد.

فقال سعيد وهو يرمق الأفق البعيد:

-سأتحدث معه.

فشكره أبو حازم وراح يتهادى وكأنه عجل سمين لضخامته.

ماذا تفعل يا أسامة؟ ألهذا الحد بلغ تطرفك؟ تضحي برفيق
عمرك وترميه هكذا دون هوادة أو مراعاة للصحة القديمة
والليالي التي جلستم في دكانه ساهرين. ماذا حصل لك يا
بني؟

وسرعان ما تحدرت دمعة على خده ضاعفت في لحيته الكثة
وراح يسير الى بيته وهو يفكر فيما آل له أسامة من تطرف..
هم الآن في قعر القاع.. طائرة مجنونة وبصاروخ واحد وتتهي
كل شيء.. هجومٌ عاتٍ من الجيش يستغرق أسبوعاً وسيُنهى
الأمر تَمَاماً. نظر إلى السماء بقلب يائس مشبوب بقنوط
فرأى غمامة تظلل القرية، فقال: يا رب، أين المفر؟ عدوُّ
أماننا، وعدو يسكن عندنا، وعدو فوقنا، وكلهم ينتظر رأسنا
ليحزوه..! الفرج يا ربي.

كان أسامة ينظف سلاحه عندما دخل سعيد وهو مكفهر
الوجه.

-ما لك يا أبت؟!

-هل صحيح ما قال أبو حازم؟

-وماذا قال هذا المنحوس؟

-أنت من نصب كميناً لتحسين وقبض عليه؟

فقال ببرود:

-صحيح.

-وتقولها هكذا؟

فقال منفعلاً:

-كيف أقولها إذن؟

-هو صاحبك ورفيق دربك، أنسيت؟

-هذا الدين لا يستقيم أمره الا بصرامة لا يداخلها واسطة أو محسوبية .

-هو القريب والصديق، ألم تقم لها وزنا؟

فقال بانفعال:

- (إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلُكُمْ ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَآيَمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) هذا نصٌ صريح من البخاري، فإذا تفاضيتُ أنا عن فعل تحسين لأنه رفيقي وغيري سكت عن منكر لأن قريبه من فعله فماذا يبقى فينا من مظاهر الاسلام؟ لننضوي تحت لواء الدولة العراقية ولا حرب ولا صخب ولا قتلى ولا سجون، بل نتصافى معهم ونجلس على طاولةٍ واحدة.

-أنت شاهدٌ واحد، اين الشهود الثلاثة البقية؟

-يوجد عشرات الشهود .

-رأوهم رأي العين؟

-رأوها خارجة من عنده .. والقاضي هو من يحكم.

فقال سعيد باستهزاء:

-قاض يحكم!! أنت تهزأ بي.. أنت تعلم أن لا حكم للقاضي الا ما يحكمه أبو عبد الله .. وهو تبع له يتلقى أحكامه منه .

-بل هو قاض يحكم بالعدل!

فقال ساخرًا :

-قاضيكم سفيه وجاهل، لا يفقه شيئًا.

-لا تتثقل القول يا أبت.. صن لسانك والا أوردك المهالك.

فقال بخيبة :

-حتى أنا! تفعلها واللّه.. لا بارك الله فيك من ولدٍ عاق.

-تريدني أن أطيعك فيما يغضب الله! غضبك هين ولكن غضبه قاسٍ لا أتحمّله.

-الويل والثبور لك.

-بل الويل لك وانت تزين لي المعصية وتفضلها على الطاعة، لا طاعة لك في معصية الخالق والأمير.

-شهور وسنرى دولتكم الى أين ستصل.

-متمرد أيضًا.

-إذا كانت الدولة تحوي نماذج مثلك فلن تعيش.. لأنها دولة سقيمة عقيمة. الدول يا ولدي لا تقام على الجور والظلم ومحق الآخر. دولة بلا تعايش لا يعول عليها، إن لم تسمع فيها دق الكنائس وأذان المساجد فهي حركة عابرة لا دولة وطيّدة.

-أبتاه، احتفظ بفلسفتك هذه لنفسك علها تتفعلك.. ولا تنس أن هذه الدولة التي «لا يعول عليها» هي من أثرتك بعد أن كدت تكون فقيرًا. أم هو المال المعبود والمقدس!

-لا بارك الله بك وبتربّيتي.

تركه وخرج. سعيد يصب لعنته على ولده وعلى تربّيته

ال«سز». كانت في تلك الأشهر قد اتسعت الشقة بين الأب والأبن وزاد تنافرهما من بعض، ولكن الشيء المهم في هذا التغيير أن أسامة لم يعد يقيم لأبيه وزناً أو طاعة، فما وافق الدولة فهو الحق الذي لا يلبسه باطل، والصواب الذي لا يشوبه خطأ. ولكن سعيداً العاشق الجماع للمال لم يرِضَه طاعة ولده العمياء والانجرار وراء التنظيم بلا هدى.. يعلم أن ضربة جوية كفيلة بهدم القرية ومصدر رزقه، بل تصنيفهم كإرهابيين، أو نازحين يقطنون المخيمات العارية حتى من الكرامة. ولكن المخيمات والذلة فيها أهون من تهمة (إرهابي) أو (بعثي).

-٤٨-

بدأت شمس فبراير دافئة وديعة وسماؤها الملبدة بالغيوم قبل اليوم ولأجله أرجئت محاكمة تحسين. اليوم سيحاكم تحسين بعد يومين من إلقاء القبض عليه بتهمة الزنا، الحكم قد بتَّ به أبو عبد الله مسبقاً وأما إجراءات القاضي وجلسته ومحكمته فمحض شكل، لتعتبر الناس وتأتى عن الخطايا. جلس القاضي في حديقة الجامع الكبير الرحبة، وحوله الناس بدأت تتجمع للعبرة كما قال أبو قتادة علماً أن طلحة انتابه شعور بعد الارتياح لمحاكمة تحسين، خاصة وأن الناس بدأت تمجهم وترفض مبدأهم ولكن أبا قتادة رفض هذا القول رفضاً قاطعاً مشبوحاً بسخرية من ضعف الأهالي. وقال له: ما تفكر به محض افراط في الظنون ومبالغة في الحذر. وجاء القاضي مسدل اللحية، قصير الثوب، معتجراً عمامة سوداء عالية لتبئى بمكانته، وجلس خلف طاولة موضوعة

لهذا الشأن. وجيء بتحسين مصفداً تعلوه ذلة وكرب. بدا كل شيء له يشبه ذلك اليوم؛ نفس التفاصيل ونفس الوجوه إلا أن هذه المرة تجمهر الناس بكثافة غير اعتيادية.. هل سيحصل مثل ما حصل لعلي ويجلدونه أمامهم؟ وقد يموت؟ وأتت غنية ملففة بعبائه سوداء لا يظهر منها شيء ووقفاً أمام القاضي. نظر تحسين إليها في إشفاق، تذكر أول مرة رآها في دكانه وكيف كانت بينهم لقاءات حميمة يتخللها غزل وقبالات مسروقة خاصة عندما تأتي وقت الظهيرة، وما أن شاع أمر خسارة دكاكين تحسين وجاء أبوه غاضباً وهرب تحسين الى الحقول حتى اختفت غنية هي الأخرى فشكوا أنها هي التي كانت تسرقه خلصة عندما تسحر تحسين بغوايتها، ولكنها عادت نهاية العام عندما ضاقت بها السبل معذرة متأسفة بعد أن انكرت أمر السرقة ولكنها قالت تزوجت زيجة جبرها عليها أبوها، ثم هربت من ذلك الرجل الذي كان يضربها فعادت لخيم أهلها والذين يقطنون الآن في حجرة من الآجر غير بعيدة عن القرية، اقتنع وكان قد بلغ من التعطش للنساء منتهاه، فلم يعد يرى نسوة إلا نادرا وهن مغطيات الوجوه. وبدأ يلتقي معها خلصة بعد أن ينام أبوه في الحديقة.

قال القاضي:

-أنت المدعو (تحسين عبد الله سعدان)؟

-نعم.

-وانت (غنية عبد القادر أحمد).

فقالت وصوتها كأنه آتٍ من قعر قاع عميق:

-نعم.

-بِسْمِ اللَّهِ نَبْدَأُ.. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ومن هذه الفواحش والجرائم الأخلاقية هي الزنا، وقد قال الله تعالى (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) فَأَجْزَلَ الْعِقَابِ الْحَقَّ لِمُرْتَكِبِيهِ، فَقَالَ: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) وقد عثر جند الخلافة على المتهمين الواقفين أمام المحكمة متلبسين بجريمة الزنا علنا، وبعد اقرار المتهمين بهذه الجريمة وثبوت أن المتهم (تحسين عبد الله سعدان) غير محسن قررنا أن يُجلد مئة جلدة أمام المؤمنين وفورا، وبعد أن ثبت أن المتهمة (غنية عبد القادر أحمد) متزوجة وعلى ذمة رجل..

فقاطعته صارخة:

-أنا مطلقة..

فأكمل:

-قررنا أن ترجم حتى الموت!!

فعلت همهمات وهمسات وتكبيرات خفيضة. فقال تحسين:

-أنا أعترض يا حضرة القاضي.

-لا اعترض.

-عليك أن تسمعني.

فقال متأففاً:

-قل ما عندك.

فصمت الكل مرهفين السمع. فقال:

-أنا لم أزن.

فعمت فوضى بين الناس وحديث فيما بينهم.

فقال القاضي:

-سكوت..! الكل يسكت. قل يا تحسين كيف لم تزن ومكتوب
عندي أنك أقرت بهذه التهمة؟

فنظر أسامة وطلحة وأبو قتادة باهتمام وكانوا يقفون جنب
بعض.

فقال تحسين متشبثاً بأمل لاح في الأفق:

-سيدي أنا بريء، وهذه المرأة مقطوعة وأهلها عالة يسألون
الناس، فنجد عليها ما يجود الكرام من خيرهم، فلما أتتني
فجراً داهمها جنودكم ولفقوا لنا تهمة الزنا وأجبرونا على
الاقرار ولا يوجد شاهد واحد فضلاً عن شهود أربع.

فماجت الأصوات المتجمهرة في الحديقة. فنظر أبو قتادة الى
القاضي بترقب يريد أن ينظر القاضي إليه ليشير بالحكم
الذي قضوا به مسبقاً لكان القاضي كان مرتبكا كيف يتجاوز
هذه المحنة ويثبت عدالة قضاء الدولة الإسلامية؟

فصرخ تحسين:

-سيدي أين الشهود؟

فجاء صوت أبو قتادة:

-هنا!

اشربأت الأعناق نحوه بتلهف، فأمر أبو قتادة أسامة وطلحة وأثنى آخرين بالخروج للادلء بشهادتهم. فخرجوا وشهدوا، ولكن أسامة ارتبك فقال: لم أرهم رأي العين ولكن سمعت صوتهم. وهم القاضي بالنطق بالحكم وأسامة عاد الى مكانه كسيفاً مستاءً، وقبل أن ينطق جاء صوت آخر:

-هذا الحكم باطل!

وإذا بالشيخ خليل واقف وسط الحشود:

-الشهود ليسوا كاملين، هناك شاهد لم يرهم بعينه، فلا يعتد به، إذن الشهود ثلاثة فلا حكم عليهم.

فقال القاضي:

-بل الحكم واقع وسينفذ.

-أنت تحتال على النصوص وتلوي أعناقها في سبيل تنفيذ أوامر سيدك!!

فعاد الناس للتهامس فيما بينهم وتوجس أبو قتادة من الآتي الذي لن يكون خيراً عليهم.. وقبل أن يفكر ويستوعب اعتراض الشيخ خليل.. جاءت صرخة مدوية منه:

-الحكم باطل.

فجاءت أصوات كثيفة من بين الجماهير تنادي:

-باطل.. باطل.. باطل ... حكم الدولة باطل.

وبدا أن هذه الجموع متفقة فيما بينها وليس مصادفة، فالهتافات موحدة منظمة، ومعظمهم شباب يهتفون خلف الشيخ خليل، هل يعقل أن الملا خليل قد نظم حركة احتجاجية ضد ممارسات التنظيم وقوانينه الجائرة؟ ومتى رتب هذه الجموع؟

كانت الجماهير قد بدأت تتدافع غاضبة تهتف وتتادي ببطلان أحكام الدولة الإسلامية وتتقدم نحو طاولة القاضي وهي تهتف : باطل باطل. تراجع الجنود المحيطون بغنية وتحسين حتى انحصروا أمام الطاولة والجموع بدأت تزداد وتتوافد نحو المسجد من كل حذب وصوب شباباً وشيباً ونساءً، كل الفروع المؤدية الى الشارع القابع فيه الجامع الكبير هائجة فائرة كبحر هادر.. وكلها تتوافد نحو الجامع حتى أن الشارع ضاق بهم وبهتافاتهم الفائرة. أما حديقة المسجد فقد غدت عبارة عن يوم محشر. وظن أبو قتادة وهو يعتلي حجرا أن القاضي ستأكله الجموع بهتافاتهما وأن جنوده القلائل عاجزون عن دفع شرهم والحفاظ على تحسين فأخرج مسدسه وضرب رصاصة في الهواء فنظروا إليه. فقال بصوت غاضب:

-تفرقوا وإلا أفرغنا الرصاص عليكم.

فزادت الجموع هياجاً وتقدمت نحوه مهاجمة كالسيل العرم تدمر كل شيءٍ وأخذين سلاح رجاله. ولم تمض دقائق عشر حتى كان أبو قتادة ورهطه خارج الجامع بلا سلاح أو عتاد.. أصرَّ الشيخ خليل على إطلاقهم. اعترض بعض الطلبة الواقفين معه:

-لنتخذهم رهائن يا شيخ.

-لا، إنما نحن مصلحون لا مسلحون وقطاع طرق.

-سيهجمون علينا.

-لا.. الكلمة والمظاهرة السلمية خير سلاح نواجه به الطغاة.

كان موقف الملا خليل صارماً غير قابل للنقاش، سلمية لا سلاح فيها. فقط هتاف. وخرجت الجموع الهادرة من المسجد

تزيد وترعد وتزمر وتندثر بزوابع إن لم يعفُ عن تحسين وأن يحسن التنظيم معاملتهم بكرامة افتقدوها .

كانت الشعارات ثابتة وكما حددها الشيخ خليل والمطالب قد اعددها في حال قرر التنظيم مفاوضتهم والجنح الى السلم، بعض الطلبة رفض أن يبقوا بلا سلاح لأن أبا قتادة ورهطه معرووفون بعنجهية وصلابة تأبى الرضوخ أو الانصياع لضغوط الاحتجاجات.. بل سيمضون في حماقتهم وهمجيتهم الهائجة ويرتكبون مجزرة أو شيئاً قريباً من المجزرة، ولكن الشيخ خليل قال لن يهاجمونا ونحن عزل ومعنا نساء وأطفال .

تدفق جنود التنظيم بكثافة وهم مدججون بالسلاح ولكن وجوههم تنطق بما تكن نفوسهم من توجس وخوف، حاولوا الوقوف بوجه المظاهرات المحتجة وحصرها ومنعها من التقدم وذرع المدينة ولكنهم فشلوا وأخذوا يسكرون نحو مبنى مجلس محافظة صلاح الدين وتقدمهم هتافات وأصوات ثائرة ابت الظلم، وكلما مروا بشارع أو زقاق تنامي عددهم، وهذه الأعداد تسري في نفوسهم رعشات الذل والظلم فهم يحاولون استعادة ما سلبه التنظيم منهم. يريدون أن يقولوا للعالم: إننا رافضون لداعش وارهابها، وإننا تكبدنا خسائر من الدماء والأموال ما لا يتصوره عقل. هذه هي شوارع تكريت تضطرم بالثورة.. ها هي تأبى الظلم.. ها هي تشور ضد الاستبداد القائم.. أوليس التنظيم استبداداً؟ ألم يروض الحريات ويملاً السجون بمخالفيه ويعدم ويمحق خصومه؟ ألم يكن هو المسؤول عن جريمة العصر.. (سبايكر)؟ ألم يكن هو الذي لوث دجلة وغير لونها الى أحمر قان؟ ألم يسفك ويفتك بالرجال؟ ألم يعد الرافضون مرتدين يجب قتلهم؟ ولكن مهما احلوك الظلام فهناك صبح، ومهما طال الظلم سيأتي من يحييها .. ومهما

غرق الناس في الجبن والخوف سيأتي يوم يزول ذلك الخوف
ويحل مكانه شيء تواق للحرية.

-٩٤-

دخل مكسوراً مذلولاً ليجد ابا عبد الله وقد تملكه الغضب
وغدا بركاناً ثائراً. نظر إليه بغضبٍ:

-أتعلم ماذا يعني الآن الذي يجري في الشوارع؟ أتعلم أن
ال خليفة نفسه اتصل بي وقد سمع بهذه التخبط وهذه الثورة؟
(ثم صارخاً) ماذا يجري؟

فتلثم أبو قتادة وتردد وشعر أن الكلام تأمر مع المحتجين فلم
يعد يخرج من فمه. فصرح أبو عبد الله:

-ما لك لا تحرك ساكناً؟ مجموعة من الطلبة والصعاليك
يجردونك من سلاحك ويخرجونك هكذا حتى عمامتك
منزوعة؟

-سيدي، كان كثر، وال جماهير كانت جامحة، هناك مؤامرة من
قبل الشيخ خليل وهو سبب هذه المظاهرات.

-وماذا تفعل أنت وجندك؟ هناك حكم يريد أن يطبق لم لم
تأخذ حذرك؟ لم أخذتك العزة فتكبرت وهذا وبال غرورك
والله.

فقال أبو قتادة:

-سيدي، ساعات وأكفر عن خطأي ونستعيد المدينة بحول
الله.

فقال أبو عبد الله بتوتر:

-لا.. أنت لا.. ستفسد كل شيء.. اليوم يجب أن ينتهي الموضوع

كله، كيف ننهيه، ألهم طلبات؟

-ينادون بالاصلاح.

فقال بصوت عالٍ:

-ونحن ماذا؟ السنا مصلحين؟ ألم نأت لننقذهم من حكم الكفرة والمرتدين، ولكن هذا هو الانسان؛ آفته النسيان، وسنذكرهم ماذا فعل بهم الجيش الكافر يوم قرروا المطالبة بحقوقهم.

-ماذا سنفعل الآن؟

فقال وقد زادت حدة غضبه:

-أهل العراق أهل شقاق ونفاق ومعصية، لا يستقيمون الا بسيف بتار، لم يرضوا بولاية صحابيٍّ وهم العدول الهداة، فهل يرضوا بنا؟ لقد استعملنا معهم اللين فما طاعوا ولا استكانوا، وها هم يشقون عصى الطاعة علنا، ويعلنون الخروج على أمير المؤمنين أبي بكر البغدادي، فلم يبق لنا الا القوة، فمن لم تصلحه الملاينة أصلحته القسوة!!

وانطلقت سيارات سود تشبه قلوبهم، ضخمة تشبه حقدهم، مسرعات تشبه شهوة الفتك المستولية عليهم. كان السيارات كثيرة فقد استنفرت قرية «لوعة عباس» وما حولها من القرى لغرض قمع تلك الاحتجاجات التي تهدد وجودهم. كان أبو عبد الله خائفاً، يريد أن ينهي هذه الثورة مهما كلفه قبل أن يسقط مجده في هوة الهزيمة. لو لم يفلح في انهاءها في يومها قد يتطور الأمر ويصل الى حرب شوارع او مواجهات عنيفة لا قبل لهم في تفريغ جيش مرابط على قتال الجيش لقتال الأهالي. إن لم ينجح أبو عبد الله في فكها قد يقلبه

الخليفة من ولاية صلاح الدين ويحطم حلمه في فتح بغداد وسامراء والولاية على احدى العاصمتين العباسيتين. لما توغل في المدينة جاءت الأصوات هاتفة ضدهم: باطل باطل. ما أبشع ذلك الهتاف وهو يشعر أنه يهز أركان عرشه؟ كان يريد سلطته أن تتسع فإذا بهذه المظاهرات تضيقها، يريد أن يبسطها فإذا بها تغلقها وقد لا يفتح أبداً .

كانت الحشود قد سدت الشوارع وتخطت اعدادها السبعة آلاف محتج بين رجل وامرأة وأطفال رفضوا الرضوخ والخنوع للذلة. وكلما تكاثروا علت همتهم وزادوا هتافاً وتصفيقاً وغناءً في أحياءٍ آخر —والغناء محرم— فكم كان يغيظهم هذا الغناء ويتمنون لو مسكوا المغني فجلدوه وربما قتلوه، ولكن هيهات، الجمع غفير وأي تهور قد يحيل التظاهرات الى نزال وقتال. وصلت قوات أبي عبد الله الكبيرة ونزلت شاكية السلاح مستعدة للقتال، كانوا ملثمين بلثام أسود فلم تبدُ منهم الا الأعين، وسياراتهم مستعدة واقفة للهجوم.

نزل أبو عبد الله وكان مرتدياً عمامة سوداء، فوقف كل الجند استعداداً. فقال أبو عبد الله لأبي قتادة:

-كم عددهم؟

-سيدي، الجند يقولون أنهم تخطو الخمسة آلاف.

فقال بذهول:

-خمسة آلاف؟! أتعرف ما معنى هذا العدد؟ هؤلاء يسقطون دولة لا يثيرون بلبلة فحسب! اذهب وليخرج لك كبيرهم وقل له عليه الاستسلام فوراً دون تفاوض!

-سيدي..

فقاطعه بغضب:

-قلت فوراً .

وتقدم نحوهم ومسك بالسماعة ليسمعوا ما يريد :

-من كبيركم فليخرج لي ..

فهدأوا وسرت بينهم همسات وجلبية . فخرج الملا خليل . فقال
أبو قتادة :

-أنت كبيرهم؟

-أنا المتحدث باسمهم ولست كبيرهم ولا استعلي عليهم فر
إرادة العلو على الخلق ظلم، لأن الناس من جنس واحد كما
يقول شيخ الاسلام ابن تيمية .

فقال أبو قتادة بلهجة أمرة :

-عليكم إنهاء احتجاجكم هذا، وإلا سنستعمل القوة في فضه،
وأنت المتحدث باسمهم، هداك الله، احقن دماءهم أفضل
وأسلم .

-لا عودة الا بعد تحقيق المطالب التي خرجنا من اجلها .

-قل .. ما هي مطالبكم .

-أولاً : الكف عن الظلم الذي تمارسونه ضدنا، إلغاء حكم جلد
المدخنين والإزام تطويل اللحى وملاحقة ذوي العساكر، فإن
هذا ظلمٌ وتعسير، والله سكت عن أشياء رحمة لكم من غير
نسيان؛ فلمَ تبحثون عنها وتشددون ما هو يسير ظلماً وجوراً؟
هذه أفعال الله لم يحاسبنا عليها فلم تحاسبونا أنتم؟ ثانياً :
التساهل في اراقة الدماء هو من شيمكم، ونحن نرفضه ولا
نرتضيه، فعلى التنظيم تشكيل لجنة من اهل المدينة ترى ما

يحكمه القاضي ويمر عليها قبل أن يسري مفعوله. ثالثاً:
نطالب بفتح الحصار المضروب علينا، ليس الحصار بمعناه
الذي تعرفونه، بل الحصار الفكري الذي تطوقونه من حرق
الكتب ومنع التواصل مع المدن الأخرى. قل للذين فوقك أننا
لن نتراجع دون تحقيق هذه الطالب ومهما كلفنا الأمر.

عاد أبو قتادة الى أبي عبد الله الواقف في الشارع المحاذي
لتجمعهم وأخبره. فقال أبو عبد الله:

-اضربهم بالنار.

فقال مدهوشاً مصعوقاً:

-ماذا؟

فقال بصوت عالٍ:

-اضربهم بالنار، افتح الرصاص الحي، أريد رؤوس هذه
الاحتجاجات وتحسين والبنيت التي معه.

وقف أبو قتادة وصرخ بالجند:

-استعداد... تحضر.. الله أكبر اطلق.

عندما قال (استعد) سرت في نفوسهم شهوة السفك التي خار
اتقادها منذ زمن بفعل سكوت الأهالي. وعندما قال (تحضر)
زينت لهم المشهد. وعندما قال (الله أكبر) حسبوه أمراً إلهياً
وبه يحوزون رضا الله وجنته. وعندما قال (اطلق) تجسدت
الحوار العين والجنان وارفة الظلال في ذبح أولئك. وانطلقت
الرصاصات الذابحة من كل اتجاه، ولم تجد تلك الرصاصات
ملاذاً ومثوى سوى الرؤوس العارية والصدور والأذرع فسقط
من سقط قتيلاً. أما من سقط جريحاً فقد دعسته الأرجل

وركلته الأقدام دون عمد، والأطفال هم الآخرون الذي صاروا همًّا وصراخ النساء وعويلهن الذي زاد المشهد حزناً، والرصاص يتساقط عليهم كزخات المطر ويردي بهم قتلاً. فانتشروا في الفروع فارين ولائذين بأقرب بيت أو أرض. وجنود التنظيم ماضون في رمي الرصاص دون أن يستشعروا بالذنب، بل ماضون لتجفيف ماء الحياة في عروقهم، هم الأعداء على سلميتهم، ألم يطالبوا بالتححرر من الدولة المؤمنة والعودة لظل الدولة الكافرة؟ بتلك الفكرة المجنونة المتهورة يستمررون برمي النار، لا مهرب من هنا، أينما ولوا وجههم وجدوا طائفة منهم ترمي دون التفريق بين رجل أو امرأة أو طفل، حتى غدت الجثث المتكدسة تسد الطرق. أما الباقيون فقد هربوا ما وسعهم الهروب ومواجهة رجال التنظيم بالحجارة والعراك والمطاردة التي ملأت الشوارع. ولم يقف الأمر على الرصاص الحي الذي أطاح بذلك الاحتجاج وذاك الجمع الهائج، بل رموهم بالقنابل لتفجر عليهم.



عند الساعة العاشرة مساءً كان أبو عبد الله واقفاً عند بوابة الجامع الكبير وجيء بالشيخ خليل مكبلاً هو ومجموعة من الطلبة عددهم تجاوز العشرة، فأجلسوهم أمامه وقد بدا وجه الملا خليل أنه يشخب دماً والطلبة الذين معه كذلك.

نظر إليهم أبو عبد الله بفتور. فقال:

-أخيراً يا ملا خليل التقينا! سمعتُ عنك مراراً ولكن مع الأسف التقينا في فرصة غير مناسبة.

فقال الملا خليل بصراحة:

-لا جمعنا الله لا في دنيا ولا آخرة.

-أبلغ اخواننا الذين سبقونا بالايمان سلامنا، وقل لهم أن الدولة الاسلامية باقية وتتمدد على رغم أنف الكفرة والمرتدين.

-متأسف، فطريقي ليس الى جهنم!

فأشار الى رجاله بغضب أن ينهوا امرهم. كان يقف فوق الملا خليل رجل مسلح وملثم وفوق كل واحد من الطلبة مثلم شاك عليه بندقيته. فمسك المثلم الذي يقف على رأس الملا خليل برقبتة بيساره، وبيمينه التي يمسك بها سكيناً وذبحه كما يذبح الجزار الخروف وتركه يرفض أما الطلبة الذين لم يسعفهم الوقت حتى يشاهدوا الشيخ وهو يدافع الموت ويتألم؛ إذ أطلق كل ملثم رصاصة على رأس طالب منهم وأرداهم قتلى. أحتز رأس الشيخ وعُلق على باب الجامع الكبير ليكون عبرة لغيره. صُور رأسه وأرسل الى الخليفة محمولة على نبأ النصر المبين.

-٥٠-

(السنة والشيعية ليسا دينين، بل مذهبان لدين واحد فرقت بينهما السياسة). استحضر أسامة مقولة العالم الشيعي موسى الصدر وهو يتابع طائفة التحالف الواقعة فوقهم وتقصف مدينة تكريت معلنة بداية التحرير، القرية في هرج ومرج، ولكنه جلس لبرهة متحصنا بظلام الليل وهو يتابع وميض الصواريخ .. هل حقاً فرقتنا السياسة كما قال موسى الصدر؟ منذ متى؟ بل هم يتمتعون بكره مزدوج، فكل من لا

ينظم الى التنظيم هو كافر أو مرتد؟ استحضر جملة لأبي قتادة وهو يعظ جنوده قائلاً: كل سني لا يكون معنا فهو مرتد وقتله واجب ولا يدفن في مقابر المسلمين، وكل شيعي هو كافر بالفطرة، أما جنود الجيش فاقتلوهم بلا معرفة اصلهم أو مذهبهم. فقام أحد الجنود الجدد وهو لم ينظم الى التنظيم الا دفاعاً عن عرضه وخوفاً من أن يأخذوا أهله سبايا خاصة وأن أخاه عسكري هارب ولكن نفسه الأبية لم ترضخ بعد:

-ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب عند موته: ((قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله)) والسنة والشيعية موحدون قبل كل شيء يا مولانا، ألا أنهم خالفونا، نخالف نصاً صريحاً ونكفرهم بهذه العشوائية؟ ثم أن للتكفير ضوابط وشروط معقدة لا يقدر عليها الا الراسخون في العلم، وأنت الى الآن لا تحسن القراءة بالعربية بشكل صحيح، ثم تأتي وتكفر الناس!!

فشعر أبو قتادة أن الأرض تكاد تبتلعه، فقال بحنق مشبوب بشهوة الانتقام:

-تعال إليّ.

فقام الرجل ووقف أمامه. فقال له:

-من أين أنت؟

-الضلوعية.

فأخرج مسدسه وبسرعة خاطفة أطلق النار على رأسه وتركه يخر صريعاً. ثم بصق عليه وقال:

-الى جهنم وبئس المصير.



في يوم ٢ مارس عام ٢٠١٥، شنت الحكومة العراقية عملية عسكرية واسعة لاستعادة تكريت بمشاركة قوات من الجيش والشرطة العراقية، إضافة إلى بعض العشائر السنية، وقوات الحشد الشعبي. تمت محاصرة مدينة تكريت من جهات ففدت أسيرة لا يخرج منها أحد أو يدخل، وانقطع الامداد من قرية لوعة وعباس والقرى المتاخمة لها ذات المناعة القوية. ولكن التنظيم كان متهاويا منتهيا منخورا من الداخل، أهل تكريت مستعدون للتحرير، فالتنظيم بعد تلك المجزرة غدا مستبداً لا يطاق، يحسب كل حركة وصيحة عليه، صار يعد السكنات واللفتات على الأهالي، يعاقبون على أخطاء تافهة بالاعدام، يتهمون الناس بالخيانة لأدنى شك أو شبهة، متفوقعون على أنفسهم، هالتهم الخسائر والترجع الذي تشهده قواتهم، قبل أشهر قلل كانوا يدقون أبواب سامراء وهناك على أبوابها تجري المعارك فما هذه السرعة لينقلب الموقف وتأتي المعارك على أبواب تكريت؟ لا بد أنها خيانة وأي خيانة؟ الكل يخونهم، الكل يرفضهم، والكل ينتظر الجيش أن يأتي فيحررهم، قد كسد العمل ولم يعد هناك مال، وثقلت عليهم الضرائب حتى أثقلت كاهلهم ولم يعودوا قادرين على دفعها.. وفوق ذاك الأرواح تزهق والاعدامات التي تنفذ يومياً لأنته الأسباب. الطائرات تحلق فوقهم ليلاً نهاراً. والمعارك بدت ضارية. الصواريخ تتساقط كمطر طال احتباسه؛ مدمرة. الحرائق تجتاح المدينة بفعل الصواريخ. البيوت تتهدم على ساكنيها بفعل القصف. إنها المعركة الحاسمة.. استعادة الأرض وتحرير الناس من تلك العبودية الهمجية. الناس قابضة في البيوت تدعو وتستغيث بأن يأتيهم الفرج

وتنتهي هذه المعركة وهم سالمون. وتمضي أيام المعركة بطيئة مخيفة. وبعد اشتباكات عنيفة تمكنت القطعات العسكرية من الوصول إلى مناطق تل كصيبة ومشارف الدور والبوعجيل و السيطرة على حقل عجيل النفطى بعد طرد عناصر داعش منه. وسيطر الجيش على منطقة (العلم) شمال تكريت، مما مهد لاقتحام المدينة، ثم سيطر الجيش بعد معارك ضارية استمرت لاسبوع تام على مداخل المدينة . و بعد ما سيطرت القوات الأمنية مع الحشد الشعبي على جميع مداخل تكريت توقفت عن الزحف إلى قلب المدينة لإعطاء المسلحين فرصة لتسليم أنفسهم. في يوم ١١ مارس بدأ الجيش العراقي وقوات «الحشد الشعبي» ومتطوعي العشائر عملية عسكرية واسعة لتحرير مدينة تكريت من سيطرة التنظيم ، وذلك من خلال التقدم من أربعة محاور، بعد استكمال حصار المدينة التي تمكن الجيش من دخول كافة أحيائها و وصول تعزيزات عسكرية للقوات الحكومية . فدخل المقاتلون مدينة تكريت و تقدموا من الشمال والجنوب في أكبر هجوم وسيطروا على جزء من حي القادسية الشمالي في حين تقدمت قوة أخرى من الجنوب باتجاه وسط المدينة الواقعة على نهر دجلة . ثم تمكنت القوات من رفع العلم العراقي فوق المستشفى العام جنوب تكريت. و دخلت منطقة القصور الرئاسية شرق تكريت، من محورين. وتعرضت المناطق المتبقية من تكريت إلى قصف مكثف بالمدفعية الثقيلة، ومراقبة مكثفة من الطائرات العراقية. ثم بدأت القوات هجومها على مركز مدينة تكريت عبر منطقة الديوم. و واصلت زحفها بهدف السيطرة على مركز مدينة تكريت .



في ١٣ مارس سيطرت القوات العراقية وقوات الحشد الشعبي على مدينة تكريت بالكامل بعد معارك عنيفة مع مسلحي داعش . وتم رفع العلم العراقي فوق مبنى المحافظة وسط المدينة وأعلن رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي تحرير مدينة تكريت بالكامل مؤكداً أنّ « تكريت تحررت بدماء العراقيين وحدهم.» أن القوات العراقية فرضت سيطرتها كذلك على مجمع القصور الرئاسية في تكريت، التي كانت تعود للرئيس الأسبق صدام حسين، والبالغ عددها ٢١ قصراً .

أما قادة التنظيم فقد انسحبوا للقرى الآمنة والمحصنة والتي من المستحيل دخول الجيش إليها لما تتمتع من مناعة قوية وطريقها المدمر والمحفوف بالمخاطر، إذ القنابل مزروعة على طول الطريق، اضافة الى جغرافيتها الصعبة وتمركز التنظيم فيها بشكل مخيف، إذ الانتحاريين يخرجون من كل حذب وصبوب، ما جعل القوات العراقية تؤجل تحريرها لوقتٍ آخر.

-٥١-

اسم (أبو جعفر) كان مرعباً، ما أن يسمعه أبو عبد الله حتى يطير قلبه هلعاً وفزعاً، ومن هذا الهلع الذي يشوب قلب أبي عبد الله بدأ رهطه وحجابه ثم جنده أجمعون يفرعون من هذا الاسم، ويعلمون علم اليقين أن أبا جعفر لا يحضر مكاناً الا لأمر جليل أزعج الخليفة وباعد بين جفنيه والكرى وصار شغله الشاغل. يقولون من يأتته أبو جعفر فقد شُطِبَ عليه أو يكاد، قليلون هم الذين نجوا من تحقيقه . إنه مستشار الخليفة ويده التي يبطش بها بطش جبارين، وإن أرسله الى مكان فمعناه أن أبا جعفر هو الطريق الوحيد لتصفية ذلك المكان وتسوية الأوضاع بها .

إنه آت الى «لوعة عباس» للتحقيق بقضية سقوط تكريت والعلم وأبو عجيل وغيرها من القرى والنواحي المحيطة بها. لقد غضب الخليفة وخسر موقعاً كان مؤدياً الى العاصمتين العباسيتين. في هذا اليوم قد يطيح بـ(أبي عبد الله) إن ثبتت خيانتة أو تقصيره وقد يطيح برأسه إن لزم الأمر، فأبو جعفر يمتلك صلاحيات مطلقة، يعدم ويسجن ويعزل ويغير بما يشاء، ولا أحد يعترض على قراره الا الخليفة نفسه. أبو عبد الله ومنذ أيام وهو يرتب القرى محاولاً أن يظهر رخاءً وسؤددًا يسود تلك المناطق لا حرباً مشتعلة لا أوار لها. فملاً طرق القرى بالورد وزرع النخيل وأنواعاً آخر من الثمرات، بل اقتلع أشجاراً ونصبها في الطريق الذي سيمر منه أبو جعفر والوفد المرافق له. ونظفوا مدخل القرية من أثار المعارك، وأمر جنده بلبس حلى جديدة كطقس تكميلي لمشهد التهليل والترحاب. بقي عنده مشكلة واحدة؛ الأهالي الناقمة كيف سيجعلها تخرج مادحة للدولة الاسلامية وعدلها وصونها للأرض والعرض؟ منطق القوة، فكل بيت لا يخرج مرحباً مهللاً بقدوم وفد الخليفة يعرض نفسه لأقسى العقوبات الصارمة.

وجاء وفد الخليفة، ثلاث سيارات سود عاليات تعلوها الأعلام السود وجنود يرتدون السواد، ووقف أبو عبد الله بباب قرية لوعة عباس ومعه الأهالي متجمهرين مرحبين، وكان قد أعد مأدبة الغداء لهم، يتقدمهم شيوخ القرى ووجهائها وساداتها. نزل أبو جعفر وكان قصيراً نحيلاً تعلوه سمرة ولحية خفيفة، وملامحه قاسية مخيفة، فملابسه سود، وعمامته سوداء، وفوق ذلك هو عابس كأن لم يعرف الابتسام. فقال بصوت أجش شابهه شيء يشبه الأمر والزجر في آن:

-السلام عليكم.

فرد الكل بصوت عالٍ يدل على طاعتهم وفزعهم منه:

-وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته.

فتقدم أبو عبد الله بسَّام الثغر، هاشماً وباشاً له:

-أهلاً بأبي جعفر، رسول خليفة رسول الله وناصر الدين ومذل الشرك والمشركين، حلت أهلاً ووطئت سهلاً.. هذه القرى آتية طائفة متجهزة للغزو والحرب.

فنظر الى الشيوخ بلا مبالاة ثم نظر الى أبي عبد الله وقال بلهجة ساخرة:

-هؤلاء من ستقاتل بهم؟

فقال بارتباك:

-ولمَ لا؟ هؤلاء واحد هم يمتلك عشيرة قوية لا يقل رجالها عن الألف رجل.

-ألفُ رجل يا أبا عبد الله للواحد منهم وتكرت احتلها الكفرة بألف رجل فقط!! المفترض — إن كنت صادقاً — أن يكون لديك أكثر من عشرة آلاف رجل.. عشرة الاف رجل ينتصرون على الألف ليس بشجاعتهم بل بكثرتهم، ولكنكم أضعتم تكريت، بغرورك وشطحاتك التي لا تغتفر. ألا فاعلم أن أمير المؤمنين قد بعثني إليك محققاً وباحثاً عن أسباب الهزيمة والانكسار وأن لا أتهاون مع أحد، والكل متهم عندي حتى أجد السبب الحقيقي وراء سقوط تكريت وما حولها!

فقال أبو عبد الله محاولاً مداراة الموقف المخرج أمام الشيوخ والأهالي الذين يحملون لافتات كتبت عليه عبارات الترحاب:

-أمر أمير المؤمنين مطاع، فلتتفضل أنت ورجالك لترتاحوا من وعشاء السفر ثم تباشرون عملكم.

-نرتاح؟ أمير المؤمنين يرى عرش الخلافة متأرجحاً على شفا
جرف هار وأنت تقول راحة؟! لا راحة دون البناء من جديد،
ولكن قبل البناء علينا أن نعد أرضاً صالحة لنقيم عليها ذاك
البناء.

فقال بوجل:

-تفضل.

واشار الى دكان تحسين الذي اتخذوه مكتباً ميدانياً لقيادة
العمليات بعد أن أفرغوه. دخل أبو جعفر الدكان متبوعاً
بالتكبير والدعاء لأمير المؤمنين بالنصر المبين على أعدائه.
جلس خلف الطاولة وكأنه هو صاحب المكتب. هدأت الأصوات
في الخارج ووضعوا الطعام لهم. وإذا بخروف مشويٍّ يُوضع
أمام أبي جعفر. سَمَّى باسم الله وأكل. وبعد الأكل وضعوا له
فاكهةً وتمراً وشايًا. وبعد أن أتم الأكل قال:

-الحمد لله.. أكل طعامكم الابرار وصلّت عليكم الملائكة
الاخيار وأفطر عندكم الصائمون وذكركم الله في من عنده.
-هنيئاً ومريئاً.

الا أن الطعام والفاكهة لم تَوْتِ أكلها اذ ان ملامحه العابسة لم
تتغير أو تهدأ، وموجة الغضب الهادرة لم تفتّر، وما زال صوت
ال خليفة الغاضب وهو يشدد عليه في رأسه حيًا. فقال ولهجة
الزجر والأمر ما زالت باقية:

-أبا عبد الله، بلغنا ما في ولايتك وتحت إمرتك من فساد
وسوء إدارة.. وهذه النتيجة التي تراها، خسرنا أغلب محافظةً
صلاح الدين.. أعني المراكز المهمة والمدن ولم يبق لنا الا
الصحارى والقرى المتهاكة. ولم يكن هناك سبب لتجميل

القرى واخراج الأهالي مكرهين فأنا أعلم ماذا يجري منذ شهرين. وما هذا التبذير؟ خروف كامل ومأدبة عظيمة! أنت مشغول بالجهاد ودفع الإعداء أم العزائم والولائم وتحشيد الشيوخ الذين لم تستقد منهم أي شيء؟

فقال أبو عبد الله:

- كل ما وصلكم عنا سوء فهم..

فقاطعه بغضب:

- سوء فهم! أنت عاقل أم مجنون؟ أنا أبو جعفر وتد الدولة التي هزت عرش امريكا وجعلت العالم كله يخاف لا أعرف ما يجري عندك من سوء تدبير. أنت مخطئ، وسيظهر خطأك وفساد أمرك، وأريد أن تعلم علم اليقين أنني لن أتهاون حتى تتجلى الحقيقة، ولن أتردد لحظة واحدة في عقاب المسيء.

-

- بدأ سوء تدبيرك منذ خطبت بنت سيد القرية هذه لولدك طلحة وما أدى الى مشاكل كنت في غنى عنها.. هل النساء أنتهين فلم يبق الا بنت شيخ القرية.. ما كان أسمه؟

- سعيد.. سعيد عباس.

- سعيد.. ثم مضيت في تخبطك وسوء تدبيرك في المعارك على أبواب سامراء، في الحويش ومكيشيفة ومنطقة قصر العاشق، لم لم تحسم تلك المعارك لصالح الدولة الاسلامية؟ لم تكبدت قواتنا كل تلك الخسائر الفادحة في الأموال والأرواح والمواقع والمساحات؟ أتعرف كم قلت أراضي الدولة الاسلامية وكيف انحسر ملكها هاهنا؟ قل لي ألم تصل الى سامراء قبل الموصل بأيام وتحديداً يوم ٢٠١٤/٥/٦م، وأسقطتم

المدينة خلال ساعات وأحرقتم السيطرات في مداخل المدينة
ورفعتم راية الدولة فوق مسجدِها الكبير...

-جامع الرزاق وليس المسجد الكبير.

ففتح ملف من الملفات الكثر التي كان يحملها معه وقد سماه
(سجل الهزيمة) فقرأ ثم قال:

-بالضبط، جامع الرزاق، فلم انسحبتم بعد ساعات؟! أنت
ضيعت سامراء من يدك.

-يا أبا جعفر، صحيح أننا سيطرنا على سامراء خلال ساعات
قلال ولكن كان يجب أن ننسحب.. يجب أن لا تبقى سامراء
تحت أيدينا وتحديدًا في ذلك الوقت الحرج، لأن سامراء فيها
مرقد الإمامين العسكريين والسرخاب الذي يزعمون أن المهدي
اختفى به، يعني ثلاثة من أئمة الشيعة الاثني عشرية فيها،
ربعمهم، لو بقينا لأصبحت سامراء قبلة المتطوعين الشيعة
لتحرير المقدسات، لصارت حربًا شعواء لا قبل لنا بها، لانقلب
العراق الى حرب طائفية أخرى لن تحصل الدولة على شيء
منه سوى زيادة الأعداء..

فقاطعه ساخرًا:

-كيف زيادة الأعداء؟

-الشعب العراقي يا سيدي ملّ وكلّ من الاقتتال الطائفي ولم
يعد ذلك الخطاب فعالا، فلو أننا بقينا في سامراء لصار
التحشيد ضدنا من قبل السنة والشيعة في آن، السنة في
سامراء لا يفرقون كثيرًا على الشيعة، يعتقدون بالأولياء وآل
البيت ما يعتقد الشيعة، فيقدمون لهم القرابين ويسألونهم
الحوائج، هم متصوفة ولكنه تصوف قريب من التشيع... لم

أشأ أن أخلق زعرعة وبلبله على منطقة صغيرة وقواتنا لن تتحمل تلك المدينة.

- (كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)؟ اين الايمان الذي ينبغي أن تتسلح به أنت وجندك؟ أخفت الموت يا أبا عبد الله؟ أحلت في عينيك الدنيا الفانية؟ وا اسفاه أنك تقود جيشاً بالعدة والعدد، بل مادة، ولكنك نسيت شيئاً أسمى وأعلى، الأيمان بأن النصر لا يكون بالعدة والعدد، بل النصر من عند الله، ألم تسمع قول الله (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّن بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)؟ ثم تأتي بتحليلات واهية لا وزن لها وتبرر انسحابك ..؟

كانت لهجته قد احتدت وعلت، وملامحه يكاد يتطاير منها الشرر. فقال ابو عبد الله بضعف:

-للأرض أحكامٌ وضروراتٌ لا يعلمها أي أحد .

-أيُّ أحكامٍ وأيِّ ضروراتٍ وأنت ماضٍ في تخبطك؟

-الجنود أمانة، فهل نخسرهم؟

-الخوف من الموت هو الموت بحد ذاته، اطلب الموت توهب لك الحياة، وأنت فررت من الموت.

فأخذ ورقة وكتب عليها ملاحظاته. ثم قال:

-انتهينا من ملف سامراء وأنت المسؤول الأول عن ضياعها.

فقال أبو عبد الله ذاهلاً:

-أنا؟

فقال ابو جعفر:

-أجل.. أنت المسؤول الأول.

فكظم أبو عبد الله غيظه. ثم قال له أبو جعفر:

-والآن حدثني عن المعارك التي كانت تجري في الحويش وهذه المناطق، أهى في سبيل سامراء وما حولها؟

-أجل.

فقال بتعجب:

-أنت الذي أعطيت أمر الانسحاب منها!! ثم تعود لتحارب وتخسر الجند في سبيلها؟!

-الظروف هي التي حكمت، بعد سقوط الموصل والأنبار صار التنظيم قوةً ضاربةً لا يقف في سبيلها جيش، فالأنبار وحدها ثلث العراق، والموصل ثاني أكبر محافظة عراقية من ناحية التعداد السكاني، فلما ملكت الدولة الإسلامية هذه المساحات الشاسعة والمترامية حان وقت سامراء وما حولها لنسيطر على صلاح الدين كلها، أي الطرف والوضع في ذلك التوقيت حان لضربة قاصمة للدولة العراقية التي تحتضر هي، ولو وقع ما كنا نخطط له لسقطت بغداد مباشرة بعدها، حتى الحشود والجيوش التي ستحشد لن تقف أمامها..

-أي..

-ولكن المعارك لم تكن كما توقعناها..

-هي معركة..! يجب أن تتوقع كل شيء.. كر وفر، انتصار وانكسار..

-لم يقف بوجهنا الجيش العراقي أو المتطوعون، ولكنه الطيران

الذي أجهز علينا وأفسد زرعنا وأنهك قواتنا، المعارك التي حصلت والشجاعة والبسالة التي أبداهها رجال الخلافة لن يقف بوجهه جيش أمريكا لو كان القتال على الأرض، وهذا كله موجود وموثق صوتا وصورة.

-وتكريت؟

-الجيش التي اجتمعت علينا في تكريت لم تجتمع على مدينة من قبل.

-ألف مقاتل فقط!

-هذا ما تقوله الحكومة العراقية، وهل مصدر الكذب والضحك على شعبهم، لقد هجمت على تكريت قوات لم نعهدها، فصائل لم نسمع بها، شرطة وجيش وحشد ومتطوعو العشائر والكثير من الأهالي وطيران التحالف.

-أريد أن أقف على نقطة اثبت لك إنك أنت المسؤول الأول عن السقوط.

-...؟؟

-أجل، أنت.

فقال وهو يبلع ريقه بصعوبة:

-ولم؟

-ألقي رجالك القبض على شاب وفتاة بتهمة الزنا، وقدمتموهم الى المحكمة، حكم القاضي بالرجم على الفتاة المتزوجة والتي ثبت أن زوجها قد طلقها! وحكم على الشاب المتزوج بالجلد مئة جلدة، أنكر الشاب ذلك، ولما جاء الشهود تلعثوا وترددوا قبل أن يثبت أن أحد الشهود لم ير رأي العين، فحكم القاضي

بالحكم دون أن يلتفت الى تردد الشاهد، ما أثار قلق الحضور، وإذا بوجود مشاغبين وعابثين انتهزوا الفرصة فطالبوا القاضي بالعدل والعدول عن قراره لكن القاضي تجاهلهم متبعاً تعليماتك الصارمة، فأدى الى انفلات وخروج عن السيطرة، والى مظاهرات واحتجاجات ثائرة ومطالب. هنا يأتي دور القائد الحكيم، ولكنك مع الأسف لم تتصرف كرجل دولة ووال وأمير، بل تصرفت كطائش نزق لم يعرف من القيادة شيئاً، فكابرت وتجبرت، وواجهت متظاهرين عزل بالرصاص والقنابل، ومضيت بهم فتكاً وقتلاً، الى أن غدت تكريت منطوية على حقد دفين لك، وثورة ملتهبة في الصدور.. بفعلك قدمت تكريت للكفرة لقمة مستساغة عندما خلقت لك عدوين: من الخارج ومن الداخل. ولو تصرفت بحكمة وحكمة، وتلافيت الموقف بالحوار بدل تلك الدماء لكانت تكريت باقية.

-ولكنهم غوغاء وعابثون، يريدون اسقاط المدينة.

-أنت من سمحت لهؤلاء الغوغاء بالانتشار في المدينة بسياستك الخرقاء، وأنا بدوري سأتولى التحقيق بالتفصيل في قضية الشاب والفتاة، لأتبين أين هو الحق.

فقال أبو عبد الله وهو يتصفد عرقاً:

-سنكون عونك بإذن الله.

-لا حاجة لي بك، ستقضي الوقت في السجن الى أن نكمل التحقيق.

-السجن؟!

-أجل، أنت المتهم الأول عن ضياع وخسائر كل هذه الأراضي فمن المؤكد أننا لن نكافئك.. وسأسعى جهاداً كي يترسخ

العدل، واطمأن فلن يطول التحقيق، يومان أو ثلاثة فقط.
 -أنا واثق من عدالة أمير المؤمنين ومبعوثه، ولكن أطلب حقي
 في الدفاع عن نفسي.
 -سأفعل ذلك بإذن الله في المحكمة... ايها الجند..
 ودخل المثلثون الذين آتوا معه ومن خلفهم أبو قتادة وطلحة.
 -خذوا أبا عبد الله الى السجن الى حين اكمال التحقيق معه.
 فتبادل أبو قتادة وطلحة نظرات الاستغراب التعجب. فقام أبو
 قتادة واتجه نحو الباب.
 فقال أبو قتادة: أبا عبد الله، اخلع عمامتك.
 فخلعها ببطء وناولها للجند، ثم أخذوه الى السجن.

-٥٢-

جلس طلحة عند تلة مشرفة على تكريت، تبدو من بعيد كتلة
 من نور، هادئة وادعة منيرة، هناك الأعداء ينعمون بالأمن
 والطمأنينة، حتى الجامعة عادت الى الدوام. كان البرد قارصاً
 مشبوباً بقطرات مطر قليلة، متوحد هو مع الليل والبندقية،
 هما الباقيان معه. أمه أصبحت محض ذكرى، أبوه الذي
 وجده بعد الغياب الطويل في خطر داهم لا يعرف ما هو
 آخره. التنظيم في تراجع وتقهقر، تُرى إذا بدأ الهجوم العام
 على القرى ماذا يفعل؟ الجيش العراقي يجهز لعملية عسكرية
 كبرى، ولكن أين يذهب هو؟ إن لم يظفر بالشهادة سيذهب
 الى الموصل، يقولون أنها تنعم بالأمن. شعر بيد على كتفه،
 رفع بصره وإذا بأسامة، جلس عنده كغريبين وحدثهما الغربة
 ما لم يوحد النسب. فقال أسامة:

-أعلم ما بنفسك من حزنٍ، إنا شعرت بنفس هذا الشعور .

فقال طلحة:

-لكن أباك وأمك جنبك، أنا لا أحد، فأبي لا أعلم ماذا ينتظره، وأمي لا أعلم ماذا حل بها، هل ماتت؟

-أنا أيضاً، أهلي كانوا: أجود وعلي وتحسين، كنا نجتمع في دكان تحسين نضحك ونختلف ونأثلف، نتقارب ونشاجر، ولكننا كنا عائلة واحدة، هم عائلتي، أجود آخر خبر سمعته عنه أنه في السجن، أما الآن فلا أعلم أين هو، ربما خرج، وربما بقي مع سائر المظلومين. وتحسين هو الآخر لا أعلم أين هو. وعلي الوجع الذي يشق صدري، لا تكف عني كوابيسه، اشعر أن روحه تحوم في المكان، تصب اللعنات علينا، وتنتظر يوماً قريباً لتنتقم فترتاح روحه .

فقال طلحة بفضول:

-سؤال يلح عليّ، اجبني بصراحة .

فقال باهتمام:

-نحن أخوة، بالتأكيد سأصدقك القول .

-ألم تتدم لأنك سلمت تحسين لنا؟ ألم تتهور وأنت ترى علي يقطع رأسه وهم أصدقاء عمرك؟

-كنتُ أقطع .. أتألم، ولكن أيهما أشدُّ؟ خيانة النفس الأمارة بالسوء ودحر ما تمليه أم خيانة العقيدة والفكرة والأيمان؟ إن أثرت الأولى على الثانية ارتاحت نفسك لكن عذاباً آخر ينبجس في الروح؛ الخوف من جهنم ومن العذاب الشديد، أما إن أثرت الثانية على الأولى ضمنت الجنة واستقويت

بالطاعة على ألم الذكرى ووجع الفراق.

-وكيف ضمنت الجنة؟

-بالطاعة، طع تفرز.

-ومن قال لك أن عملك متقبل؟

-رحمته.

-علي في الجنة أم النار؟

-لا اعلم.

-أكافر أم مسلم؟

فقال أسامة بألم:

-لا أعلم.

-أنت تجهل الطريق، فكيف ضمنت لنفسك الجنة؟

-بل أنا مستقيم عليه.

-إذن علي كافر.

فطفرت من عينيه دمعة:

-لا أعلم.

-أنت تعلم ولكنك لا تريد أن تقنع.



من ملف التحقيق مع أبي عبد الله: بعض الحوارات التي أجراها أبو جعفر مع جنود التطعيم بشأن أبي عبد الله وخسارة تكريت، والجنود رفضوا الادلاء بأسمائهم فلم تكتب في ملف التحقيق:

-كيف تعامل أبو عبد الله مع المتظاهرين قُبيل سقوط تكريت؟
وهل كانت لهم مطالب محددة؟

-تعامل ابو عبد الله مع المظاهرات والاحتجاجات بالقوة ولغة السلاح لا غير، المتظاهرون كانوا يطالبون بعدة مطالب، لكن أبا عبد الله رفض الاستماع وأبى، بل تعامل معهم كعبيد لا مواطنين في دولة اسلامية وتحت راية خلافة ستحكم العالم، بل دكتاتوريا تامة.



-كيف كان يرى أبو عبد الله أهل العراق؟

-وصف ابو عبد الله أهل العراق بأنهم أهل شقاق ونفاق ومعصية، وأنهم لم يطيعوا الصحابة وخانوا الحسين بن علي فهل سيطيعوننا؟ كان يرى الحل الأمثل هو الفتك بهم والتكيل ... منهج الحجاج بن يوسف كان انموذجه الفريد حتى يستقيم أهل العراق .



-هل رأيت تحسين وغنية في عينيك وهما يمارسان الفاحشة؟
وكم عدد الشهود الذين كانوا معك؟

-لم أرَ (تحسين) و(غنية) متلبسين في الزنا، بل سمعتُ اصواتهم في الحديقة بما لا يخالجه الشك أنهما يمارسان الفاحشة، فصرت كالثور الهائج لا أولي على شيء، فانطلقت الى الجند وكانوا تحت إمرة طلحة وهو ابن ابي عبد الله، فكمن لهم، عندما خرجت غنية مسكنا بها وبتحسين الذي حاول الهرب، وقال طلحة: كلنا شهود. لما استشار ابو قتادة أبا عبد الله اصدر الأخير حكماً مباشرة، اما حكم القاضي

فهو شكلي امام الناس. وبسبب هذا الحكم العشوائي دون الاعتماد على القانون الاسلامي وترك الامر لقاضٍ شرعيٍّ أدى الى تلك الفوضى.



-ماذا فعل الناس إزاء تلك الفوضى؟

-لما أصدر القاضي حكمه ثار تحسين وقال إنه لم يزن وغنية هي الأخرى قالت إنها لم تزن وهي مطلقة. ولكن القاضي كان قد حسم أمره قبل أن يسمعهم أصلا، ولكن الشيخ خليل اعترض...

-ومن هو الشيخ خليل؟

-الشيخ خليل مدرس يدرّس في المدرسة الدينية الواقعة جنب الجامع الكبير في تكريت، أخوه قتله تنظيم القاعدة ٢٠٠٧، ومنذ دخل التنظيم تكريت وهو محل شك وريبة، وقد شكّيناه مراراً الى ابي قتادة وابي عبد الله ولكنهم استخفوا به. ويبدو أنه كان قد أعد الى ذلك اليوم عدته من الطلاب الذين لم يغادروا تكريت. لما اعترض الملا خليل على حكم القاضي لم يحر له جواباً أو بالا، فصرخ: باطل . باطل. وانقلبت الجموع المتفرجة الى تائفة غاضبة، وانفلت الوضع وخرج المحتجون من الجامع ومعهم أناس كثر انضموا إليهم من حيث لا ندري، فصار عددهم ضخماً، مما يشي باضطراب وربما حرب شوارع إن لم يتصرف الموقف بحكمة، وهذا الذي حصل عندما واجههم أبو عبد الله بالسلاح؛ إذ تحولت تكريت الى حرب شوارع من الساعة الثالثة عصرًا الى العاشرة ليلاً.



-كيف نظر الناس للدولة الاسلامية بعد تلك الحادثة؟

-الناس بعد تلك الفوضى ملت افعال الدولة الاسلامية، ورأتها لا تفرق عن الدولة العراقية القاهرة، فكانت نفوس أهل تكريت مستعدة لمساعدة القوات التي ستحررهم، فهي رافضة الدولة الاسلامية، ناقمة عليها.



-منهج الشورى عند أبي عبد الله هل كان فعالاً؟

-ابو عبد الله لم يكن ليستشير أحداً في حكم بتّ فيه، ولم يكن ليرضى بمعارضة احد، بل كان يعد كلامه ضرباً من الكلام المقدس القطعي، لا يُسأل عما يفعل، امره مطاع، وطلبه مجاب، فطاعته كما تعلم من طاعة أمير المؤمنين، وطاعة أمير المؤمنين من طاعة الله. وهذه نتيجة افعاله .



-كيف تعامل أو عبد الله مع المعارك التي جرت على أبواب سامراء؟

-بعد فتح الموصل والأنبار اصابه غرور، وبدأ بالتحرك نحو سامراء وكانت معارك ضارية لكن لم يكتب لها الانتصار، اذ سرعان ما انحسرت قواتها وكادت تستأصل، لأنّ ابا عبد الله كان كثير الانسحاب، لا يبدأ الطيران بالقصف وقواتها بالتقهقر حتى يعطي امر الانسحاب والتراجع بدل الامداد والاستبسال والتقدم بعزيمة وايمان.



-كيف جرت معركة تكريت؟

-المعركة كانت معروفة النتائج منذ البداية، قواتنا منهكة معنوياً وجسدياً، اصابات كبيرة، سلاح قليل، لا دعم ولا إيمان من قبل الأهالي الذين ندافع عنهم بالقضية التي انبرينا لها، الهزيمة متوقعة خاصة بعد الهجوم من كل تلك المحاور، فالانكسار نتيجة منطقية للتخطيط الذي صاحب طول ولاية أبي عبد الله.

-٥٣-

(من عبد الله أبي جعفر الى أمير المؤمنين وداحر الشرك والمشركين وحامل لواء هذا الدين أبي بكر البغدادي؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد:

فقد انتدبتني للتحقيق في سقوط تكريت وما حولها من النواحي والأقضية، وقد حققتُ وتقصيتُ، وبعد طول الأناة والبحث تبين أن أسباب سقوط تكريت وما حولها:

(١) سوء إدارة الوالي وهو (أبو عبد الله النجدي) وقلة تديره وضعف حيلته، وسوء معاملة الرعية.

(٢) المجزرة التي ارتكبتها رجال الدولة بحق المحتجين قبل شهر من تحرير تكريت ما أدى الى نفور عام من الدولة الاسلامية.

(٣) انعدام الشورى والأخذ بالرأي والمخالفة لمنهج الدولة الاسلامية.

(٤) استغلال الامير لمنصبه لمصالح شخصية، سنرفق لكم مع التقرير المفصل وثائق ودلائل كافية)

وهذا وسيتم تقديم أبي عبد الله الى المحاكمة بعدة تهم أبرزها: هو المتهم الأول بسقوط تكريت. وسنعين والياً جديداً من قبلنا وطبقاً للصلاحيات التي منحتها لي. والله من وراء القصد.

أبو جعفر

صفر ١٤٣٧ ()



وُنصبت المحكمة جنب دكان تحسين، محكمة علنية سيحضرها الناس أجمعين. وجاء القاضي، وجيء بأبي عبد الله مكبلاً.. كان يقوده ملثمان. أين الأمانة؟ أين لغة الأمر والزجر؟ هؤلاء هم أنفسهم الذين كانوا يخضعون بين يديه طائعين مهطعين، ما لهم اليوم يستحقرونه كأنه لم يملك يوماً ولم يأتوا خاضعين بين يديه وطالبين رضاه. وقف أما القاضي الجديد الذي اختاره أبو جعفر. كان أبو جعفر جالساً على كرسي مع الناس. الناس تجمهرت على شكل دائرة كبيرة وأبو عبد الله واقف وسطها والقاضي أمامه. فحمد الله وأثنى عليه وعرض القضية. فطلب من المدعي أن يدلي بدعواه. فقام أبو جعفر جنب أبي عبد الله ونظر الى القاضي، وقال: سيدي القاضي هذا الرجل متهم بخسارة تكريت وما حولها، وهو المسؤول الأول عن الخسائر المادية وخسارة الأرواح الجسيمة وضياع الأراضي التي كانت تحت ظل الدولة الاسلامية. كذلك تعطيل حدود الله واقامة الحد الذي يرتضيه فيحكم بالقتل دون بينة، ويجلد بتهمة الزنا دون شهود، يستغل القاضي الضعيف ويحكم طبقاً لأهوائه. اضافة الى القتل العمد..! نعم، أمر بقتل المواطنين المحتجين عمداً بالسلاح دون ترو أو ابطاء..

عدا الخزينة التي لا نعلم أين تذهب، وعدا الضرائب التي فرضها على شعبه باسم الدولة الاسلامية ونحن لا علم لنا بشيءٍ. اطالب بإعدام هذا الرجل واقامة القصاص العدل. فضج الحضور وبدأوا يتمتمون ويدمدمون ويتهامسون.

فقال القاضي:

-المتهم، لك حق الدفاع. أنت متهم بالقتل العمد.
-لم اقتلهم كمحتجين، بل كمخربين وخوارج ومفسدين في الأرض.

-وكيف عرفت أنهم مفسدون في الارض وهم ألوف؟ هل شققت على صدرهم؟

-طالبوا بإسقاط النظام، اسقاط دولة الخلافة.
فقال أبو جعفر:

-غير صحيح، طالبوك بالعدل.

فقال القاضي:

-وكيف تعطي أوامر للقاضي؟

-غير صحيح. القاضي هو من يحكم.

فأشار أبو جعفر الى جنده، ونظر الجموع وإذا بالقاضي الذي حكم على تحسين، جاء ووقف. فقال له القاضي:

-كيف كنتَ تحكم؟

-لا حكم لي يا سيدي، إنما يأمرني الأمير فأطيع.

فصرخ به القاضي:

-أنت قاض! أنت أعلى من الأمير لو أبصرت، كيف تكون
العبوة بين يديه؟

لم يجر جواباً. فقال القاضي:

-خذوا قاضي السوء هذا الى السجن... والآن ماذا تقول؟

ارتبك أبو عبد الله ونظر حوله فرأى العيون تكاد تخترقه،
فقال بيأس:

-إنها مؤامرة وخيانة.

فقال أبو جعفر:

-أية مؤامرة وأية خيانة وهذه شهادة جندك فيك؟

فأخرج ملف الشهادات وقدمها الى القاضي. وعرض أبو
جعفر عرضاً مطولاً تحقيقه واتهاماته معززاً ذلك بشهادة
جنده.. فلم يبق لأبي عبد الله حجة الا ودحضها ودمغها بتهمة
قاسمة.. تواترت التهم وضعفت حججه ووهن دفاعه. فنظر
الى جنوده وعماله وأهل القرية والشيوخ الذين كانوا يطلبون
له. فقال:

-هذه دعوة الاسلام فيكم ودولته؟ خنتم وتآمرتم ضدي. أهذه
دعوتكم وأنتم المسلمون الأتقياء الأنقياء؟ (ثم موجهاً كلامه
لأبي جعفر والقاضي) أهذا أمان الدولة التي بنيناها معاً
لتضحى بنا أول الناس؟ أولها دعوة وصلاح وآخرها ملك
وغنيمة وسلطان وصراع. ضاع عمري هدرًا لأناس لم يؤمنوا
بجهدي وخدمتي.

فقال أبو جعفر:

-أي جهد وأنت تقتل وتحكم وتهزم؟

فقام القاضي لينطق بالحكم... ارهفوا السمع باهتمام:
(نظراً لثبوت التهم الموجهة الى أبي عبد الله النجدي وابرزها
القتل العمد، واستغلال المنصب لأغراض شخصية، والانفراد
بالحكم .. قررنا الحكم عليه بالاعدام رمياً بالرصاص
وفوراً!!)

شهق طلحة وهو يقف بعيداً ويسمع الحكم على أبيه. وأوقفوه
فوراً واصطف مجموعة من رجال أبي جعفر، وسحبوا
اسلحتهم. فأشار ابو جعفر لأبي قتادة، فقال الأخير: اطلق.
وهكذا هي هذه القرية؛ لا يركن إليها أحد ويأمن مكرها حتى
تقلب عليه وتصليه عذاباتها وتطعمه من الكأس المر الذي
شرب منه عباس.



(وفقاً للصلاحيات التي نمتلكها تم تعيين (أبو قتادة) والياً
على صلاح الدين، وعليه عهد الله ورسوله والمؤمنين)
-مبارك يا أبا قتادة.

فقال أبو قتادة باسمًا:

-بارك لك فيك يا أبا جعفر.

-أنا أنتظر أخباراً جديدةً منك ومفرحة، عائدُ الآن الى
الموصل، وسأطلب من أمير المؤمنين ارسال تعزيزات جديدة.
-بارك الله فيك، وسأكون عند حسن ظنك.

٢

رحمة

الحُبُّ مَوْتُ صَغِيرٍ.
ابن عربي

مثل قناديل تضيء طرق الغرباء، مثل يقين يلف قلوب الحيارى؛
تظهر رحمة على التلة وتقف ترمق الحقول بزهو وابتسامة
تحيي الروح وتعيد سيرتها الأولى كأن لم تذق تعباً أو نصباً،
يحث الخطى نحوها يشعر أن قدمه واهنة لا تستجيب لنداء
الروح الذي نادى واستغاث للمعبودة المحبوبة.. يشعر أن قدمه
غاصت في الرمال .. يريد أن يقول لها أنه مشتاق، الطرق
طويلة والعاشق يحتاج لوصال يستقوي به على الطريق، جف
ما في القلب من عطركِ ورَائحتكِ ولم يبقَ الا شوق يلهب
بدل أن يبرد، يحيي قبل أن يتدرب على النسيان... القليل من
الوصال يكفي كثير البعد والجفاء.. ينادي بصوتٍ ولهان:
-رحمة.

تستدير بوجه وضاء يشع نوراً وقد تبددت سمرتها وغارت:

-أجود..

قالتها وفي ثاياها أنغام عشق باقٍ على قلة اللقاء.. كأنها
تقول: هلمَّ إلي .. تعال. يسير ببطء فقد خارت قوته، يصل
إليها قائلاً بلهفٍ:

-رحمة.. أين أنتِ؟

يريد أن يقبض على يديها علها تذوب في حضنه فتصهر
بعد السنين وتثائي المسافات التي بقيت لسنتين تامتين، ولكنها
تنفر منه.

-لم؟

-لم يحن وقت اللقاء بعد.

-متى إذن؟

-إنه قريب.

وسرعان ما غارت وسط الحقول وبقي هو يناديها . استيقظ وهو يدمدم .. عرف أنه بيت شعرٍ رده كثيراً حيناً وشوقاً الى رحمة:

تاقت إليك عجافٌ أنت يوسفها

هلاً رميتَ على العُميان قُمصانا

ما زال في السيارة ولم يصلوا الى النقطة الفاصلة بين التنظيم وهم، عند تلك النقطة سيكون عملهم، وهو بالذات تعول القيادة كثيراً عليه، لأنه مفتاح الوصول الى القرية وبطريقة آمنة، تحتاج الى دليل يعرفها ويحفظها، العقيد محمد أقنع القيادة أن أجود هو الشخص، لذلك حصل له على هذه الرتبة بوقت قياسي والتي ربما ستتضاعف بعد التحرير كما أخبره العقيد بذلك. كانت الشمس قد ارتفعت وظهرت الطرق عارية منهكة، تشبه أهلاً، الأزمات تتطوي على شيء عميق.. إنها تعري النفوس من بريقها وزينتها وتبقي ما كان راسخاً في النفس.. مستأصلاً فيها كالجذور كالبدور. ها هي البيوتات متهدمة خربة تنن وتشتكي، كل شبر يقص لك حكاية عن الوجد وكل مسافة بين نقطة ونقطة تلوح لك ما في هذي المدن من مأساة وأزمات وتشوهات. هذه الاراضي الممتدة أرض النزال. كم من راية خفقت فوق هذه الأراضي في هاتين السنتين؟ وكم من قوة بطشت بأخرى وكل: هذه الأراضي لي. وقفت السيارات، ونزلوا، كانت القوات المسيطرة هي عراقية. الطريق ممتد وبمنتصف هذا الطريق الممتد بين سامراء وتكريت يتفرع شارع لطريق آخر يؤدي الى قرية «لوعة عباس» والقرى المجاورة وهي التي تربط

قيادات التنظيم بالموصل ومن هناك تأتي التعزيزات لتصل الى الأنبار أو حتى إعادة الكرة ثانية لاقتحام تكريت. وقف العقيد محمد السامرائي ومعه الملازم أجود وبعض الضباط متفاوتي الرتب. فقال العقيد:

-أجود، هل حنيت؟

كان أجود مشغولاً، فقد عادت الذكرى فتية، كرت الصور نفسها ثانية، عاد الحزن الأول: علي، رحمة، اسامة، سعيد، تراهم أين ذهبوا وحلوا؟ هل ما زال سعيدٌ على قيد الحياة؟ ألم تقصمه السنتين الخاليتين فتريح الخلق منه ومن جشعه وطمعه الذي انهك وأتعب الخلق؟ لكنه تذكر كلمة تحسين كلما سمع بخبر نجاة مسؤول أو شخص يكرهه: (العار لا يموت) تلك الصفة لصيقة كل شخص لا يحبذه تحسين، هل حقاً أن (العار) أمثال عمه سعيد لا يموتون؟ ولكن في كل الأحوال لن يتركه حراً طليقاً، هو الذي جعلهم يخسرون الأهل والحببية والكرامة، هو الذي تركهم يتقاسمون الغربة فجرت عليهم الويلات والمصائب، هم الذين كانوا يتقبلون صفعات الزمن فلا يعترضون، ويهانون فلا يثأرون لكرامتهم، أين المفر ولم يكن لهم ملاذٌ إلا في أوكار الذلة والوحشة والغربة الذابحة؟

-الحنين لم يفتر سيدي.. ولكن الآن أشدَّ واستأسد، كلما اقتربنا اتسع الألم وزاد الخوف، تُرى كيف سَأَراهم؟ هم الأعداء والأصدقاء، الظالمون والمظلومون، كيف سنلتقي وهل يمكن الفصل بغير هذه الاسلحة.

فقد العقيد أجود ومشيا بضع خطوات ووضع راحته على كتفه قائلاً:

-اعلم هم الأعداء، وهم من كتب مصائرهم، هم من اختاروا

هذا الطريق، ماذا علينا؟ أن نحرر الوطن.. الوطن هو المبدأ المقدس، وما سواه لا قدسية له، يزول متى أصبحنا ندًا وعدواً لمبدئنا المقدس، أي بعبارة أوجز إذا اعترضت مصالحنا مع الوطن نُؤثر الوطن..

فقال أجود:

-والسياسيون ماذا يقدسون؟

فضحك العقيد:

-يقدسون المصلحة، هم مختلفو المشارب والمآرب... وكل يرى مشربه ومأربه هو الغاية المقدسة.. الوطن بالنسبة لهم وسيلة لتلك الغاية.

-ونحن ماذا نقدس؟

-الوطن.. العسكري ولاؤه للوطن.

-والمواطن العادي؟

-المواطن هو الوطن، نخدمه نحن والسياسيون، ولكن بين السياسي والوطن شق كبير، يحتاج لجسرٍ يوصل بينهما.

-٥٥-

-سجلت البيت كاملاً باسمها؟

قالت مهدية ذلك مذعورة فزعاً. فقال الخال وهو يفرك صلعتة من خلف الشماغ:

-يا مهدية الذي لي هو لها، الجيب واحد، المهم أن تسكت. وماذا ستفعل بالبيت؟ أنا معها ولا فرق بيننا.

فقالته وهي تعدل غطاءها:

-يا خال أنت لا تعرف ما تقول، اي خلاف ثان بينكم ستقول لك: الباب يسع جملاً .. اخرج .. ماذا ستفعل عندها؟

فقال بانفعال:

-عندها لن آتي إليك!

وكعادته عندما تجتاحه موجات الغضب العارمة بدأ يزبد ويرعد ويصرخ ويرفض الحديث عن زوجته بما يغضبه. فقامت له بترو:

-لنتحدث حديث عقل وبهدوء، هل أنت راض عمّا فعلته؟ هل أنت مقتنع بهذا العمل؟ أبو مصطفى حسيّن صاحب أكبر مطعم على الطريق السريع ينتهي به الحال مقيماً في بيت زوجه؟ لا يملك شيئاً يتقوى به على الأيام الا زوجٌ لعوبٌ لا أمان لها!

-بشرى ليست لعوبا ..

-وماذا تسمي رفضها العودة إلا أن تسجل لها البيت كاملاً؟

-تريد ضمان حقها .. وهذا حقها، ثم أن لها نصيباً كبيراً في البيت.

-خال، هل أنت على ما يرام؟ هل نسيت أن مالها هو مالك وذهبها هو أنت من اشتريتها لها؟ وأنّى لها المال، أنسيت بيتهم؟ ألم تر أباهما الحافي والذي لا يمتلك الا العربة التي يبيع عليها شاي وحامض.

-هذا عمل شريف لا عيب فيه.

-لم نختلف على أنه عمل شريف ولكنهم نهبوك.

فقام بغضب:

-أنتِ لا تفهمين.. لا تفهمين.

وخرج غضباناً. جلست مهدية على سريرها تسبح الله وتدعو
أن يعود أجود سالمًا.



ولم يمض من الأيام إلا أقلها عندما أتى الخال حسين الى
مهدية يجر أذيال الخيبة وتعلوه ذلة، كانت يحمل بين يديه
حقيبة ملابسه، فتحت له بتول الباب، دخل دون كلام الى
غرفة مهدية التي بهتت هي الأخرى من دخوله بهذه الرزانة
وهذا الهدوء، ومن عاداته إن تشاجر معها أو أغضبته أن يبقى
أيامًا طويلاً لا يدخل إليها، ولكنه عاد هذه المرة بسرعة. وقبل
أن تسأله دخلت بتول تجر حقيبته ففهمت الأمر. فقالت له
بأناة:

-عملتها بشرى بك؟

فقال وهو يكاد يبكي على ما آل إليه:

-فعلتها بنت أبي الشاي.. عليها اللعنة.

-لم؟ لم تعد الا قبل أيام.

-كلُّ يعمل بأصله، وهي عملت بأصلها.. عادت وكأنها ملكة
ملكتم العالم، تأمر وترجر وكأنني صبيها لا زوجها وصاحب
البيت..

فقالت مهدية باستنكار يشبه الاستهزاء:

-صاحب البيت..!!

فتجاوز اهانتها ومضى يسرد عليها :

-تجاوزت عنها وقلت ما زالت تحمل في قلبها بقايا زعل..
امرأة وعقلها صغير .. عاملها يا رجل كما تعامل الأطفال..
أنت الحكيم .. ولكن عبثاً، لم تغير سلوكها هذا بل صار
أقرب الى الطبع المتأصل.. لا تراني الا وتكون حادة المزاج ..
غضبي.. كأنها تمنن عليّ بجلوسها عندي، الى أن أتيتها ظهر
اليوم فلم أجد طبخاً، وأنا طول النهار أكد وأتعب في سبيلها
.. في سبيل أن نأكل ولكنها حتى الطعام ضنت به عليّ.
قلت لها: اين الغداء؟ قالت: لم أطبخ اليوم. قلت لها: ولم؟
قالت: أشعر بدوخة فلم أطبخ. قلت: ماذا سنأكل؟ قالت: افتح
الثلاجة واحم طعام الأمس. قلت: أنا أكل لا طعام الأمس.
فقالت بغضبٍ: وما به؟ ومنذ متى تتكبر على طعام الأمس
وهو نعمة الله؟ فقلت لها بعد إن استشطت غضباً: بنت أبي
الشاي الآن تتكبرين عليّ؟ أنا حسين صاحب أكبر مطعم
تتكبرين علي بعد أن مكر بي الزمان؟ أنا بطل حرب الخليج
الذي حارب ونازل في الفيافي والجبهات تأتي واحدة مثلك
وتتكلم معي هكذا؟ عندما كان أبوك يبيع الشاي ليطعمك
فقات الطعام كنتُ أنا أكل الشحم واللحم واللوز. ثم صفعتها
صفعة سُمِعَ لها صدى. فقالت لي: أخرج من بيتي. كانت
تلك الكلمة هي قوتها، وهي اللحظة التي كانت تنتظرها.
فتقدمت نحوها بجنون فضربتها وركلتها ولطمتها بعنف وهي
تصرخ وتبكي وتشتتم. إلى أن اجتمع رهط من الجيران على
صراخها، وها أنا أتيتك. سمعتها وأنا خارج تتوعد أن تشتكي
عليّ. لم يعد يهمني، أنا مصاب بخيبة أمل كبيرة، محبط، لا
أعلم كيف انخدعت بها الى هذا الحد.

فزفرت مهدية وهي تقول:

-ماذا قلنا يا خال؟ من أوّل يومٍ رأيتها علمت ما هي من النساء.

-أنتِ بصيرة بهن، ولكنني انخدعت بها كالحمقى والمغفلين.

لم يكن يمانع الخال من الاعتراف بخطئه واطلاق النعوت والصفات على نفسه بما يناسبها.. بل قال لمهدية بتذل:

-هل تسمحين لي أن أبقى عندك الى أن أحل مشكلتي؟

فقالت مهدية:

-لَمَ هذا السؤال يا خال؟ واللّه أزعل عليك إن اعدت الى مثل هذا الكلمة، هل تريدني أن أنسى كيف انتظرتني في الحي الصناعي ليلاً والوضع كان خطيراً؟ ثم ضيفتني ليوم وأجرت معي بيت، وساعدتنا في الاجرة، فضلك لن أنساه.

فقال بساماً:

-أصيلة على أمك.

-رحمها الله.

لكن الخال لم يَبْتَ في بيت مهدية بل في السجن! إذ أتى أهل بشرى وذهبوا وأعدوا تقريراً طبياً لما تعرضت له من أضرار وجروح وكدمات، وقدموا شكوى ضده وتم إلقاء القبض عليه وايداعه في السجن.



ها هو الخال يعود وحيداً مرة ثانية بلا مال أو بيت أو سيارة، ولا يملك الا ملابسه. خرج من السجن بعد أن باع جودت سيارته نيابةً عنه ليدفع التعويض الذي أراده أخوة بشرى حتى

يتنازلوا، والمبلغ بقي ناقصاً فدفعت مهدية تكملة المبلغ من التعويض الذي استلمته، تنازلوا بعد أن دفع التعويض وطلقها. الخال حسين كفر بالوطن مرة أخرى بعد أن عاد غريباً.. عجيبة هذه المدينة التي قالوا عنها إنها تعشق الغرباء؛ يا سر من رأى، اعتبريني غريباً .. لأئذا .. واحفظي مالي.. ولكن أبيت إلا النكران والخذلان. هذا هو الخال الذي خسر مطعمه الفخم وعمل سائق أجرة يعود اليوم بلا مأوى أو مال.

-مصطفى اتصل بي وقال تعال عندي في السويد، ستعيش بسلام، هو يعمل وزوجه كذلك فيبقى أولاده مع الخادمة، سأذهب كي أعينه وأبقى مع أولاده... مهدية، الوطن لم يعد لنا، منذ متى وهكذا الناس تسطو عليك علناً وتهبك؟! نحن ننزف بلا انتهاء..

ثم أخذ يكفكف دموعه المنهمرة.

-لا تبك يا خال.

-مللت وتعبت.. قلق وحيرة وخوف وضياع.. وهذا كله في سبيل الوطن، ماذا قدم لنا الوطن؟

-ستأكلك الغربة .. تسفح دمك...

-اجعليني أخرج يا مهدية من هذا الوطن وأحنُّ له وأشتاق خير من أن أعيش فيه. مصطفى سيرسل لي فلوس التذكرة..

وسافر الخال حسين الى السويد وحنث يمينه الذي قطعه على نفسه بأن لا يركب الطائرة مرة ثانية عندما سافر للسويد أول مرة.. ركب الخال حسين الطائرة وغادر الوطن وتحمل أهوال وأوجال الطائرة؛ إذ هذه الأهوال أخف من أهوال الوطن. سافر وهو يحمل في جعبته الكثير والكثير من الذكريات ابرزها بطولة في حرب الخليج!

-٥٦-

نظر الملازم أجود الى تلك الأرض الفاصلة بين الحرب والسلام، هناك أقرب نقطة لمرمى قناص التنظيم. يقول العقيد يجب أن نجد منفذاً آخرًا لدخول القرية غير هذه الجهة المحصنة، فقد بلغهم أن الطريق بعد أن خربوه ليعرقلوا سير قوات الشرطة قد ملأوه عبوات ومتفجرات في حال الهزيمة والانكسار فهم، لا يستطيعون الدخول من هذا الاتجاه. فقال أجود وهو يستحضر طريقة دخوله الى القرية يوم أخرجهم التنظيم وعاد ليرى رحمة:

-هناك طريق اعرف مسالكه، وهو بعيد عن الأعين وسيكون آمنًا لجنودنا، هذا الطريق عندما ندخله نغير على لوعة عباس من الخلف، أي سيكون هجومًا غير متوقع، هذا إن لم يحصن الطريق من الخلف.

فنظر إليه العقيد مبتسمًا:

-أحسنتم ملازم أجود، هذا الذي نريده منك.. سر ليلا الى القرية مستطلعًا، وخذ معك بعض الجنود، وكونوا حذرين.
-حاضر سيدي.

جلس أجود على تلة وقت الغروب ويتأمل ذلك المكان البعيد وكيف انغلقت القرية بكل تلك السدود والقيود، يلفها الخوف من كل جانب، تُرى كيف هو حال البيوتات الآمنة والاهالي الذين لم يهاجروا ولم يتركوا أرضهم؟ كيف ستلتقي الوجوه المعفرة بالغربة والحقْد على الآخر.. عامان يا «لوعة عباس» وما زلت صامدة راسخة كأنك قرية عجائب، حتى الضباط دعوا بعض المتكهنين والمشعوذين ليفكوا ما يحيطها من سحرٍ ومسٍّ.

شعر بييد تربت على كتفه، نظر إليه ولم يكذ يصدق عينيه،
عانقه طويلاً بعد فراق سنتين:

-أين كنت يا تحسين وما هذه البندقية؟

-آه يا أجود، لو تعلم ما الذي جرى عليّ يا صديقي... ولكن
ما هذه الرتبة.. صرت ضابطاً!!

-أجل أجل .. تكريماً لذكرى أخي جواد.

-جواد مات؟!

-نعم.. وجدوا رفاته في مقبرة جماعية.

-رحمه الله وأعان الخالة مهدية.

-أمي لم تدري ولم أخبرها.

-لم؟

-أمي وقعت وانكسر حوضها قبل سنتين تقريباً، والى الآن لم
تشف ولم يجبر كسرهما.

-سنتان ولم تشف؟!

-يا صديقي إن كسر الروح لم يجبر وجرحها لم يندمل،
والجسد يمرض بمرضها ويستشفى بشفاؤها، وأمي عليلة
الروح، بقيت تدب الغائبين وتنتظر عودة الراحلين.. آه يا
تحسين لو تعلم ما لاقينا من وجع وألم.. لن تصدق..

-كنت مسجوناً؟

-وما يدريك؟

-أسامة قال لي.

-وما يدريه؟

-لا أعلم.

-نعم.. قصة طويلة قد لا تصدقها.. تهمني أني داعشي وأنا
الذي هربت منهم!

-هذه تهمة كل الهاربين من الموت الى أرض أخرى.. حتى العالم
أجمع يحسب أن مناطقنا وكر الارهابيين، وتظن أن أهلها هم
الآخرون ارهابيون، العالم يا صديقي منزوع الضمير، ولم يبق
كلام الا هذه (وأشار لبندقيته) هي أصدق مقال في هذا
الصراع المتأجج.

فقال أجود بابتسامة:

-وأنت أين والبندقية أين؟ هي في المشرق وأنت في المغرب
فكيف تلتقيان؟

فقال تحسين بأسى:

-الظروف يا صديقي. من كان يتخيل أن أجود القابع وسط
الكتب والمطالعة والذي كنا نتخيله مدرساً أو خطيباً مفوهاً
يغدو ضابطاً في الجيش وفي جبهات القتال الأمامية؟
الظروف التي جرت علينا في هاتين السنتين ثقيلة، أنا التاجر
الصغير والذي كنتُ أحلم أن أكون تاجراً كبيراً ذا مالٍ طائلٍ
أغدو متطوعاً لتحرير أرضي والثأر ممن ظلمنا .

-ما الذي جرى في القرية بعدي؟ عمي سعيد وأسامه
ورحمة... صحيح هل تزوجت رحمة من طلحة.

قال متلعثماً:

-رحمة.. لا أعلم .. أظنها تزوجت بلا عرس.

فقال الملازم أجود بارتياح:

-كيف بلا عرس؟

-بلا عرس وزفة.

-يُحرمون الزفة؟

-يحرمون الطرب.

-ألم تتجب أطفالاً؟

-من التي تتجب؟

-يعني من؟ ما بك يا تحسين؟ هل رحمة بخير؟

-طبعاً بخير.. لا يجوز أن نتحدث عن المرأة ولا تتس أن النساء لا يخرجن أو نتداول حديثهن، حرام .. وأنا هربت من تكريت قبل أشهر طويلة.. قبل التحرير.

-لَمْ هربت..؟

-آه .. قصة طويلة.

ثم قصَّ عليه كيف ألقى عليه التنظيم القبض وكيف هرب وكيف ثارت تكريت، وكيف هرب وسط الجموع الثائرة مثلثاً وغاص بينهم متجنباً الرصاص الزاخر، لا يعلم كم ركض وكم تخطى من أحياء وأزقة، الى أن قفز في بيت مهجور ليجد نفسه يعاني من كدمات وجروح لم يشعر بها. وفجأة تذكر غنية، أين هي؟ عاد الى الشارع مخاطراً دون وجل باحثاً عنها .. يقترب من كل سيدة منقبة لعلها تكون هي.. الجموع هائجة صاخبة ترغي وتزمرجر.. يقلب الوجوه الفزعة .. اين غنية؟ يتجنب الرصاص الزاخر يقتفي أثر الهاربين في الأزقة والدرابين علها هربت هنا وهناك.. يسير

كالهوس .. كالمسوس .. الى أن رأى جسداً متكوراً مغطى بالسواد وحوله الدماء .. فزع وارتعدت أوصاله، لا يمكن أن تكون النهاية هكذا، لم تمت رجماً فهل ستموت برصاصة طائشة؟ تقدم نحو ذلك الجسد ببطء مشبوب بفزع ووجل .. هي غنية.. أزال الغطاء فراعه وجهها، كانت الرصاصة قد اخترقت رأسها من الخلف وخرجت من وجهها فتناثر مؤخرة رأسها وبدا شكلها مفرعاً، جلس عندها يبكي غير عابئ بالرصاص المتساقط. ثم حملها ورأسه يعج بالتساؤلات؛ أزانية هي أم قديسة؟ شريفة أم عاهرة؟ ملاك أم شيطان؟ الى جنة أم نار؟ شهيدة أم مقتولة؟ من المسؤول عن دمها ودم الألف غيرها؟ حمل جثتها الى المقبرة وكانت الشمس قد غربت، المقبرة مغلقة، نادى على صاحبها، فرآه بتلك الحالة ويحمل جثة فارتاب وتوجس وخاف من العيون المتجسسة والمترصدة. فقال صاحب المقبرة:

-ماذا تريد؟

فقال بعيون باكية:

-غنية.. ماتت.. أريد دفنها.

-لا يوجد دفن في الليل، تعال صباحاً ومعك إذن من رجال الخلافة حتى تدفن.

-أرجوك.. جثتها ستجيف.

فاعتصر قلب الدفان وفتح له الباب. أدخلها الى غرفة أعدت لغسل الأموات جنب مصلى المقبرة. راع الدفان منظر الجثة، فقال له: الشهيد لا يُغسل. ولفوها بكفن تبرع به الدفان، ووضعوها في تابوت وصلوا عليها ودفنوها. شكر الدفان

ووعده أن يعود بعد التحرير ويدفع له ثمن الكفن والقبر.

فقال تحسين وهو يمسخ دموعه:

-ومنذ ذلك الوقت قطعت عهداً على نفسي أن أثار لغنية
وانتقم من الدواعش الأنجاس ولو كلفني ذلك الأمر روعي..
ولم يبق لي صديق الا هذه البندقية.

فقال الملازم أجود بحزن:

-كل بيت لم يخلُ من شهيد أو مفقود أو سجين، ولكن سينتهون.

-٥٧-

في القرية حصلت تغيرات جذرية. إنه عهد أبي قتادة الذي
استلم ولاية ضائعة ولم يبق منها إلا قرى وأرض واسعة ولكنها
فارغة بل تتصل بولاية أخرى. عليه أن يحافظ بما تحت يديه،
خاصة وأن الأخبار تتواتر عن استعداد الجيش لعملية كبرى
يستعيدون بها هذه المناطق التي تعتبر أوكار التنظيم وملاذه
الحصين. أول ما تولى أمرهم بدأ بتحسين القرى لتكون
عصية على الجيش، فقام بتخريب الطرق المعبدة المؤدية الى
القرية وحفرها في موضع آخر وفجر عبوة في مكان آخر،
الى أن صار الطريق مليئاً بالحفريات والعبوات المغمومة التي
زرعوها على طول ذلك الطريق، فلا تكاد سيارات الجيش
تمشي عليه حتى ينفجر عليها، وهذا ما حصل مع أول محاولة
لتحريرها بعد تحرير تكريت مباشرة. أبو قتادة يرى أن هذا
الفعل حكيم، الى أن يرتب جيشه ويستعد للكر عليهم ثانية،
لكن قوتهم وهنت، ولم يعودوا قادرين على «الغزو والفتح»،
فقد وهن جنودهم، ولم يرسل أبو جعفر امداد الخليفة

كما وعده. والأدهى والأمر أن الخلاف والحقد دب بينهن، ولحقهم ما يلحق كل دولة إذا وهنت وشارفت على النهاية من تشقق وخلاف وبغضاء، فطلحة زعم أن أبا قتادة هو من لفق لأبيه هذه التهم ولصقها به، وأن أباه بريء براءة الذئب من دم يوسف، بل أبو قتادة كان صدره ينطوي على جذوة حقد لسيدته، وسرت هذه الأقوال بين أفراد التنظيم كالنار في الهشيم، وكعادة أي اشاعة منهم من صدق ومنهم من أنكر، ولكن على الأقل هناك من صدق على قتلهم. ومما يؤكد هذه الخبر ما جرى في تلك الأشهر من فظاعة ورعب، فالإعدامات كثرت بأعداد هائلة، والرجم نفذ في تلك الأشهر ما لم ينفذ في سنة كاملة. أمّا الهاربون من ذلك الجحيم المستعر فكانوا يعدمون فوراً بتهمة الخيانة والعمالة وبلا مراجعة الأمير أو القاضي. يقول طلحة: فلم أعدم أبي وأبو قتادة فعل ما لم يفعله أبي في سنتين؟ لم يجر أحدٌ جواباً أو يهتد إلى تغيير نظرتة، إلا أن الشيء الوحيد الذي استقر في نفسه هو نيته، لم يعد كما كان مؤمناً بقضيته يفديها بدمه وروحه ومستعد لأن يركب سيارة مفخخة وينطلق إلى الأعداء دون وجل، لا، لأنه اعاد التفكير وسأل نفسه: نقاتل من؟ ومع من؟ وضد من؟ والأهم لأجل من؟ تلك الأسئلة التي كانت من أبجديات الأمور رآها عصية على الفهم، بل ملفزة، خاصة بعد أن رأى رجلاً غريباً بزي عسكري يدخل إلى أبي قتادة وتحت حماية رجال التنظيم.

-يقال أنه ضابط امريكي ذو رتبة رفيعة.

ففرع أسامة عندما سمع كلمة طلحة. فقال بتوجس:

-أنت متوهم يا صديقي، الامريكان هم الأعداء الكفرة

الفجرة، ونحن نقاتلهم، فكيف يستقبلهم؟

-أنت لا تعرف هذا الرجل، إنه عميل لا محالة، يبيع نفسه من أجل المنصب والجاه، لا تحسب أن الاسلام يهمله، مثله كمثل الأحزاب الاسلامية في العراق، شعارات خاوية براءة سرعان ما يصرعها الطمع وحب المال.

فقال أسامة بعد برهة:

-صحيح، العراق منذ اثني عشر عاماً تحكمه أحزاب اسلامية فلم تزد عليه الا خراباً وتراجعاً ودماراً وتخلفاً، ولكن الدولة الاسلامية غير.

-لن تختلف كثيراً ما دام على رأسها أمثال أبي قتادة لا يرعون فينا وفي الاسلام إلا ولا ذمة. سأصارك في أمر، قد يبدو غريباً قبل إعدام أبي، ولكن الآن لا غرابة في الأمر، خاصة وأنت ترى همتي التي فترت، لقد ندمتُ على التحاقي بصفوف الدولة الاسلامية وعلى ترك أُمي، لأنني اكتشفت ببساطة إننا نعدو وراء قضية ليست لنا، سيقطف القادة ثمار تعبنا، ونحن في الواجهة، نحن عدد فقط.. ألا ترى ما أراه؟ -لا.

-أما زلت مؤمناً بمشروع الدولة الاسلامية بعد كل الخسائر؟ التنظيم في أفول وزوال.. انتهى وقته، نحن لعبة استقطبنا التنظيم.. الشباب الفائز المتحمس القادم من ثورات الربيع العربي الهائجة. كان الربيع أملاً وحلمًا .. كنا ننتظره ونغنى بقول أبي القاسم الشابي:

إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ

فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدَرُ

وَلَا بُدَّ لَيْلٍ أَنْ يَنْجَلِي

وَلَا بُدَّ لِلْقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِرَ

كنا نظن الربيع تلك المطرقة التي ستكسر القيد، وكنا نظن أن التنظيم هو ذلك القدر الذي سيستجيب، فضحينا بكل غال ونفيس في سبيل الحياة التي أردناها.. حياة حرة لا يحكمها مستبد فيتخذنا عبيداً، أردنا الحرية فثرنا ثورة الأحرار كما كنا نظن، ولكن لم نسِر سير الأحرار بل سير العبيد، ولم نصنع حرية بل صنعنا دكتاتورية جديدة، ولم نحطم أصناماً إلا لنعبد أصناماً أخرى، ولم نقتل القذافي إلا لنعبد أبي بكر البغدادي ... الحرية، المساواة، العدل، مبادئ تنادي بها الشعوب القابعة تحت مطرقة الاستبداد، بل أكثر الأمم مناداته بتلك الشعارات، بل نمتلك دستوراً بهذا الشأن: (العدل أساس الملك)، ولكننا مخطئون، تائهون، مستعبدون باسم الحرية وغيرها من الشعارات، ولكن أين هذه الحرية؟ وأين «الربيع» وثماره اليانعة الدانية؟ أي بلد عربي ولد فيه «الربيع» فبقي آمناً سالماً؟ كنا ننشد السلام والتطور والتقدم والازدهار والأحلام، كنا نحتاج مطية جامحة لا تكبو حتى تتسع تلك الأحلام، وكانت الثورات العارمة هي السبيل الوحيد للغد الرخي المتسع لأحلامنا، ولكن سرعان ما تبددت تلك الأحلام لتبدو محض أوهام، فقلنا الثورة المسلحة هي طريق سديد كنور سيشرق آخر النفق، وآمنا بمشروع الدولة الإسلامية لأنهم أسلام ودين يتسع للأفكار التي نحملها، ولكن ما النتيجة؟ انظر الى بلاد المسلمين التي غزاها «الربيع» لم تعد الا أوكاراً للاضطراب والدمار، قل لي أي البلاد مستقرة؟ العراق وسوريا وليبيا واليمن وحتى مصر.

فقال أسامة:

-خسرنا ولكن المعركة لم تنتهِ.

فقال طلحة بصوتٍ عالٍ:

-وماذا بقي؟ كل شيء ضاع وانتهى، ونهاية الدولة الإسلامية مجرد وقتٍ.. لنهرب يا أسامة.

فقال أسامة بذعر:

-الى أين نهرب؟

فقال طلحة بصوتٍ خفيض:

-الموصل، ونهرب من الموصل الى كردستان ثم الى تركيا، وإذا وصلنا الى تركيا نكون قد نجونا.

-أتحسب الوصول الى كردستان هيئاً؟ أتحسب أن الكفرة لم يضعوا أسماءنا ضمن المطلوبين؟

-لن يضعوها، لأننا لم نخرج ولم ندخل من منفذ شرعي.

-مخاطرة.

-إذن نهرب الى سوريا وندخل تركيا بطرق غير مشروعة ونغوص مع الجموع اللاجئة.

فقال أسامة بترددٍ وتوجس:

-لا أعلم يا طلحة، مجازفة غير قادرين على خوض غمارها.

-ماذا تقول أنت؟ نحن الذين فدينا الدولة بأنفسنا وأرواحنا ونمشي تحت ظلال الموت يعجزنا الهروب؟ نحن الذي أقبلنا عليه يعجزنا الهرب؟

-الهرب من الموت أصعب.

-لا تخف يا أسامة، لنهرب قبل أن يبدأ هجوم الجيش علينا،
معركتنا خاسرة، وقضيتنا خاسرة، فلم البقاء وفي سبيل من؟
-في سبيل الله.

-أنت وحدك الذي تظن أن الدولة باقية في سبيل الله..
لنهرب.

فقال بتردد:

-وأبي وأمي؟

-لا شيء عليهم، عندما تتحرر القرية يخرجون نازحين الى
سامراء أو تكريت، وبعدها نلتقي معهم في اسطنبول، عنوان
صديقي موجود، سنهرب ووجهتنا اسطنبول، ثم نعمل هناك
الى أن يأتي أبوك وهو ما شاء الله أمواله كثيرة، بعدها أعود
أنا الى أمي وأنت عش مع أهلِكَ في تركيا أو أي دولة عدا
العراق، بلدكم لم يعد صالحاً للعيش.. ألا تسمع ما يعانیه
أهل الموصل وديالى والأنبار الذين لم يغادروا العراق من ذلة
وتعاسة في المخيمات؟ لن نعيش بعد تحرير القرية، سنقتل
صدقني.. لنهرب.. أفق يا أسامة.. ثم حتى إذا هربت من
الجيش من يتركك؟ حتى ابن عمك أجود حاقد عليك،
وتحسين صديقك، والكثير من الذين عاقبتهم مع التنظيم،
سيستأسدون كلهم عليك، افهم اللعبة.

فقال أسامة بعد أن اقتنع:

-متى نهرب؟

-غداً أو بعده..

-ولمَ لا نهرب غداً؟

-عندي مهمة أخيرة أريد تنفيذها في القرية...

-٥٨-

ختفى بسام!

شاع الخبر في المحلة أن بساماً اختفى ولم يعد يعرف له أثر! أُعتقل بسام وخرج في اليوم التالي. ظن أهل الحي أن تهمته بسيطة، بل لا تهمة أصلاً كما يحصل لسائر الناس الذين يسجنون ويخرجون مبكراً. ولكن ما خُفي كان أعظم وأدهى، كل الأسئلة كان تدور حول محادثاته في الفيس بوك وحواراته مع الملحدين ومحاولة اثبات أن الاسلام دين الحق.. وأهم نقطة كانت تهمهم هي تلك الأفكار التي حسبوها تنتمي لداعش ونسوا أنها مفاهيم اسلامية اتخذها داعش وسيلة لمآربه. يقول له المحقق:

-تقول أن الزنا حرام، شرب الخمر حرام يستحق الجلد.

-لستُ أنا من أقوله، هذا ما قاله القرآن وهذا شرع الله منذ أربعة عشر قرناً، كتاب موجود ودستور يعمل به المسلمون.

-لمَ تدافع عن الدين بهذا الاندفاع؟

-لأنه دين الله، وهو دين الحق والشرعية الحق.. على الناس الذين ابتعدوا وضلوا ضلالاً مبيناً أن يعوا ويعودوا الى رشدهم.. لأن الاسلام طريق الحق والنور والعدل والتقدم.. ومضى يسرد على ذلك المحقق مفاهيم الاسلام وأصوله

وواجباته كما تعلمها من الكتب ومن المدرسة ومن الجامعة وبلا تحفظ أو تردد، بل أوغل في ذلك أيفالاً بعيداً عندما سأله عن الجهاد في الاسلام وحكم المرتد والكافر والجزية . بل مضى الى أبعد من ذلك عندما بدأ يتحدث عن حرب الصحابة والخوارج والفئة الباغية وابن تيمية وابن القيم ومحمد عبد الوهاب .. فقد ظن __ بسذاجته __ أنه حديث عابر واستفسارات يحتاجونها من طلاب الشريعة، خاصة وأن الضابط أبدى ليونة وحسن انصات... لكن الضابط مضى يكتب تلك المصطلحات في سجله ومقارناً بينها وبين أفكار التنظيم: (ضلالاً مبيناً)، (يعودوا الى دينهم)، (الاسلام)، (الح هاد)، (الجزية)، (الكفرة)، (المرتد يقتل في الاسلام). وأسماء الأشخاص: (ابن تيمية)، (محمد عبد الوهاب)، (ابن القيم). ثم اطلقوا سراحه. عاد يتهاذى الى بيتهم في منتصف الليل، دفع الباب بهدوء فلما سمعوا أهله صوته وهو يقول: أين أنتم؟ قاموا فرحين جذلين، وسرعان ما انطلقت الزغاريد من حنجرة أمه ونوار صداحة الى أن اجتمع الجيران مباركين ومهنيين، كانت ليلة ساهرة وجذلى من ليالي الحي القليلة. في اليوم التالي استيقظ مبكراً يريد الذهاب الى الجامعة. -يُمَّة لا تذهب اليوم، ما زلت متعباً.

-ماذا فعلت أنا؟ ساعات في التحقيق وهذا كل ما في الأمر.

-أنت متعب.

-لا تعب وأنت جنبي.

ثم طبع قبلة على خدها، وقام مستعجلاً، ارتدى ملابسه على عجلة وخرج دون افطار، كانت أمه ترمقه وهو خارج

وهي تذرف الدموع وكأنها عليمة بما هو آت.. ولم لا تعلم؟
أليست بصيرة القلب أبصر من العين؟ وأليس قلب الأم يدرك
ما لا تدركه الحواس وما تكنه الأقدار؟

ومنذ ذلك الصباح لم يعد بسام أبداً الى الحي!

لم يترك أبا بسام مستشفى أو مركز شرطة أو سجن إلا
وقصده وسأل الى أن ملَّ ولم يهتد الى طريق يوصل إليه..
أين أنت يا بسام؟ ميت أم حي؟ في أي سجن وأي عتمة
قابع أنت؟ لا دليل يوصل إليك، كل الطرق التي توصل إليك
موصدة، معتمة، أتعرف يا بسام ما كنه الانتظار حتى يجعلنا
نشيخ.. يغزونا ذلك الوقار المبكر؟ لأننا نستعين بمن نحبهم
فنسقي القلب وصلًا وحبًا فيبقى عصيًا على الكبر لعقود،
ولكن ذاك الخواء والجفاف يترك القلب عجوزاً وإن كان في
شبابه واهناً يائساً.

أخيراً وجدت مهدية نفسها قادرة على الحركة فقامت متكئة
على عصي وبتول معها فقطعت بعض الأزقة الى أن وصلت
الى بيت أم بسام، فرأت مسكنهم القديم وهاجت الذكريات،
فقال بوهن: لم نر منك خيراً.

كانت أم بسام جالسة عند الباب تنتظر كالمجنونة وهي
تدمدم: سيأتي.. لم تأخر؟ قال سأذهب للكلية.. بسام لا
يكذب..

فقالته مهدية وقلبها يكاد ينخلع حزناً على رفيقتها في
الغربة:

-يا أختي، قومي، انتظريه داخل.

-لا.. سيعود.. هو قال ذلك.. إنه آت.. كذب الذين قالوا لن
يأتي.

فظهرت نوار وهي باكية متوسلة بأمها أن تدخل. وبعد عناء أدخلوها البيت... فهاجت مواجع مهدية واتقدت حيناً الى الغائبين الراحلين.. جواد، أجود، الخال حسين، وبسام الذي أكمل سلسلة الغائبين ونفض الغبار عن ذكراهم، كأنه قنديل يضيء مسالك الغرباء، هكذا أحيا بسام ذكرى الغائبين... وما أن استقرتا في غرفة المعيشة حتى بدأت أم بسام تلطم وتتدب، وسرعان ما ذرفت مهدية الدموع السواجم، كل يبكي ويلطم على عزاء.. أين هم؟ لم يبقَ إلا الشجا يبعث الشجا.



أسبوعٌ مضى ولم يرد خبرٌ عن بسام، لم يتركوا مكاناً إلا ولجأوا إليه، ولا تنظيمًا مسلحاً إلا ودقوا بابه، بل اتصلوا بعقدهاء ونواب في البرلمان، ولكن بساماً ملحٌ وذاب في ماء، لا خبر يشفي الغليل. أمه استسلمت للجنون على وحيدها.. ذلك الوحيد الذي لم يعلم أحدٌ أين ذهب وبأيّ ذنب..

أشرعت بتول الباب، فقالت بذهول: نوار!!

دخلت مسرعة، فقالت: أين الخالة مهدية؟

جلست عندها باكية، فقالت بصوت متهدج:

-سنرحل يا خالتي، لم يعد لنا بقاء هنا، خسرنا أخي الوحيد، وأمي على أعتاب الجنون، وأبي مستسلم لليأس، ماذا بقي لنا؟

-يا بنيتي، لم يمض الا أسبوعٌ واحدٌ على اختفائه لم العجلة؟ ترووا وتمهلوا، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، لو تعلمين عمتي حمدية كم انتظرت علياً؟ ثم عاد، وأنا منتظرة دائمة الانتظار على سنة حمدية.

-لقد حسمنا أمرنا وقررنا الرحيل.

-الى أين؟

-الى بغداد، ولكن هذا الحل مؤقت، لن نبقى هنا أبداً، هذا البلد لا يصلح للعيش، ما زلنا في الصدمة الأولى، كيف يختفي هكذا؟ ما زال يا خالة في زهرة شبابه، لمَ ذهب؟

فبكت مهدية وقالت:

-لا اعلم.. لمَ أولادنا دون العالم يذهبون وهم يافعون؟

-سامحينا خالة.

-على ماذا أسامحك يا بنيتي؟ أنتم من يسامحنا، قصرنا في حقكم.. اعطني عنواناً نستدل به عليكم.

-لا أعلم في أي أرض سنسكن، رقم هاتفنا عندكم، سنتواصل.

فعانقتها والبكاء وحده سيد الموقف. وخرجت الى الباب وقبل أن تخرج نوار قالت:

-أوصلي سلامي الى أجود..

فقالبت بتول ذاهلة:

-أجود!!

فقالبت نوار بصوت خفيض:

-كنتُ أحبه، وحسبت أنه سيأتي ويطلبني، تلك النظرات التي أوهنت قلبي، عيناه اللتان لا تستقران على شباك حتى ترتبك، ومن ذلك الارتباك يصل شعاع قلبه ويستقر في قلبي.. كنتُ ولهى به..

-أنا راحلة.. قلبي له: كنتُ أتمنى أن يحصل أكثر من النظرات بيننا!!

عانقتها وخرجت وتركت بتول في ذهولها .

وغادر بيت أبي بسام الحي، بل والمدينة كلها، بعد أن تخطف الغياب بساماً، والجنون أمه، واليأس أباه.. لم يعرف أحد أين ذهبوا وأي أرض ولوا وجوههم، قيل بغداد، وقيل كردستان، وقيل تركيا. أما مصير بسام فبقي مجهولاً بالنسبة لأهل الحي ولعائلة مهديّة، حاولت بتول التقصي عنهم من خلال رقم الهاتف ولكن الهاتف مغلق، قيل أن بساماً عاد إلى أهله في بغداد وما خرج أهله إلا اتفاق سري من أجل الهروب من جحيم المدينة، وقيل أنه قتل، ولكن الذي يعرفونه يقيناً أن بساماً لم يعد إلى سامراء أبداً، شأنه شأن الكثيرين الذين اختفوا ولم يعودوا.

ين بسام؟

هذا السؤال بقي يتردد في المحلة طويلاً حتى بعد أن ترك أبو بسام المحلة بفترة طويلة بل والمدينة كلها وصارت حكاية بسام سرّاً مجهولاً يتردد صده في أرجاء الحي كلما تذكروا وتفكّهُوا بذكر الغائبين قبل أن تستسلم حكاية اختفاء بسام المفاجئ إلى النسيان.

-٥٩-

أسقط هاتفه من يده وبقيت بتول تناديه: أجود..

بسام اختفى.. إنه شعور الغربة إذا عصف بالروح فتبدو وحيدة.. كيف تسلياً أجود والعدو أمامك والليل غطاؤك؟ تذكر تلك الأبيات لذاك الشاعر العراقي (عماد جبار) فسرت في روحه كالتراتيل .. كالماويل:

«يا والد الانهار
 يا شيخ الجبال السمر
 يا شجر الروابي
 يا سفح روحي ان بكت روحي
 ودثرتني ضبابي
 يا أنجمي الاولى
 اذا اغفيت كنّ يجتّني يحرسن غابي
 يا وحدتي وعراق روحي
 يا أجمل الاطفال في قلبي
 وأحلى الضوء يسهر في رحابي
 لا قلب الا راحتك تضمنني
 وتجير نافذتي وبابي
 الارض تعمّر بالدخان
 وانت تلمع قطرة أولى على ذهب القبابِ
 البحر شاخ وانت تزخر بالعبابِ
 عش هكذا أنت المكابرُ
 مذ مشى نخل على عطش اليبابِ
 يا عذبُ
 يا فانوس أضلاعي البعيد
 يا أول الآباء في قلبي ويا شجر الصحابِ

يا خصلة سوداء كم أبكي اذا ابيضت
والقتها الرياح على ترابي
وأقول ما بي؟
اذ التقى عينيك تسالني
فأغسل بالدموع ندى جوابي
عش مائثا قلبي وممئلثا بما بي
عش مائثا حبري
ومنحنيا كضوء الانبياء على ثيابي»

ثم أحنى رأسه مستسلماً لنداء عينيه بأن يبكي كما لم
يبك من قبل.. بسام الذي حذره مراراً ووبخه ولكنه يأبى
إلا المضي مهتدياً بطيبة قلبه وشغفه بأن (يهدي الناس الى
الطريق المستقيم)..

يا بسام، الناس وحوش ضارية .. فلم تواجه قساوة هذا العالم
اللعين بطيبة قلبك الرقيق؟ الناس متكالبية على الدنيا وأنت
تفكر بهم وبإنقاذهم لأجل أن ينعموا براحة أبدية فمحوه.
ركض أجود كالمجنون الى العقيد محمد .. افعل أي شيء، انقذ
توأم الروح.. أنا واياه روح واحدة حللنا جسدين، فكيف يختفي
ويرحل؟ العالم بائس تعس بما فيه الكافية فلن يتحمل اختفاء
بسام.

يقول العقيد:

-لم أعثر عليه.

يجيبه أجود بحزن بالغ:

-ولكنه توأم الروح!

-افهم حرصك عليه وخوفك ولكن لم نجده ماذا أفعل؟
استتفرت معارفي كلهم، ولكن تأسفوا واعتذروا، لم يجدوا
له أثراً.

-٦٠-

لبس أجود سروالاً وثوباً أفغانياً وتلثم، ولم يحمل سوى
مسدس، وتحسين هو الآخر ارتدى الملابس نفسها. كان أذان
العشاء قد ارتفع يقطع سكون الليل بعد أن كانت تقطعه قذيفة
هاون هناك أو انتحاريّ هنا. الآن سيتسلل أجود وتحسين الى
القرية من الطريق الذي سلكه عندما عاد الى رحمة في
ذلك اليوم. ودعهم العقيد محمد قائلاً: طالما المكان جيداً ولا
تتأخران الى وقت السحر، وإن بقيتما حتى مطلع الفجر فهذه
رسالة لنا بأنكما أسيران.

عانقهما بحرارة وودعهما. انطلقا الى الحقول الخربة،
تلك الحقول الشبيهة بأعجاز النخل الخاوية، قد غرقت
في فوضى المعارك ودارت رحى الحرب عليها، بل وجرت
معركة من أشهر معارك التحرير على هذه البساتين؛ عندما
كانت تمر مصفحات الجيش من هنا يخرج لهم انتحاري،
أو تتساقط عليهم الصواريخ والقنابل والرصاص كالرطب
إذا تساقط من نخل تلك الحقول.. في قلب أجود بسقت
الأحزان متضاعفة، من كان يصدق ذلك النعيم الدائم والجنة
الوارفة التي بناها عباس فانتسعت اتساع جنة الخلد للمؤمنين
سيصير هذا حالها وتغدو ساحة النزال لأكبر صراع اقليمي
ودولي يشهده العالم في القرن الحادي العشرين؟ لم نحن دون

الناس؟ أنحن مذبنون الى هذا الحد فاستحققنا عقابا ووبالا
فانقلب جنتنا يباباً؟ لكننا على الأقل لم نزهق نفساً أو ننتهك
عرضاً أو ندنس شرفاً؟

وكل تلك التساؤلات شيء ورحمة شيء آخر، تلك الملتصقة
بالروح، وكأنها قدت منه.. لماذا يا رحمة جئت عذاباً؟ متوحدة
بي الى هذا الحد، رابضة في حنايا القلب وكأنه مسجد ولاذ
به ناسك .. الآن يا رحمة قد جاء موعد اللقاء يدق طبول
الترقب والتوجس.. هل فعلها ذلك اليوم وأخرج الدم منك؟
هل قربه منك جعلني عندك في خانة النسيان؟ الآن أنا آت
لأنقض ذلك الغبار وأعيد الذكريات.. هل ما زال ذاك المأفون
على قيد الحياة؟

كانا قد وصلنا الى الحقل المحاذي لبيتهم وبيت عباس،
هناك التلة ساكنة حزينة تنتظر عودتنا ومناجاتنا المقدسة..
تحت ذلك النخيل المتعانق .. يومها كنا نتلو ترتيلة أخرى من
تراتيل السياب الخالدة:

حسنا تسفر عن محيا شاحب ... ما زال يغلب كل طرف غالب
رمقت صباها وهي في ريعانه ... بنواظر عبرى وقلب ناصب
في الريف بين نخيله المتعانق ... وعلى جوانب كل نهر دافق
عسب يجاذبه النسيم ظلالة ... وندى يصفق بالأريج العابق
وأزهر غيناء رف نديها ... فرحا بأجنحة الفراش العاشق

هل ما زلت تذكرين تلك القصيدة من روائع السياب بل
وهذا المقطع تحديداً؟ يومها قلت لك أنه بعث مسودتها الى
شاعر مصري وكانت أبياتها تزيد عن الألف بيت، عندما
سمعت أن القصيدة ضاعت ولم يبق منها الا مئة وعشرون

بيِّتًا بكيتِ على السياب!! هكذا كنتِ رقيقةً.

-أجود.. حذارِ.

جاء صوت تحسين ليوقظه من تلك الذكريات.. تنبه وسار
ببطء في الظلام، جنود التنظيم غير موجودين هنا، لا بدَّ
أنهم على الخطوط الأمامية يتوقعون الهجوم الذي سيأتيهم..
اقتربا من التلة، ولكن لم يصعداها، بل التفا من جهة أخرى
غير معروفة ومظلمة وليست كالتلة مشرفة على الحقول..
صعدا وصارا داخل القرية، سارا ببطء.. تفحصا البيوتات،
وإذا بها هامدة الا من ضوء باهت جاء من بعضها، أما بيتهم
فكان مظلمًا مهجورًا.. وسارا بظلام نحو بيت سعيد ولكنهما
تسمرا ولم تعد بهما حركة عندما رأيا طلحة وأسامة قادمان
باتجاه الفرع الذي يتوسط بيت أجود وبيت عمه سعيد والذي
يفضي الى التلة.. سرعان ما وقفا في الظلام الدامس قرب
بيتهم.. فمضيا نحو التلة غير منتبهين.. كانت الحرب قد
دقت طبولها وفكرة الهرب قد استولت على طلحة وأسامة
ولا هم سوى الهرب من هذه الجحيم القادم. جلسا عند تلة
أخرى ليست تلك التلة التي كان يجلس عندها أجود ورحمة
وجدهما عباس، بل تجنبها وجلسا على تلة ملاصقة لبيت
أجود المهجور.

قال طلحة:

-غدًا هو وقت الهروب بعد أن أنفذ الأمر الذي عزمْتُ عليه..
أنت تنظرني هنا.

-وما الذي عزمْتَ على تنفيذه.

-لا يعنيك.

فقال أسامة:

-إذن لنفترق وانسَ أمر الهروب.. سنواجه المصير ونمشي في الطريق الذي اخترناه منذ البداية.

-لم؟

-لأنك بدأت تلف وتتحايل وتختال.

-ليس كذلك.

فقال أسامة:

-قل لي إذن.

فقال بعد تردد وبأناة:

-عزمتُ على أن أثأر لوالدي من أبي قتادة.

فقال أسامة بذهول:

-وكيف تتأثر منه؟

-غداً ليلاً وقبل هروبنا خططتُ لقتله!

-قتله!

-نعم قتله.

فلم يستطع أسامة كتم دهشته:

-لا.. نقتله..!

-هو الذي قتل أبي!

-المحكمة التي قتلتها.

-هو الذي لفق له كل تلك التهم وهو الذي اتصل بأبي جعفر

وكان يسرب القرارات التي يتخذها أبي .. الى أن وقعت
الكارثة .. إن لم تكن معي فاكنم عني.
-لا.. لن أفعل هذا الشيء.. إنها جريمة.
فقال طلحة بغضب:

-والذي فعلته أنت أبوك برحمة ماذا تسميه؟ براءة؟؟!

سمعوا شهقة مكتومة من البيت.. فانتبهوا الى أن أحداً
في بيت عمه.. وأرهفا السمع جيداً فسمعا حركة وهروب
المتواجد في داخل البيت وإذا به يتعثر بأنية أصدرت صوتاً
وتيقنا من وجود أحد في البيت، سحبوا البنادق والتفوا الى
باب البيت مسرعين.. كان أجود يحمل مفتاح البيت ففتحه
ودخل الى خلف البيت، ولم يبقَ بينه وبينهم إلا ذلك الجدار
واستمع الى حديثهما واتفاقهما. وما أن ركضا نحو البيت وإذا
بتحسين واقف ورأهما مقبلان فاطلق عليهما النار .. فعادا
مذعورين واختبئاً خلف البيت مجدداً ..

قال طلحة:

-عُرِفَتْ خطتنا .. وسيبلغ أبا قتادة... لن يخرج من البيت وهو
حيٌّ.. لنقتله ونقول لصُّ أو جاسوس ..

تردد أسامة قائلاً:

-لا .. لم نعرفه.

-أنت غبي... سنموت.

وسحبا بندقيتهما وأطلقا النار نحو تحسين الذي كان يحمل
مسدساً ويطلق بين الفينة والأخرى ليتراجعا. فقال طلحة:

سيخلص عتاده ولكن رجال أبي قتادة سيأتون على أصوات النار.

وخرج يطلق النار بكثافة باتجاه تحسين الذي دخل نحو البيت فاراً من وابل الرصاص.. وقف تحسين داخل البيت وأنفاسه تتصاعد بصعوبة فسمع أجود يناديه: - تعال يا تحسين سنهرب عبر الحائط..

-دقيقة.. سأضربهم ليبعدا..

وما أن أخرج رأسه حتى أتنه رصاصتان واستقرتا في صدره ليعود الى داخل البيت مدحوراً واهناً. فصرخ أجود: تحسين.. فارتعدت أوصالهما.. قال طلحة:

-ليس واحداً!

-هذا الصوت أعرفه.. لكن أين؟

-أخشى أن يكونوا كثر..

ركض أجود نحوه فاحتضنه:

-تحسين.. يا حبيبي، لا تمت..

فقال تحسين وهو في سكرة الموت:

-أجود... أهرب.. أهرب الى قواتنا وعد غداً لتحرر القرية من رجسهم.. اهرب.

-كيف أتركك يا حبيبي؟

فقال باسماء وقد غشته سحابة الموت:

-أنا انتهيت.. سأكون طيراً.. ملاكاً.. سأطير الى السماء.. الى غنية، هي تنتظرني، وحدها في وحشة، سأذهب وأزِيل

وحشتها، سنستأنس سوياً..

-لا تتعب نفسك، ارتح.. سنخرج سوية.

-إن كنتُ عزيزاً عليك فاستمع إليّ وطعني ولو لمرة واحدة..
تذكر؟ كيف كنت طول عمرك أنت وابن عمك وعلي تعتبرونني
طامعا لا افهم، فلم تطيعوا لي أمراً، طعني يا أجود فقد
تعلمت من الحياة ما لم تعلمه المدارس.. اهرب وانقذ القرية..
الدواش متفرقون.. وغداً سيقتل طلحة أميرهم.

كانت أصوات كثيرة قريبة قد اقتربت. فقال تحسين:

-ها هم قد أتوا.. اذهب.

فقام أجود وهو يبكي، قبل رأس تحسين:

-سلاماً يا صاحبي .. يا حبيبي.

وراح يركض الى الحائط الخلفي. كان رجال التنظيم قد
أتوا وتشجع طلحة وأسامة وتقدما نحو الرجال وهما فزعان،
وأخبروهم أن مسلحين موجودون في البيت.. فوقفوا كلهم
أمام الباب واقتحموا البيت ليجدوا تحسين مسجى وهو
يرتدي ملابسهم.. ركض أحدهم نحوه ليجده ميتاً، سمعوا
صوت أجود وهو يقفز من الحائط فركضوا مسرعين ولكنه
كان قد اختفى كالجن في الظلام والحقول الكثيفة.

تقدم طلحة نحو الجثة ببطء وهو يحمل مصباحاً فارتدَّ
مرعوباً.

-ما بك؟

سألوه كلهم بصوت واحد.

-تحسين..

قال أبو قتادة بعد أن علم بالخبر:

-هذا جاسوس، جاء فنال جزاءه.

وشحطوه في الصباح بطول القرية وعرضها الى أن رموه أمام
دكانه.. كان حلمه الأبدي أن يكون تاجرًا حصيفًا أو يموت وهو
في الطريق.. لم يطل عمره يا تحسين لتكون تاجرًا..

وجاء أبوه مكمودًا حزينًا ليحمل ولده ويدفنه فلم يحمله معه
أحد.. وبعد أن تركه الناس جاء أسامة ليودع صاحبًا قديمًا.
حملوه وأخذوه الى بيته ودفنوه في الحديقة، إذ أن أبا قتادة
قرر أن لا يدفن تحسين في مقابرهم وقد اعتبره مرتدًا
خارجًا عن الملة! وكان فعل أسامة هذا خرقًا لقوانين التنظيم
ولكن الأقدار لم تسمح له المضي في استبداده مضي الخيل
الجامحة التي لا تتخيل الكبوة.

-٦١-

كان أبو قتادة متكئًا على نمارق مصفوفة متفكرًا بجائحة أمس،
كان السكون يلف المكان إلا من صوت مسبحته وهو يداعبها.
فدخل حارسه وقال:

-سيدي الأمير، قد أحضرت طلحة في الباب، وهو يستأذن
في الدخول عليك.

-فليدخل.

كان مجلسه محفوظًا بالترف، فالفاكهة من كل صنف ولون،
والشراب بكل ألوانه، منهم من قال أنه يحتسي خمرًا، ومنهم
من أنكروا وقال إنه يحب عصير العنب، إضافة الى الجواري
العرييات منهن وغير العرييات، ومنهن المسلمات اللواتي أسرن

وغالباً ما يكون أهلهم عساكر أو مسؤولين في الدولة، ومنهن من أديان أخرى .. أبو قتادة هو الوجه السافر لتنظيم الدولة، ففي شخصه اجتمعت كل صفات الخسة ومخارم المروءة والخيانة.. هو الوجه القبيح للدولة الظالمة إذا أزفت النهاية.. هو آخر الأمراء، فبعده سيسقط الخليفة والحاجب في شرك واحد ولن تبقى الرايات السود محل رعبٍ وهلعٍ. كانت جلسته جلسةً جبارين.. فقال بتؤدة:

-ما علاقتك يا طلحة بالذي جرى أمس؟

فقال بارتباك:

-لا علاقة لنا، كل ما في الأمر أننا كنا نسير فسمعنا قرعة وجلبة وهمهمات في البيت المهجور، فحسبناهم لصوصاً وتواجهنا معهم.

-حدسي يقول غير ذلك!

فقال طلحة ساخراً:

-وماذا قال حدسك الموقر؟

-جاسوسان في بيت علي عباس أبي جواد، وجواد عسكري قضى نحبه في سبايكر، وأخوه هو أجود ذلك الشاب المشاغب الذي اقتنصت حبيبته منه، وأسامة يدفن ذلك الجاسوس في الصباح.. يعني أمركم مريب.

فقال بحزم:

-وماذا تريد الآن؟

-ماذا أريد؟ الحقيقة، لأنني أشك شكاً أقرب ما يكون الى اليقين، وخلاصة شكّي دون أن نكثر الكلام هو إنكما عملاء،

تعملون لصالح الجيش، خاصة أن أجود وعلي ابن عمه الملحد وتحسين وأسامه كانوا رفقاء كأشد ما تكون الرفقة، وأنت اتبعت سنة أبيك، و«من شابه أباه فما ظلم» وأنت تشبه أباك بالخيانة.. ستقدم الى التحقيق بتهمة الخيانة أنت وأسامه، ثم الحكم عليك بمحكمة عادلة بتهمة خيانة الدولة الإسلامية.

فقال باستهزاء:

-محكمة عادلة!!

-عادلة شرعية.

-أنت من شرعتها ووظفها كما يشاء، وعندي أدلة على عملك واتصالاتك بأبي جعفر الى أن أتى هنا وبقيت أنت ورهطك تدس الدسياسة تلو الدسياسة، والنميمة تلو النميمة الى أن حُكِمَ ظُلماً وبهتاناً وزوراً، والذي يجب أن يحكم ويعدم هو أنت.

-ستلحق أباك، ولتكونن عبرةً ومثلاً..

فقال طلحة وقد استشاط غضباً:

-أيامك انتهت يا ابا قتادة.

فقام صارخاً:

-أيها الحرس..

وقبل أن يتم كلمته قفز طلحة عليه ووضع المسدس على رأسه فاندفع في تلك اللحظة الحرس داخليين ومشهرين أسلحتهم ومستعدين لما أعد له سابقاً ليدهشوا بذلك الموقف؛ طلحة يضع مسدسه على رأس الأمير أبي قتادة.. فقال طلحة:

-واحد غبي مثلك لا أضعه راعياً للغنم فضلاً عن أن تكون

والياً، جهزت كل شيء لاعتقالي الا من تجريدي من سلاحي..

فقال أبو قتادة غاضباً:

-خائن.

-اصمت، والا رصاصة واحدة تنهي كل شيء.

-ستموت فوراً.

-ولكن بعد أن أثار لأبي.

قل لهم ليفسحوا لي مجالاً هيا.

كان الجند قد اجتمعوا وأغلقوا مدخل البيت. فقال أبو قتادة:

-افسحوا المجال ... أنا الأمير آمركم.

وتتحوا جانباً ولكن لم ينزلوا أسلحتهم، وسارا والجموع تجري معه وعشرات البنادق مصوبة نحوه الى أن وصل الى بيت سعيد فدهش أسامة وأبوه وهما يلاحظان هذا المشهد .. فوقف بين بيت سعيد وبيت أجود وهو يهم بالنزول الى الحقول من التلة.. فقال له:

-قل لهم: لن يلحقنا أحد..(ثم صارخاً): قل.

فقال أبو قتادة مستاءً:

-لن يلحقنا أحد.. سمعتم.. أنا الأمير وطاعتي واجبة.

فتوقفوا. وأخذ طلحة يسير ويدفع أبا قتادة أمامه الى غرقا في الظلمة الكثيفة، وأخذ طلحة يعدو ويأمر ابا قتادة بالركض أمامه الى أن ابتعدوا مسافة ظنوا أن لا أحد يلحقهم. فتوقف طلحة وهو منهك، وسقط أبو قتادة على الأرض متعباً

وجسده يتفصد عرقاً ولم يبقَ الا صوت الذئاب البعيدة ..
فقال طلحة:

-الآن حانت ساعتك أيها النذل.

فقال بصوتٍ باكٍ:

-أرجوك لا تقتلني.. أنا بريء .. لا دخل لي.

فضحك طلحة ضحكة مجلجلة تردد صداها في المكان:

-بريء؟

فقال متوسلاً:

-اعفُ عني.

-هذا ثأر أبي..

وقبل أن يضغط على الزناد وبسرعة خاطفة قام أبو قتادة كوحش ضار صارخاً ومهاجماً طلحة عله ينجو ولكن طلحة كان أسرع فأطلق عياراً نارياً عليه استقر في صدره.. فشعر أبو قتادة أن الدنيا أضلمت وتوقفت وعاد من وثبته متهاوياً على الأرض ولكن قبل أن يسقط أتبعه بعيارين ناريتين ليستقر في الأرض بلا حراك. فانتشى وهش وبش وبصق على جسد أبي قتادة بجذل، وقال: ارتح الآن يا أبي في قبرك.

ثم ولى وجهه للهروب ولكنه فوجئ برجال الجيش يحيطون به مشهرين اسلحتهم يتقدمهم الملازم أجود ببدلته الأنيقة:
ارم سلاحك يا طلحة.. انتهت اللعبة وانتهت الدولة المزعومة.
فقال ذاها:

-من؟ أجود!!!

-اي نعم، أجود عاد لينتقم منك.

-كان أبو قتادة محقاً.

-اجلس على الأرض.

فرمى سلاحه وجلس وتقدم أحد الجنود وكنبله بسلاسل.
وجاءت أصوات جنود التنظيم من جهة القرية هائجة لاحقة
بأميرهم. فقال أجود: نار..

وجاء جنود الجيش وبأعداد كثيفة من وراء أجود وهجموا نحو
القرية لتبدأ معركة حامية الوطيس في الحقول... والصواريخ
تبدأ بالهطول على القرية بكثافة.. وما هي إلا دقائق على
بدء المعركة حتى حلق طيران التحالف فوق القرية وبدأ
بقصف مواقع تجمع التنظيم.. وقصف القرى المجاورة.. لقد
غدا ليل القرية نهاراً بفعل الصواريخ والمتفجرات.. أما أجود
فبقي جاثياً جنب طلحة يسأله عنها..

(أين هي) قالها أجود وهو يكاد قلبه ينخلع.. علم طلحة أن
الطريق انتهى، فلم يمنع نفسه أن يقصّ على أجود قصة
رحمة البائسة على صوت القتال وتدمير القرية..

-٦٢-

في ذلك اليوم عندما قرر أبو عبد الله أن يختار زوجةً لولده
الذي وجده بعد أعوام طوال سائراً على سنة أبيه، ممتطياً
الجواد نفسه.. الجهاد بمفهومه الضيق وهو الجهاد ذاته
الذي فهمه والده. كان الاختيار قد وقع على رحمة بنت سعيد
عباس، شيخ القرية ومن كبار القوم، فبينه وبين شيوخ عشائر
القبائل المجاورة أواصر قوية يجمعها نسب ومصالح مشتركة،
فإذا ناسب أبو عبد الله سعيداً كسب بذلك الزواج المبني

على مصلحة أموراً عدة؛ أهمها شراء قلوب تلك القبائل لصالح التنظيم مقابل شيء بخس يعطيه لسعيد، دولارات كثيرة يأخذها من الغنائم التي غنمها لصالح التنظيم، وسعيد هذا جماع المال يمر في ظروف اقتصادية حالكة، فمعرض السيارات الذي يمتلكه قد تفجر، وسوق الأراضي التي كان يبيعها أضعاف ثمنها لما تحيط بالقريّة من قدسية واسطورة قد بار وكسد ولم يعد لها نفع بل صارت أرض رعب وخوف، فدفع ذلك المال كان كفيلاً بأن يقلب على ابن أخيه أجود العاشق لابنته. جرى ذلك الحوار قديماً بين أبي عبد الله صاحب الدولة المترعة بالانتصارات وسعيد الرجل الذي خسر ثروته تَوْأً بسبب هذه الدولة...

قال أبو عبد الله:

-كيف حالك يا سعيد، أما زلت غضباناً على ابنك لأنه ألتحق بالمجاهدين؟

فقال بتوتر:

-لا، كانت مفاجأة فحسب، وماذا يريد المرء خيراً من الجهاد في سبيل الله؟

-فما لك شاحب الوجه متغير اللون؟ هل الخسائر الفادحة في العمل هي السبب؟

كانت لهجته رقيقة، وأنّى لأبي عبد الله هذه اللهجة الهادئة؟ ألم يطرده قبل شهر عندما زاره في تكريت متوسطاً لعلّي وأجود فما الذي قلب حاله؟ ثم أن أبا عبد الله ليس محتاجاً لشيء عنده، فلا مال بقي، والولد أخذه، ولكن لا بد أنه يريد شيئاً، مصلحة ما.

-خسائر ليست بالقليلة، يعني خمسين سيارة لا تقل ثمن الواحدة عن خمسة عشر ألف دولار غير هينة.

-قاتل الله الكفرة، ولكن لا تقلق سأعوضك عن كل هذه الخسائر!

-....!!

-لم العجب يا أبا اسامة؟ الدولة الاسلامية آتية لخدمتكم، هي الدولة المؤمنة والمنقذة من دولة الكفر التي ستزول، نحن سنزرع بدل كل شوكة وردة!!

أراد أن يهتف به، أو يصرخ قائلاً: أي ورد وأنتم تزرعون بدل الشوك قنابل، تدمرون الشوارع بحجة عرقلة سير الأعداء، أي ورد وأنتم تريدون قتل كل من خالف. ولكنه أثر السلامة. وعاد لكرم أبي عبد الله الفياض والذي انهمر فجأة كأنهمار سحابة الصيف المطيرة.. تعويض عن الخسائر.. انقاذ.. ما الأمر؟ لا يكاد يستوعب.

فقال أبو عبد الله متابعاً:

-لا يخفى عليك أن الدولة الاسلامية تدخل عهد ازدهارها، عملية البناء وتوطيد الأركان، سيبدأ العهد الجديد للدولة، الحضارة المنشودة، سنقضي على الخصوم ونفتح البلدان عنوةً أو صلحاً وهذا شأن المجاهدين المقاتلين وقد تشرفت بأن انضم ولديك..

وشعر سعيد أن ابا عبد الله يضغط على جرح لم يندمل، يريد أن يوصل رسائله، يقول له: لست أعظم من الدولة، لست الا جرماً صغيراً!

يتابع بزهو:

-أما مهمة السادة الاشراف والشيوخ وعلية القوم فهي ترسيخ الدولة في أذهان الناس، والسير معها قدمًا نحو دولة قوية..
ابناؤها هم ابناؤكم، ورجالها هم أنتم الخُلاء..!

فقال سعيد بارتباك وقد بدا كقط أليف لا ذاك الجبار الذي كان يصرخ في وجه مهدية:

-والآن ماذا عليّ أن افعل؟

-الآن كخطوةٍ أولى أريد القرب منك أنت تحديدًا!

-أنا..!!

-أجل!

-وكيف هذا؟!

-ولدي طلحة، كما تعلم التقيت به بعد أمد طويل، فلما جمعني الله به بعد لم أنزعج له، بل بقينا في الجهاد والقتال، وهو شجاع كأبيه، مغوار لا يخشى شيئًا، إذا بدأ القتال رأيته في المقدمة!!

فتقاطر وجه سعيد عرقًا.. وتابع أبو عبد الله:

-وأزف وقت زواجه.. فقد تخطى العشرين!

-..!!

-أبو أسامة، أطلب يد ابنتك رحمة لولدي طلحة على سنة الله ورسوله وعلى صداق أنت تختاره.

فغفر سعيد فاه مدهوشًا مبغوثًا، واعتلاه صمت رهيب يشبه صمت الأموات، وقال بصوت خفيض مشبوب بفرع هائل:

-الحقيقة يا أيها الأمير لا أعلم ماذا أقول.

-وهل هناك قولٌ غير الموافقة؟ أم أنت رافض لقربي؟
كان يتوقع أي شيء الا هذا، يصاهر أبا عبد الله؟ أي وحل
هذا الذي سيغرق فيه وأي قاع هذا الذي سينزل فيه؟
-حاشا، ولكن تفاجأت قليلا..

وأشار أبو عبد الله لأبي قتادة الذي كان يقف على مقربة من
مجلسهما، فغاب دقيقة وعاد يحمل حقيبة كبيرة من حقائب
السفر، ووضعها أمامهما، وفتحها .. فلم تكد عينا سعيد
تصدقان ما تريان، حقيبة مليئة كلها بالدولارات!..
فقال أبو عبد الله باسمًا من منظر سعيد وهو يحدق بالحقيبة
بتلك الدهشة:

-اعتبر هذا تعويضا بسيطا من الدولة الاسلامية لما أصابك
أنت وعائلتك من ضرر بالغ جراء العمليات العسكرية، اعلم
أن خسائرك فادحة، فمعرض السيارات انتهى، ولم تستلم الى
الآن شيئا من أموال الحنطة التي بعثها في العام المنصرم!..
داهية هو أبو عبد الله يعرف من أين تؤكل الكتف، وكيف
يشترى قلوب الرجال. فقال سعيد وهو يداري فرحته:
-شكراً لك وللدولة الاسلامية، تعويض عاجل وسريع.

-متى يكون العرس!

-أيُّ عرس؟

فقال أبو عبد الله ضاحكاً:

-المال أنساك! زواج طلحة ورحمة.

-حدد الموعد.

-الخميس القادم، يعني بعد خمسة أيام.

-على بركة الله.



وبدأت التجهيزات للعرس بعد خمسة أيام، وصرفوا أجود عن الأعين وهجروهم كي لا يتسبب بمشاكل لا قبل لهم بحلها، وكان أجود سابقاً في هذا المضمار ومن رواد سجن التنظيم بكثرة. وجاء يوم الخميس ولبس طلحة حلة جديدة لعرسه وانطلق مع أبيه جولين فرحين وجلسوا في ديوان سعيد الذي بدا في كامل أناقته وقد جهز كل شيء. وقدم أسامة الحلويات بأشكالها والعصائر وكادت تبدأ مراسم عقد القران عندما سمعوا صرخات أم أسامة المدوية وهي وتدق بباب رحمة فوق، فنزلت كالمجنونة .. كالملدوغة .. تصرخ وتولول وتقول: : أجود فوق عند رحمة.. أنجدونا!

في تلك اللحظة كل الرجال شعروا أن الدماء تغلي في عروقهم وأن العرض أنتهك، ورحمة متخذة أجود خدناً لها .. بل قفز الشيطان الذي في عروقهم شيطاً وصوّراً لأذهانهم العلاقة الغرامية بين أجود ورحمة وأن ابن الأمير سيتزوج زانية وسيعلق الأمير وولده قروناً ويركبهم عاراً يبقى موصوما بهم أبداً العمر، هذه الخواطر المفزعة قد صلتهم جنوناً وهياجاً وثورة .. فقاموا كلهم وقد سحبوا أسلحتهم وصعدوا كالمجانين هائجين فضرب سعيد الباب بسلاحه ليفتحه على مصراعيه ويجدوا رحمة وحدها بفستانها الأبيض وهي تبكي والنافذة مشرعة، فركضوا وضربوا الرصاص نحو الظلام. فاستدارت الوجوه الغاضبة الهائجة المحمرة نحوها وهي تزدد بكاءً وعويلًا. فقال أبو عبد الله بغضب:

-ألم أقل أن هذا الفتى سيسبب لنا مشاكل كبيرة..؟ قلت لك
لندعه في السجن أو نلحقه بابن عمه فنريح ونستريح ونريح
خلق الله من شره فننال أجراً وراحة بال.. ولكنك أبيت وآثرت
العاطفة وهذه النتيجة.. إنه العار يا سعيد الذي ما بعده عار.

فسحب طلحة سلاحه قائلاً:

-سأقتلها وأنهى هذا العار الذي ركبنا.

فمد أبو عبد الله يده أمام مسدس ولده قائلاً:

-لا.. أبوها وأخوها هم من ينهون الأمر.

كان سعيد قد احنى رأسه بذلة وانكسار ولم ينبس ببنت
شفة. فقال أسامة بغضب وقد بدا كثور هائج:

-لن تعيش.. والله لأدفنها حية..

فقال سعيد بصوت باك:

-عارٌ عليّ.

فقال أبو عبد الله بلهجة عتاب:

-الآن علمت أنه عار؟!

فبكى سعيد.. وزوجه بدت تصرخ وتبكي. ودمدم سعيد:

-أنا انتهيت!!

ومضى ينشج كالنساء.. فقال أبو عبد الله لرهطه:

-هيا.. أخرجوا.. سعيد وولده سينفذان الأمر ويغسلان
عارهما بيديهما..

فصاحت رحمة:

-لا .. أنا طاهرة.

فقال طلحة:

-اسكتي يا فاجرة يا عاهرة.

كان سعيد يستقبل الاهانات والمسبات على عرض ابنته ووصمها بالعاهرة والداعرة والزانية وهو مكلوم لا يحير جواباً.. فقال أبو عبد الله بصوتٍ خفيض:

-اغسل عارك بيدك أنت وابنك.. انه الأمر سريعاً.. القرية ستهجع الآن كلها ولن يعلم أحد بالأمر، سنقول إنها متزوجة ولن يسمع أحد، بل ستبقى سمعتك كالزلال... هيّا يا رجال.

فقال طلحة:

-اتركني معهم للمساعدة.

فقال أبوه:

-أنت زوجها وقد سُميت إليك.. ابق معهم.

خرج أبو عبد الله ونشر الجنود قرب البيت وأمر الأهالي بأن يعودوا الى بيوتهم ومن يخرج الليلة يعرض حياته للخطر.

وأنت أم رحمة نادبة وصارخة.. فجّرها سعيد بقوة وحبسها بإحدى الغرف. ومسك رحمة وهي تصرخ وتتادي وتستتجد ولكن لا صوت يتردد الا عياط أمها الحبيسة وأخرجها الثلاثة وهي تحاول الهرب.. تطلب الحياة.. كان صوتاً داخلياً يقول لسعيد: دعها.. لتهرب.. إنها حبيبتك وصغيرتك التي كنت تحبها وتدلّها ها هي تستجذك.. ولكن صوتاً آخرّاً يأتي ليقول له: لا. إنها عاصية زانية. اصوات الشياطين. وصوت أبي عبد الله وهو يقول له: اغسل عارك. ونفسا طلحة وأسامة

وهما ممسكان برحمة خلفه وينادونها بالفاجرة والعاهرة.
يمشي وتلك الأصوات متدافعة .. ثائرة.. يريد التخلص منها
ومن نحيبها . كانت عيناه قد فاضتا بالدمع ولكن لا مناص
من غسل العار.. أين المفر؟ سيبقى حبيس عاره إن لم ينهه
الآن فلن يعيش بعدها .. بل قد يموت كمدًا أو جنونًا .. قطع
الفناء خارجًا نحو التلة .. تلة عباس .. وفي هذا المشهد ودمعه
منهمر وروحه متشظية تائهة في عالم الخنوع والموت: لم عليّ
أن أموت مرارًا؟ أن أخسر من أحبهم؟ أن أقضي عليهم بيدي؟
علي قطع رأسه وأنا انظر ولم أرَ أمانة أخي، أجود خائني
ولم ينل جزاءه.. والآن رحمة، ابنتي ووحيدي.. ولكن لا تراجع،
فها هي أمتار قلال ونكون على التلة الملعونة. ولكن بين فناء
بيته والتلة توقدت ذكريات وعادت حياة حياة ستنتهي بعد
قليل.. مهد ولحد، بقاء وفناء، قدوم ورحيل، وصل وهجر،
حب وكره، المسافة بين هذي المتناقضات قريبة جدًا، مقدار
المسافة بن الفناء والتلة، اللعنة الأبدية تحت النخيل المتعانق
لن يطفئه إلا دماء رحمة..!

وصلوا قرب التلة. فقال سعيد: احفروا قبرًا هناك.

وأشار الى ذلك المكان .. الى مكان جلوس عباس وهو ينتظر
عليًا أن يعود من الحرب، وهو المكان ذاته الذي مات فيه، وهو
ذاته الذي اتسع لحب رحمة وأجود، الغزل المتبادل .. قصائد
السياب.. حتى القبلات المسروقة.

ومضى طلحة يحفر التلة وكأنه يضرب تلك النار المتأججة..
ذلك الحقد الفائر.. كان أرض التلة صخرية، قوية، متحجرة،
ولكنه حفرها بحقد صلد ووحشية طاغية. رحمة تصرخ ولكن
صوتها ضاع في الفضاء المفتوح وفي ظلام الليل الدامس. وما
أن أتم الحفر وعلم سعيد أن لحظة غسل العار قد أزفت وقتل

الضمير والطمأنينة معه في آن سيكون.. ارتد وارتعش.. فقد
جاء صوتها الطفولي متموجاً وسط ذكريات هادرة وعياطها.
فقال طلحة بحقد:

-هيا.. لنقتلها.

تردد سعيد.. فقال أسامة:

-دعها لي.

وصوت أبو عبد الله طغى وهو يهمس له: اغسل عارك.

فقال: اعطني سكيناً.

فناولها طلحة خنجرًا حادًا، وتقدم نحو رحمة التي امسك بها
أسامة بقوة، فمسكها سعيد من شعرها فتركها أسامة.. رحمة
تصرخ.. وسعيد متردد لكن صوت ولده الذي جاء هادراً:
اقتلها يا أبي وطهر شرفنا. كان الفاصل وكان أقوى من أي
صوت آخر.. فغرز ذلك الخنجر وبقوة بصدرها وهي تصرخ:
بابا لا تفعلها.. ب..ب..ب..

انقطعت الأصوات وسيغسل العار ويبقى صوت الندم
والحسرة.. وأخرج الخنجر الذي كان يسيل منه الدم ونظر
إليه بفتور وخوف ورماء أرضاً وجلس ينتحب.. لكن رحمة
قامت وكأن صوت الحياة ابتعث من جديد.. قامت وهي
تشخب دمًا محاولة الركض.. الهروب.. النجاة.. لكن طلحة
وأسامة مسكاها.. فصرخ بهم سعيد وهو يشيح بوجهه عنهم:
اتركوها.. فلتهرب.. دعوها..

ولكنهم لم يستمعا له بل شحطوها وقد خارت قواها وبدأت
الروح بالصعود الى أن أوصلاها الى الحفرة وفيها نفس رابض
يخرج بترو فدفعاها الى الحفر ببدلتها التي غدت خليطاً من

الأحمر القاني والتراب والدموع لتسقط هامدة في الحفرة
ودقات قلبها لم تزل تدق، وأهالا عليا التراب بسرعة مفرطة
ولم تمض الدقائق القلال حتى وقفا أمام سعيد الذي كان
ينشج. وقال:

- انتهت المهمة وغسلنا عارنا.



قال طلحة الكلمة الأخير بلا مبالاة: انتهت المهمة وغسلنا
عارنا!!!

فقال أجود وقد تغيرت بحة صوته من البكاء:

-أيها المجرمون.

-أنت المسؤول.. أنت من دنس شرفنا.

-أيها الداعشي النجس، رحمة عرضي وشرفي، وأنت من
دنسه.

-بل أنت!

فقال أجود وهو فائر ثائر:

-وأين سعيد وأسامة؟

-في القرية، كنا قد قررنا الهروب أنا وأسامة لكن الاقدار لم
تشأ أن نموت سووية.

-سيلحقانك سريعاً.

-وأنت لا تتأخر.

فقام أجود ومسك بندقية وقال له: ستموتون ثأراً لرحمة.

وسرعان ما أفرغ مخزن السلاح فيه حتى لم تعد تعرف جثة
طلحة أين رأسها من قدمها.

-٦٣-

كانت خيوط الفجر الأولى قد لاحت القرية التي لم تعرف الليل. كانت قرية «لوعة عباس» عبارة عن يوم الحساب ولكن بلا حشر أو ميزان أو صراط؛ يوم أهوال تشيب له الولدان، فقد أفرغت القرية من الأهالي الذين اختاروا أخيراً خيار النزوح والخروج من قراهم، كان الخروج من البيوتات أمراً لا نقاش فيه، فحمل كل بيت ما يقدر عليه من مال مكنوز وذهب مخبأً وأي شيء له أهمية، فقد قررت القيادة قصف البيوت، خاصة بعد أن شاع أمر البيوت المغمومة.. كان بيت تحسين أول البيوت التي نسفت.. ثم قصفت البيوت تباعاً، بيت أبي عبد الله الذي نال نصيباً وفيراً من طائفة التحالف حيث دكته دكاً ثم بيت أبي حازم وأخيه، ثم بيت أجود الذي لم يكلفهم سوى صاروخ واحد حتى انهار كجرف هار.. ثم بيت سعيد بعد أن خرج هو وزوجته، وقف سعيد بلحيته الطويلة وهو يبكي.. راح يتوسل إلى الجندي ويبكي على بيته ويقول له: أرجوك.. لا أملك شيئاً عداه. فقال له الجندي: أخرج وإلا وضعتك داخله.

لم تمض ساعة بعد الصباح إلا وكانت القرية عبارة عن جحيم مستعر والدخان قد عم المكان، والأهالي كالسيل العرم خارجون متفرقون في الأرض. قاد سعيد زوجته وسار وهو يحمل صرة على ظهره ومثلها على ظهر زوجته إلى أن بلغ إلى أحد مداخل القرية فرأى الجنود يفتشون الناس ويعزلون من هو داعشي متكرر، أو مشتببه به، أو له أموال مشكوك بها، فوقف وأشاح بوجهه عنهم، ثم ارتد وقاد زوجته ليخرج من مخرج ثانٍ، فقالت زوجته:

-وأسامة..!٩-

فقال بصوت خفيض:

-اسكتي.. لننفذ بجلدنا.

وفجأة وقف متسماً.. التقت الوجوه أخيراً.. أجود وعمه سعيد.. عمه الذي عفرته الأيام ذلةً ومهانةً وبؤساً، وأجود الهائج الثائر الذي خسر بسببه كل شيء، الحبيبة والمسكن والعزة. فصرخ به: أيها القاتل...

وركض نحوه كوحشٍ كاسرٍ ولم يكن من سعيد إلا التوسل والذلة:

-أنا عمك... هل نسيت؟!!

فمسكه من رقبته وسقطت صرة سعيد، ورمى أجود عقال عمه وأخرج مسدسه ووضع على رأسه:

-أيها الحقيير الوغد.. كيف فعلتها وقتلتها؟ كيف سمحت لنفسك بقتل ابنتك؟

-ابتعد عني أيها الوغد الجبان.

-وغد وجبان من يقتل فتاة مثلك.. أين ابنك؟ أين؟ والله لتقتلن أنت وولدك أيها الحقيير.

-اتركني.

كان قد قرب المسدس على فيه ليطلق قبل أن يأتي جندي قائلاً:

-سيدي... سيدي الملازم.. اتركه.. سيحسبونه عليك رجلاً.. العقيد يريدك..

-هذا داعشي حقير.

فتلقفه الجندي وضربه وراح يتهادى الى العقيد محمد
السامرائي. كان العقيد قد قبض على رجال التنظيم الذين
استسلموا وعلى بعض الأهالي الملتحين. فقال لاجود:

-ميز لي الداعشي ممن سواه.

فنظر الى الوجوه متفحصاً باهتمام:

-أبو حازم.. أكل السح والربا والحرام، ثم المتدين..

فقال بخوف:

-هم اجبروني يا أجود على أن أكون معهم وإلا قتلوني.

-كذاب.. سيدي هذا داعشي أصيل.

فقال العقيد:

-قم.. خذوه.

وظل يفرز ويميز الى نهايتهم فلمحه جاثيا لا حراك به.. هو
اسامة..

فقال للعقيد بتوتر:

-ذاك الداعشي اتركه لي.

-هو لك.

فتقدم نحوه قائلاً:

-الأيام دول.. يوم لك، ويوم عليك.

فرفع أسامة رأسه بذعر:

-أجود!

-أيها الوغد.

فبصق أسامة على أجود:

-وغد وحقير أنت.

وبسرعة خاطفة لكزه أجود على وجهه وجعله يبصق دماً .
ثم قام وأخذه إليها .. الى قبرها ... أتعرف ذلك الشعور المنهك
للروح والجسد معاً؟ يوم تقترب من مثنوى الأحياء لأول مرة،
يوم تزورهم في القبور وأنت لم تعتد أن تزورهم فلا يتكلمون،
ولا تراهم، ولا يجيبون، يكونون مستمعين وصامتين صمتهم
الأبدي الذي لا نطق بعده .. أيها الموت لم تأخذ صالحينا؟ لم
كُتب علينا أن نموت وجعاً بعدهم مراراً؟

انتشى أسامة بشيء من الجذل وهو يظن أن ابن عمه ما زال
على حاله جاهلاً بما كان ومغفلاً . فقال:

-فك قيدي.

فلم يجب .

فقال بلهجة مرتعشة:

-ما بك؟ بالتأكيد لن تسلمني إليهم، اطلقني يا أجود، ولنعد
صاحبين .. ثم ما هذه الرتبة؟ لن تسلمني للجيش أليس كذلك؟

فقال أجود بصوت واهن مبحوح:

-نعم، لن أسلمك للجيش.

فقال بجذل:

-اطلقني.

-ولن أطلقك.

-ماذا إذن؟

-ستموت.

فقال بتوجس:

-لم؟ أنا ابن عمك.

-وعمي الملعون سيموت.

-غدا قلبك حجراً صواناً يا ابن عمي.

فصرخ به:

-لا تقل ابن عمي.. أنتم القتلة السفلة، قل لي: لم قتلتها؟
(ثم بكى) لم؟

فتشجع أسامة وعلم أن الموت آتٍ لا محالة:

-طهرنا عرضنا بعد أن دنسته أنت.

-لم أدنسه.. رحمة طاهرة... طاهرة.. هل فهمت؟

-لا..

وقبل أن يكمل كلمته ضربه على وجهه بما أوتي من قوة.
كان قد وصلا الى بيت سعيد وبيتهم المتهدم فلم يأبه اجود
الى مشهد الخراب، فقد ذهب ما هو غالٍ فهل يسأل عن
الرخيص؟؟؟

رأى قبرها بمستوى الأرض كي لا يبن، وحيدةً لسنتين خلف
القرية الظالمة القاتلة سابقاً، والخربة التي لم يبقَ منها الآن
الا الاطلال... لماذا؟ ما الذي فعلته رحمة؟ ماذا كلفهم لو
أتوا بقبالة ففحصتها؟ أو حتى نساء الجيران فيعلمنا صحة
طهرها... لماذا تقتل فتدفن وهي ما زالت حية وفيها روح؟ قبرٌ
مستدبر القبلة، وبلا كفن أو صلاة عليه أو معاملة المسلمين.

-من أين اتيتم بهذي القسوة؟

-فقال أسامة بلا مبالاة:

-من كان بلا شرف لا يشعر بقيمته.. رح افحص أختك.

فضربه ضربة اطرحته أرضاً وهو مكبل.. ثم بدأ يركله
وأسامة يتأوه.. فقال له:

-لو كنت رجلاً لقاتلتني كما تقاتل الرجال، رجلاً لرجل، لا أن
تستأسد على رجل مكبل!

فثارت ثائرتة وفك قيده، وقال له:

-قم قاتل كالرجال وأمام قبر أختك الطاهرة.

-تقصد العاهرة..!

فضربه ضربة أخرى وسرعان ما ردها أسامة بأقوى منها
ليرتد على إثرها أجود ويسقط أرضاً. كانت يد أسامة قد
اشتدت بالتمرس والتدرب على القتال فلم يعد رخواً كما كان.
فقام أجود وهجم عليه ومسك واحد بساعد الآخر وتقلصت
العروق وغلَى الحقد، كلاهما يريد أن يجفف ماء الحياة في
الآخر الى أن ضرب أجود أسامة برجله خصيتي أسامة ضربة
انصهر فيها الحقد والثأر ووجع سنتين خلتا في الغربة والألم
والموت والذلة والفقد فارتد أسامة على إثرها متألماً متأوهاً
وقبل أن يفيق من الضربة تبعها بضربة أخرى على صدغيه
ليسقط وقد خارت قواه على الأرض يئن من الجراح الغائرة
والآلام.. فركله أجود بقوة.. وشحطه الى حافة التلة المشرفة
على الحقول محاذاة قبر رحمة.. وأجلسه لينظر الى قبرها
الذي هو لعنته التي أصابته والى الحقول الخاوية والى القرية
المتهدمة:

-هذا حصاد زرعكم.. تأملوه!

فقال أسامة بقنوط:

-خسارة معركة لا تعني خسارة الحرب، ونهاية معركة واحدة لا تعني فتح باب السلم، الدولة الاسلامية باقية وتتمدد، وسيأتي يوم يقطفون فيه رأسك.

-انتهت دولتك الباطلة. (ثم بصوت باكٍ) لمَ قتلوها؟

فنظر الى قبرها بئأس:

-لأنها يجب أن تموت... هذه الشجرة ملعونة، وهذه البساتين يجب أن تسقى بالدماء سنة جدنا عباس!

-بل سنة التخلف والعنجهية والعقول المتحجرة.

فقال مبتسماً ابتسامة الموت:

-لعنة عباس التي ستصيبك وتصيبك عاجلاً أو آجلاً.

فأخرج أجود مسدسه وصوبه على رأسه.. فأشاح أسامة بوجهه عن القبر وعن السلاح ونظر الى الحقول: أتذكر يا أجود مراتع الصبا؟ كانت هنا، في هذه الحقول، في جنة عباس وحمدية، نركض ونلعب.. اقتلني ولكن الغيمة العابرة لن تحجب الشمس، ورتل الكفرة المرتدين لن يسقط الدولة الاسلامية..

فاطلق أجود النار على رأسه ليتطشر رأسه على التلة وعلى قبر رحمة ثم يسقط متهاوياً من على التلة متدحرجاً الى الحقول. فرمى أجود مسدسه وجلس ينتحب ويبكي عند قبرها.. ثم بدأ يحفر فيه!



وصلوا الى سامراء مساء ذلك اليوم، كان أجود قد أخرج رفات رحمة ليكفنه ويدفنه كما يدفن الناس موتاهم. وصباح اليوم التالي شيعها هو ورفاقه وصلوا عليها ودفنوها في مقبرة سامراء. في ذلك اليوم بقي وحده أمام قبرها يبكي ويشكو إليها ويئن. رأى أجود ملائكة تنزل على قبرها، وفيضا إليها وأنواراً أضاءت ذلك القبر وشع نوره فأضاء أرجاء المقبرة كلها، وكأن قبرها قمر تحفه النجوم. رأى ذلك النور في القبر وكأنه معجزة، كان النور قد اخترق عروقه فبث فيها طمأنينة وسكوناً وراحة.. رأى ذلك النور يجتاح قبر جواد أخيه فيؤنس وحشته وينير ظلمته.. بل عله يصل الى سام فيسعده أينما كان. ثم رأى النور يكبر ويتعظم ليضيء سماء سر من رأى كلها. ولكن مع تلك الراحة والطمأنينة التي غمرته بقي معوّلاً على الحزن ومتخذاً منه رفيقه الأبدى على أمل اللقاء فيسكن ذلك الشوق وإن كان قد حفظ مقولة ذلك الإمام منذ أمد بعيد:

«كُلُّ شَوْقٍ يَسْكُنُ بِاللِّقَاءِ لَا يَعْوَلُ عَلَيْهِ»

قصة قرية (لوعة عباس) الواقعة في أطراف مدينة تكريت عند سيطرة تنظيم (داعش) عليها عام ٢٠١٤، تضطر (مهديّة) الأم أن تفر من القرية بولديها وابنتها بعد أن اختفى ابنها الكبير جواد في قاعدة (سبايكر) العسكرية، وبعد ما شهد ولديها من ظلم وممارسات رجال التنظيم القمعية ، تفر إلى مدينة (سامراء) وهي المدينة الوحيدة التي بقيت تحت سيطرة الدولة العراقية، لتقع هذه العائلة في شرك الفقر وشظف العيش ، إنها قصة الفارين من جحيم (داعش). كما تسلط الضوء على صراع الجيش العراقي وقوات التحالف ضد التنظيم. إنها قصة داعش في أكثر المناطق سخونة في العالم وما تتطوي تحتها من قصص حبّ وفراق، بقاء وفناء، غربة وموت.

ISBN 9789948378037



9 789948 378037



دار راشد للنشر
Dar Rashid Publishing